جوستاين غاردر

قلعة في البيرينيه

رواية/ دار المنى



جوستاين غاردر

قلعة في البيرينيه

رواية

النص العربي بقلم:
سكينه ابراهيم

دار المنى

قلعة في البيرينيه

ISBN 978 91 85365 73 9

Original title in Norwegian: Slottet I Pyreneene
Arabic text: Sukaina Ibrahim
This translation has been published with the financial support of NORLA

Printed in Sweden by Scandbook , Falun

www.daralmuna.com

١

حسنًا، ها أنا ذا يا ستاين. أن ألتقيكَ من جديد إنما هو السّحرُ بعينه! وهناك بالذات! كِدتَ من فَرْط ذهولكَ تسقطُ أرضًا. ولعلّكَ تدركُ أن لقاءَنا ذاك لم يكن 'لقاءً بالصُّدفة'. ثمّة قُوى خفيّة كانت تعمل هناك! قُوى!

تسنّى لنا أن نستَخلِصَ أربع ساعات لأنفسنا، إذا جازَ لي القول. وخلّفَ هذا أثرًا سيئًا في نَفْس نيلز بيتر، ولم يَنبِس ببنت شَفة إلا عندما وصلنا إلى "فُورد".

حثّتنا الخُطى لا نَرومُ إلا عبور الوادي. وبعد نصف ساعةٍ من المشي وجدنا أنفسنا إزاء أيكَة البتولا مرّةً أخرى...

لم يقُل أي منّا ولا كلمة واحدة طَوال هذا الوقت، أعني عن *ذاك الحَدَث*. تكلّمنا على كلّ شيءٍ آخر إلا عليه. كالأيام الخَوالي تمامًا؛ حيث لم نستطع الوقوفَ مُتّحدين في جبهةٍ واحدة لمُواجهة ما جرى. وما لبث أن جَفّ نَسْغنا وأيْبَسَت كرومُنا، لا أعنيك أنتَ بهذا أو أعني نفسي بقدر ما أعني الرابِط الذي جَمعنا. وفي آخر الأمر انتهى بنا المَطاف إلى عجزنا حتى عن تبادل تحيّة المساء. أتتذكّرُ تلك الليلة الأخيرة التي قَضَيتُها على الأريكة. وأتذكّرُ عَبق دخان لِفافتكَ من الغرفة الأخرى. بل شعرتُ ليلتها بأنني قادرة على رؤية رأسكَ المُطأطئ من خلال الجدار والباب المُغلَق. كنتَ جالسًا محنيَ الظّهر إلى الطاولة تدخّن. في اليوم التالي فارقتُك وغادرتُ وحدي، ولم نلتق منذ ذلك الحين، لم نلتق لأكثر من ثلاثين سنة. إنه شيء لا يُصدَّق.

ثمّ فجأةً، بعد تلك السنوات كلّها، أيقظَنا شيء ما كَحكاية الأميرة النائمة – كما لو أننا صَحونا بِمُنبّهٍ إعجازي واحد! وإذ بكلٍّ منا يسلكُ على حِدَةٍ طريقَ

السفر إلى هناك. في اليوم نفسه يا ستاين، في قَرن جديد، في عالَم جديد كلّ الجدّة. وفجأة هي 'المرحبا!' بعد ما يزيد عن ثلاثين سنة.

لا تقُل لي إنها ليست إلا مَحْضَ صُدفة. لا تقُل لي ليس هناك قُوى خفيّة توَجّهنا!

خروجُ سيّدة الفندق إلى الشرفة فجأةً فاقَ في سُرياليته أي شيء آخر – كانت في تلك الأيام ابنة أصحاب الدار الشابّة – وهي الأخرى مَرّ عليها ما يربو على ثلاثين سنة. وأعتقدُ أنها خَالت ما رأتهُ عيناها ظاهِرة '*ديجا فو*' فريدة. أتتذكّرُ ما قالَته؟ كانت كلماتُها: 'مِن اللطيف للغايةِ أن أرى أنكما ما زلتما معًا.' تلك كلماتٌ مُوجعة. وهي في الوقت نفسه كلمات لها وقْع هَزلي، بالنَّظر إلى أنني أنا وأنتَ لم نلتق منذ أن اعتنينا ببناتها الثلاث الصغيرات ذات صباح في منتصف السبعينيات. فعلنا ذلك تعبيرًا عن شكرنا على إعارتِنا الدّراجتين والمذياع الترانزستور.

هُم ينادونني الآن. لا تنس أنها أُمسية من أمسيات تمّوز، والعُطل الصيّفية هنا قرب البحر في أوْجِها. أظنّهم يَشوون سَمك السلمون في الهواء الطلق، وها هو نيلز بيتر يأتيني بشراب. منَحني عشر دقائق لأنهي ما أنا مُنكبَّة عليه، وأنا محتاجة إليها، فهناك شيء مهمّ أريد أن أطلبه منكَ.

أيُمكِن أن نتعاهدَ بصدقٍ على حذف الرسائل الإلكترونية التي نتبادلها بعد الانتهاء من قراءتها؟ أعني حذفها مباشرة، في الحين والساعة، ما يعني حتمًا عدمَ طباعة أي منها.

إن تواصلَنا الجديد هذا أشبه بدَفْقٍ فكري يتذبذبُ بين روحين، وليس مجرّد تبادل رسائل تبقى بيننا إلى الأبد. والمكافأة التي سنجنيها منه هي أننا سنَستَبيحُ الكتابةَ عن كلّ شيء.

لكن، لكلّ منّا زَوْج، ولكلّ منّا أبناء. وفكرة بقاء رسائلنا محفوظة في الكومبيوتر لا تروقني.

إننا نجهلُ طبعًا متى يحين وقت ارتحالنا الأخير. إنما لا ريب في أننا سنغادر يومًا هذا الكَرنفال بكلّ أقنعتهِ وأدوارهِ، ولن يتبقّى من بعدنا إلا بضع دعائم فانية، إلى أن تذهب أدراجَ الرياح هي أيضًا.

ونحن في هذه الرسائل سنتجاوز الزّمن ونخطو خارجه، وندع جانبًا ما نسميه 'الواقع'.

أعرف أن السنين تمرّ يا ستاين، إلا أنني ما زلتُ إلى اليوم لا أستطيعُ تخطّي الشعور بأن شيئًا مرتبطًا بما حدث في تلك الأعوام الماضية قد ينبثقُ فجأةً من جديد. ومن حين لآخر ينتابني هاجِس بأن هناك شيئًا يتتبّعُ خطواتي ويلاحِقني بأنفاسِه.

أنا ما زلتُ إلى الآن عاجزةً عن نسيانِ الأضواءَ الزرقاء الوامِضة في "لايكانغَر"، وما زال قلبي ينخلعُ كلما رأيتُ سيارة شرطة خلفي. مرّةً، قبل بضع سنوات، دقّ شرطي بابَنا. لا شكّ في أنه لاحظَ ما اعتراني من ارتباك. إلا أنه لم يبغِ سوى الاستعلام عن عنوان في الحَي.

أكادُ أجزم أنكَ تحسبني أُقلِقُ نفسي بلا مبرِّر. فأي مخالفة جنائية قد بَطلَ مفعولُها الآن على أي حال.

أما الخِزي فلا شيء يُبطلهُ...

لذا، عِدني بأن تحذفَ الرسائل!

لم تُطلِعني على سبب قدومكَ إلا بعد أن جلسنا بين أطلال كوخ الراعي القديم. حاولتَ أن تُخبرني عمّا كنتَ تفعله على امتداد السنوات الثلاثين الماضية، ووصفتَ لي مشروعكَ عن المناخ. ثم تطرّقتَ قليلاً إلى الحديث عن حُلم بالِغ الشفافية راودكَ في الليلة التي سبقَت لقاءنا على الشرفة. كان حلمًا كونيًا، قُلتَ، ولم يُتَح لك الخوضُ فيه بسبب تلك العُجول التي أقبلَت تطفرُ نحونا، لا بل طاردَتنا حتى جعلَتنا نُهروِل هابطين إلى الوادي. بعد ذلك، لا شيء آخر قِيل عن الحُلم.

لكن أحلامكَ الكونية هِي أبدًا مُتوقّعة... حاولنا آنذاك أن نتزوّدَ بسُويعات

من النوم، إلا أننا كنّا بطبيعة الحال منفعلين جدًا. وهكذا، اكتفينا بالاتِّكاء هناك مُغمضي الأعين نتهامس؛ نتهامس عن النجوم والمَجرّات وأشياء كتلك. فقط عن أشياء عالية جدًا، جَسيمة ونائية...

غريبٌ التفكيرُ في ذلك الآن. كان هذا قبل أن 'أؤمِنَ' بأي شيء. قَبْله بفترةٍ وجيزةٍ فقط.

إنهم يُنادونني ثانيةً. لدي ملاحظة أخيرة قبل أن أرسلَ ما كتبتُ. كان اسمُ تلك البحيرة "إِلْدَرفاتِنْت" أو بحيرة القَوم الأقدمين. أليس ذاك اسمًا غريبًا لبحيرةٍ جبلية نائية عن الحضارة؟ أعني، من كان أولئك 'القُدَماء'، أولئك القوم الأوائل هناك في الأعلى بين الذُّرَى والقمم؟

عندما ذهبْتُ مؤخّرًا إلى تلك المنطقة بالسيارة مع نيلز بيتر، تلهّيتُ بالتحديق في خريطة الطريق. لم أَعُد إلى هناك منذ أيامنا يا ستاين، ولم أستطِع أن أنظر، خصوصًا إلى البحيرة. بعد عدّة دقائق، دُرنا حول البقعة التالية أيضًا. أعني المُنعطف القريب من المُنحدر، والمرورُ بتلك البقعة كان الأشدّ إيلامًا.

لا أظنّ أنني رفعتُ عيني عن الأطلس إلا بعدما أصبحنا في بَطن الوادي. وفي المقابل عرفتُ أسماء الكثير من الأماكن، وقرأتُها على نيلز بيتر. احتجتُ إلى التلهّي بشيءٍ ما. خشيتُ أن أنهارَ وأضطرَ إلى البَوْح له بكلّ شيء.

ثمّ وصلنا إلى الأنفاق الجديدة. أصررتُ على أن نمضي بالسيارة عَبرها، بدلاً من المرور بكنيسة القضبان ثم الانحدار نحو الدرب القديمة بإزاء النهر. تعلّلتُ بِعُذر تأخُّر الوقت وضيقه.

آه، بحيرة "إِلْدَرفاتِنْت"...

كانت مَرأة العِنَبية 'كبيرة السِّنّ'. أو على الأقلّ هكذا اعتبرناها آنذاك. امرأة كَهلة، قُلنا، امرأة كَهلة بوشاح وردي على كتفيها. أردنا التأكّد من أن

ما رأيناه هو في أدنى الأحوال الشيء نفسه. هذا عندما كنّا قادرين بَعدُ على التحاور.

أما الحقيقة فهي أنها كانت بسِنّ يماثل سنّي اليوم. لا أكثر ولا أقلّ. كانت ما يمكن أن نصفَه بقولِنا امرأة في منتصف العمر.

لحظةَ أقبَلتَ خارجًا إلى الشرفة يا ستاين، وعلى الرغم من مرور ثلاثين سنة على فراقنا، خِلْتُ إذ رأيتُكَ أمامي أنني أقف وجهًا لِوَجهٍ مع ذاتي. ليس هذا فقط، بل أيضًا وَقَرَ في داخلي شعور بأنني قادرة على رؤية نفسي من الخارج، أعني من وِجهة نظرِكَ وبعينيكَ. وفجأة بدا لي كما لو أنني أنا مَرأة العِنَبية. تلك كانت العواطف المُزَعزِعة التي هَيمنت علَي.

هَاهُم ينادونني من جديد. إنها المرّة الثالثة، ولذلك سأرسلُ الآن وأحذِف. مع أحرّ الأماني من سولرن.

أراني أغالبُ نفسي لئلا أكتب 'سولرنكَ'، فنحن لم نفترق على خصام مطلقًا. وفي ذلك اليوم لم أقُم بما هو أكثر من جَمع القليل من مَتاعي والمغادرة. لكنني لم أرجع. ومضى ما يُقارب السنة قبل أن أكتبَ لك من "بيرغن" لأطلبَ منك حَزم بقية أغراضي وإرسالها، وحتى يومها لم أعتبرهُ فراقًا رسميًا بيننا من أي نوع. إنما رأيتُ أنه التّسوية العملية المُثلى، لأنني سأمكثُ فترة طويلة في الطرف الآخر من البلاد. وتعرّفي إلى نيلز بيتر حدَث بعد مرور عدّة سنوات على رحيلي. أما أنتَ فاستغرقَ بكَ الزمن أكثر من عَقْد لتلتقي بيريت وتستَقِرّ.

كنتَ صبورًا يا ستاين. وأعرفُ أنكَ لم تفقد قطّ الأمل منّا. وهذا ما جعلني أُعاني في بعض الأوقات من الشعور بأنني واقِعة في جُرْم تَعدّدِ الأزواج.

لن أنسى أبدًا ما جرَى على ذلك الطريق الجبلي. وأحيانًا يتهيأ لي أنه لا تكاد

تمرّ ساعة من غير أن أفكّر فيه.

ثم وقَعَ حَدَثٌ بعد ذلك. وذاكَ *كان* بلا جِدال حدثًا بديعًا وميمونًا. واليوم أراه أشبه بالهِبة.

لو أننا فقط كُنّا مؤهَلَيْن لقبولِ تلك الهِبة معًا! لكن الذُّعر استَبَدّ بنا حينها. وفي بادئ الأمر انهَرتَ يا ستاين، وتركْتَني أُهدّئ من روْعِكَ، ثم انطلقتَ فجأةً لا تَلوي على شيء.

ولم تكد تمرّ بضعة أيام إلا وكنّا قد أمْعَنّا في تَنائينا. وسرعان ما فَقَدَ كلّ منّا القُدرة أو الإرادةَ على النظَر في عيني الآخَر.

نحن بالذات يا ستاين. كان ذلك لا يُصَدّق.

سولرن يا سولرن! كم بَدوتِ جميلة! متألّقة جدًا بثوبكِ الأحمر وظهركِ إلى الزُّقاق البحري والسِّياج الأبيض!

عرفتُكِ في الحال، طبعًا فعَلتُ. أم تراني تخيّلتُ رؤية الأشياء؟ كنتِ أنتِ حقًا مَن رأيتُ – كما لو أنكِ نتاج حِقْبة مختلفةٍ كلية.

واسمحي لي أن أقولَ لكِ في الحال: أنا حتمًا لم أربط بينكِ وبين أي 'مَرأة عِنَبية'.

أكادُ لا أصدّقُ أنكِ تكتبين لي! لقد أمَلتُ طَوال هذه الأسابيع في أن تفعلي. فكرةُ اللجوء إلى البريد الإلكتروني فكرتي، لكن أنتِ مَن قلتِ، قبلِ فراقنا، إنكِ ستتواصلين معي عندما يصبح الوقت مناسبًا. ولذا يعود فضل الخطوة الأولى لكِ.

مذهلٌ التفكيرُ في أن الصُّدفة شاءت أن تجمعَنا ثانيةً في تلك البقعة المائية المُنعزلة كسابق عهدنا. إن هذا يبدو تقريبًا كما لو أننا عشنا مع موعدٍ طويلِ الأجلِ لنعودَ ونجتمعَ آنذاك وعند ذاك بالضبط. أما الحقيقة فهي أنه

لم يكن بيننا أي اتفاق مُسبَق. وما حدث هو حَظّ استثنائي بَحت.

أقبَلْتُ إلى الشرفة من صالة الطعام حاملاً فنجان قهوة وصحنًا، وفي غَمرة ارتباكي انسكَب شيء من القهوة وحرقتُ رُسْغي، وكم أنتِ مُحقّة في قولكِ إنني تحامَلتُ على نفسي لأبقى واقفًا على قدمي – كنتُ أحاول تفادي وقوع الفنجان على الأرض وتهشُّمه.

تبادلتُ أنا وزوجكِ تحيّة مُقتضبة، ثم تذَرّعَ فجأةً بحُجة جَلبِ شيء من السيارة. فاغتنمنا الفرصة أنا وأنتِ لنتبادلَ بضع كلمات، وعند ذاك ظهرَت مالِكةُ الفندق. ربما رأتْني وأنا أجتاز مكتب الاستقبال، وربما تذكّرَتْني من تلك الفترة الفائِتة بينما الفندق في رعايةِ أمّها.

كنّا في تلك اللحظة نقف وجهًا لوجهٍ يا سولرن، أنا وأنتِ. وعلى ما يبدو اعتبَرتْنا زوجين في منتصف العمر، زوجين جاءا إلى هذا الزُّقاق البحري قبل رَدحٍ من الزمان في رحلة رومانسية، قبل أن يستقَرّا ويقضيا بقية حياتهما معًا – كثيرًا ما تخيّلتُ هذا – ثم، على حين غِرّة يقرّران العودة أخيرًا، ربّما في نوبة حنين جارِف، إلى مسرح مغامراتهما الشبابية. وهذا يعني بطبيعة الحال أن نخرجً إلى الشرفة بعد وجبة الصباح، مع أننا معًا أقلعنا عن التدخين – من أجل المصلحة العامّة – لنُسرّحَ النظر إلى شجر الزان النحاسي، والخليج والجبال. لطالما فعلنا ذلك في تلك الأيام.

تغيّرَ مكتبُ الاستقبال في الفندق، وظهرَ مقهى جديد لاجتماعات العمل العابرة. أما الأشجار، والمضيق البحري والجبال فبقيَت على حالها. وكذلك الأثاث واللوحات في الرَّدهة. حتى طاولة البليارد ما زالت هناك كعهدنا بها، وأشكّ في أن أحدًا قام بضَبْط البيانو القديم. عزفتِ عليه لحنًا لــ "ديبوسي" آنذاك، وعزفت مقطوعات حالمة لــ "شوبان". لن أنسى أبدًا كيف تحَلّق بقية الضيوف حول البيانو وصفّقوا لكِ بحرارة.

ثلاثون سنة مرّت. ومع ذلك كأن الزمن توقّف منذ ذاك الحين شبه ساكِن.

لقد تمكّنتُ من التغاضي عن التعديل الوحيد الفعلي هناك! أعني الأنفاق الجديدة! في تلك الأيام لم يتأمَّن أي بديل آخَر عن الزوارق. كنّا قد جِئنا بالزورق، وكذلك غادرنا بالزورق.

أتتذكّرين كيف هَدأتْ مخاوفُنا عندما وصلَت العبّارةُ الأخيرة؟ بعدها انقطعَت القريةُ عن العالَم، وغَدَت بقيّة تلك الأُمسية تحت تصرُّفنا، تبعَتْها تلك الليلة ثم الصباح التالي، إلى أن شقّت عبّارةُ "النيسوي" طريقها خارج الزُّقاق البحري وعادت بمزيدٍ من المسافرين قبل الغداء. ساعات من النعيم، أَسْمَيناها. أما في أيامنا هذه فأفترضُ أنه يتحتَّم علينا أن نجلسَ على الشُرفة طوال المساء ونتفحّصَ كلّ سيارة تندفع خارجةً من النفَق. ونتساءل هل تُكمِل طريقَها غربًا، أم أن إحداها قد تنعطِف عند متحف الجليد وتأتي إلى الفندق في إثرنا - أعني لتضعَنا قَيْدَ الاعتقال؟

على فِكرة، نسيتُ أننا اعتنينا ببنائها. وهكذا ترَيْن أنني لا أتذكّرُ كلّ شيء.

يناسِبني اقتراحكِ حذفَ الرسائل فورًا بعد قراءتها، وحذفَ الردودِ حالما نرسلها. أنا مثلكِ لا أُحبّذُ وجود أي شيءٍ في حافظة الكومبيوتر قد أضطرُ إلى الكذب بشأنه. أحيانًا يشعر المرءُ بالعِتْق عندما يجد مُتنفَّسًا لأفكاره وتداعِياتها. وفي وقتنا الحاضر كثيرة جدًا هي الكلمات التي تُخزَّن وتُصنّف على صفحات الإنترنت، أو في شرائِح الذاكرة والأقراص الصلبة.

لذا حذفتُ الرسالة الإلكترونية التي بَعثتِ بها لي منذ برهة، وها قد جلستُ لأجيبكِ. ولا بدّ لي من الاعتراف بأن عمليةَ الحذف هذه لها مساوئها أيضًا. فأنا إذ أَقبَعُ هنا تعترِيني رغبةٌ قويةٌ في أن تُتاح لي فرصة تكرار قراءة أحد مقاطعكِ. الآن أراني مضطرًا إلى الاتكال على ذاكرتي، وعلى هذا النحو سيأخذُ تبادلُ هذه الرسائل الإلكترونية مَجراه.

تُسرِّين لي في رسالتكِ احتمالَ وجود يَدٍ لبعض القُوى الغَيْبية وراء التِئام

شَملنا الرائع هناك على شُرفة الفندق. وهذا يستدعي مني أولاً وقبلَ كلّ شيء سؤالكِ التحمُّل بالحِلْم عندما يتعلّق النقاش بمسائل كهذه، لأنني سأعبّرُ عن نفسي بصراحتي السابقة التي درجتُ عليها في الماضي. وبالنسبة لي لا يسعني اعتبار مثل هذه اللقاءات التي تقع صُدفة إلا حوادث حَظّ لا تخضع للإرادة ولا للسيطرة بأي حال من الأحوال. صحيح أنها في وَضْعِنا لم تكن مجرّد واقِعة تافهة، بل صُدفة ضخمة. ولكنِ عليكِ أن تأخذي بِعيْن الاعتبار مُجمَل الأيام الأخرى التي لا نختبر فيها شيئًا من هذا القَبيل.

مع المُحازفة بتأجيجِ نيران مَيلكِ إلى ما هو مُكتَنف بالأسرار، سأُفْضي لكِ بشيء. عندما خرَجَت الحافلةُ التي سافرتُ بها من النفق الطويل عند "بيرغْهوفدِن"، كان الضباب يُحلّلُ الزُّقاق البحري حائلاً بيني وبين تمييز أي شيء في الأسفل. تَسنّت لي رؤية القمم، أما الخليج والسُّـــهوب فمُحِيَت من ذلك المشهد. ثم طالَعَنا نفق آخر، وحينما اندفعنا خارجه، وجدتُ نفسي تحت مُلاءة السحاب. لمحتُ الزُّقاق البحري وبُطون الوديان الثلاثة، وفي الوقت نفسه لم أعُد قادرًا على رؤية سفوح الجبال.

وكنتُ أفكّر، أتراها هناك؟ هل تأتي هي أيضًا؟

وكان أن أتيتِ. في الصباح التالي عندما خرجتُ من صالة الطعام إلى الشرفة وأنا أُوازِن بيدي فنجانًا طافحًا بالقهوة، رأيتكِ تقفين على تلك الشرفة بثوب صيفي هَفهاف.

تهيأ لي أنّي أنا من وضَعكِ في ذلك المكان، كما لو أنني أنا من كتَبَكِ في سيناريو الفندق القديم في ذلك اليوم بالذات. بدا الأمر كأنّكِ وُلدتِ على تلك الشرفة من ذاكرتي ومن خُسراني.

لكن سيطرتَكِ على تفكيري ليست شيئًا يستدعي الكثير من الاستغراب، خصوصًا بعد أن رأيتُ نفسي فجأةً في البقعة التي أطلقنا عليها اسم 'مَعزِلنا الشَّهواني'. على الرغم من أن تزامُنَ وصولنا إلى هناك ليس إلا مَحْضَ صدفة خالِصة طبعًا.

كنتُ جالسًا إلى طاولة الفطور أفكّرُ فيكِ وأنا أشرب كوبًا من عصير البرتقال وأقشّرُ بيضةً. وما لبثتُ أن استغرقتُ كليًا في تفاصيل حلم شفّاف راودني. ثم حملتُ فنجان قهوتي ومضيتُ إلى الشرفة. و... بسحرِ ساحرٍ
- هناك كنتِ!

شعرتُ بالأسف على زوجكِ. وتعاطفتُ معه بِصدقٍ عندما تركناه بعد ساعة ومضينا إلى الجبال *وحدنا*.

طريقةُ مَشينا، وطريقةُ استهلالِنا للحديث ردّدتا وَجيب صدًى حلوًا للزمن الذي قضيناه هناك في فَورة اندفاعِنا الشبابي. الوادي لم يتغيّر، وكما قلتُ، ما زلتِ تبدين فَتيَّة.

إلا أنني لا أؤمِنُ بالقَدَر يا سولرن، أنا حقًا لا أؤمِنُ به.

أراكِ تشيرين مُجدَّدًا إلى 'مَرأة العِنَبية'. وهذا يلعبُ بأوتار أغرب الأشياء التي اختبرتُها في حياتي. أنا لم أَنسَها، ولستُ أُنكِر وجودها كما ترَيْن. ولكن انتظري قليلاً، فهناك حدَثٌ شهِدتُه وأنا في طريقي إلى البيت.

بعد رحيلكِ أنتِ وزوجكِ، بقيتُ هناكَ لأحضرَ افتتاحَ مركَز المناخ الجديد في الصباح التالي. وكما أخبرتُكِ كان علي أن أُلقي كلمةً قصيرة عنه على الغداء. ولذلك لم أغادر إلا في صباح يوم الجمعة، حيث ركبتُ الزورقَ السريع من "باليسْتراند" إلى "فلوم"، وبعد ساعاتٍ من الانتظار هناك، أخذتُ القطار إلى "مِرْدال"، ثم وسيلةَ نقلٍ أخرى إلى "أوسلو".

قبلَ أن نُشرفَ على "مِرْدال" بقليل، توقّفَ قطار "فلوم" عند شلال عظيم يُدعى "كيوسْفوزن". واقتِيدَ السياحُ بكياسَةٍ خارجَ القطار ليلتقطوا صورًا لذلك الشلال، أو ليلقوا نظرةً على مَسقَط الماء الطّبشوري اللون.

وفيما نحن وُقوفٌ على الرّصيف فوجئنا بظهور حورية ماء من المُنحدَر إلى يمين الشلال. بدا لنا كأنها خرجَت من العَدم. ثم، كما ظَهَرَت بغتةً، اختَفَت بغتةً. بيد أن اختفاءها لم يستغرق إلا جُزءًا من الثانية، لأنها عادَت

وطلعَت على بعد أربعين أو خمسين مترًا. تكرَّرَ هذا مرّتين أو ثلاث.

ها، ما رأيكِ في ذلك؟ ربما نقول إن المرءَ إذا كان شبحًا فلا شيء يضطرهُ إلى الخضوع لقوانين الطبيعة.

يُستحسَن على أي حال ألا نتسرَّعَ في القفز إلى النتائج. وهذا يستدعي مني التساؤل ما إذا كنتُ فعلاً قد أبصرتُ شبحًا أو راوَدتني رؤية؟ لقد اختبَر جَمعٌ من الناس يُقارب المئة التجربة نفسها التي اختبرتُ. فهل كنّا كلّنا حينذاك شهودًا على شيء خارق للطبيعة؟ أعني أننا جميعًا لَمحنا حورية حقيقيةً أو روحًا من أرواح الطبيعة؟ لا، لا. من الواضح أن المشهدَ برُمّته كان مُعَدًّا للسياح، وما لا يمكنني تَخمينهُ فقط هو المبلغ الذي تتقاضاه أولئك الفتيات.

هل أغفَلتُ ذِكرَ شيء؟ نعم - فتلك الفتاة، بصرف النَّظر عن كلّ ما قُلْتُه عن ظهورها المُفاجئ، لم تتنقّل في المكان بطريقة طبيعية، بل وثَبَت من بقعة إلى بقعة بسرعة البرق. ما يعني أنهما فتاتان لا واحدة. وهي في جميع الأحوال خُدعة! ولا أملكُ أدنى فكرة عن عدَد 'الحوريات' اللاتي كُنَّ هناك عند "كيوسْفوزن" في ذلك الأصيل. أفترضُ أنهن ثِنتان أو ثلاث، وكلّهن حتمًا يتقاضَين المبلغَ نفسه.

أخبركِ بهذا لأنني أدركتُ شيئًا ربّما لم يخطر لنا قطّ في الماضي، وأرى أن الأوان لم يَفُت لنأخذَه بعين الاعتبار. لعل أحدًا هَيأ وجود 'مَرأة العِنبية' هناك بطريقةٍ ما. ربما كانت تؤدي دورًا، تمارسُ خُدعة علينا، ولعلنا لسنا وحدنا ضحايا نزواتها المُفتعلة. إن القرويين ذوي الأطوار الغريبة مثلها يمكن العثور عليهم في كلّ مكان تقريبًا.

مهلاً، ألم أُغفِل هنا أيضًا شيئًا آخر؟ بَلى بالتأكيد! الأمر لم يبدُ كما لو أن 'مَرأة العِنَبية' انبثقَت من لا شيء ومن لا مكان فحَسْب، بل أيضًا سرعان ما ابتلعتها الأرض بعدما أدَّت عرضَها المسرحي. وربما هذا ما حدث فعلاً. قد لا تعدو تلك المرأة أن تكون مُهرِّجًا مُتمرِّسًا وقع في شَرَكٍ قديم أو سقطَ خلف بعض الصخور. كيف لي أن أعرف؟ فنحن لم

نتفحَّص الأرض، بل في الحقيقة استدرنا على أعقابنا وبكلّ ما أوتينا من عَزم أطلقنا سيقاننا للريح ميمّمين الوادي كأن الشيطان نفسه يطاردُنا.

نقول أحيانًا لن أصدّقَ حتى أرى. إلا أنني لستُ واثقًا من أنه لا مفرَّ من التصديق عندئذٍ. علينا ولو من حين لآخر أن نفركَ أعيننا قبل أن نصدِر الأحكام. وعلينا أن نسألَ أنفسنا كيف تسنّى لشيء أو لشخصٍ أن يوقعَنا شرَّ إيقاع في حَبائل خُدعه. لم نفعل هذا حينذاك. كنّا مَذعورين. وكنّا مُزعزعين بسبب ما جرى قبل ذلك بأيام. ومن الطبيعي أن يتراجعَ أحدُنا في حال تراجَع الآخَر.

رجاءً، لا تظنّي أنّك قد صُدِدتِ. لقاؤكِ من جديد غمَرَني بسعادة جَمّة، وصارَت الابتسامة تلازِمني في حلّي وتَرحالي. أنا لا أعني أن مثل هذه المصادفات المَيمونة ثانوية أو بلا معنى. بل هي عظيمة المغزَى لأنها تستقطِبُ اهتمامنا وتؤثّر فينا. وهي أيضًا مهمّة جدًا لما يترتّب عليها من بعدها.

من بين كلّ الأماكن لم يُجمَع شملنا إلا *هناك*. وعندئذٍ لم نَرُم إلا الصعود إلى كوخ الراعي المعهودِ لمرّةٍ أُخرى. من قد يخطُر له أن شيئًا كهذا يمكن أن يتكَرَّر؟

لو أنّ الاجتماع الدَوْري كان متيسّرًا لنا، لِنَقُل مرّةً أو مرّتين في السنة، فإن نزهةً على الأقدام لأربع ساعات ليست بالوقت الطويل. إلا أن هذه الساعات الأربع تعتبرُ وقتًا طويلاً جدًا بعد انصِرَام عدّة عقود على لقائنا الأخير. لأن التفاوتَ في هذه الحالة بين ذلك اللقاء الوحيد وبين لا شيء على الإطلاق جسيمٌ.

لا بأس يا ستاين، التواصلُ معكَ مُبهجٌ، وهو أيضًا يتضمَّن تذكيرًا بالأسباب التي باعدَت بيننا. كان أحدُها آنذاك، وهو كذلك الآن، الاختلافَ الكبير بيننا

في طريقة تفسيرنا لأشياء معيَّنة اختبرناها معًا. سببٌ آخر هو فوقيتكَ وحَطُّكَ دائمًا من شأن تأويلاتي.

إلا أن *التواصل* معكَ مُبْهِجٌ على الرغم من كلّ شيء. أفتقِدكَ. فقط امنَحني القليل من الوقت، وسأجيبكَ عندما يغدو مِزاجي أفضل.

لم أتعَمّد التصرّفَ بفَوْقيةٍ، ثم إنني لا أتذكّرُ حرفيًا الكلمات التي استخدمتُها. ماذا قلتُ؟ ألم أَقُل إنني الآن أجولُ في البيت ضاحكًا في عُبّي لأننا التقينا ثانية؟

على أي حال، لديَ المزيد في جَعْبَتِي. سافرتُ في طريق العودة على مَتْن عبّارة تحمل اسمَ الزُّقاق البحري نفسه. وأوّل مَوقعٍ قصَدَتْه العبّارةُ كان "هيلا"، حيث أوقفنا مرّة سيارتنا القديمة الرهيبة تلك – انتابني شعورٌ غريب جدًا وأنا أقفُ على سطح العبّارة وأشرفُ على رصيف المراكب – بعدئذٍ تجاوَزنا الخليجَ الرئيسي إلى "فانغسْنيس" قبل أن نستديرَ ونتّجه إلى "باليسْتراند". هناك، رحتُ أذرَعُ البقعةَ المجاورة لفندق "كفيكني" ذهابًا وإيابًا بانتظار المركب السريع من "بيرغن". تأخّرَ ذلك المركب قليلاً، وأظنّ أنه تجاوزَ موعده بنصفِ ساعة تقريبًا، وفيما أنا أصعدُ إليه اكتشفتُ أنه يحمل اسمَ "*سولَندير*"!

أُخِذْتُ على حين غِرّة. فكّرتُ فيكِ طبعًا، مع أنني بصراحة لم أفكّر في أشياء أخرى كثيرة منذ أن تبادلنا التلويحَ بالوداع عند رصيف ميناءِ البواخر القديم قبل يومين. لكنني لحظَتها عُدتُ بذاكرتي إلى الصيف الذي ذَهبنا فيه إلى جُزر "سولَند"، عندما زُرنا جدّتَكِ. ألم يكن اسمها راندي؟ راندي هينّفوغ؟

لا أستطيع أن أقولَ إنني وقعتُ في شِباك أحلام اليقظة ليس إلا، بل أُفضِّل

وصفَ ما اختبرتُه بأنه حالةُ وَعي دقيقة، إذ وَمَضَ في ذهني فجأة حَشدٌ كاملٌ من التجارب القديمة؛ صورٌ حيّة وانطباعات من الزّمن الذي عشناه هناك قرب البحر ونحن في العشرين من العمر أو أكثر بقليل. صورٌ تُشبه تقريبًا مُقتَطفات فيلم من وقائعَ لا يَحضُرني أنني قد التقطتُها، وهي لم تكن مقتطفات صامتة، إذ خِلتُني قادرًا على سماع صوتكِ، سمعتُكِ تضحكين وتحادثينني. ألم أسمَع أيضًا وَشوَشة النسيم وطيور البحر، أوَلَم أشُمّ رائحة شعركِ الأسود المنسدِل؟ فوّاحًا كان برائحة البحر وأعشابه. وتلك، لم تكن تداعيات فكرية عادية، بل جاءتني تمورُ كأنها مِرْجَلٌ عامِرٌ بسعادةٍ كُبِتَت طويلاً، كأنها ارتجاع زمنٍ امتلكناه مرّةً.

أقابلُكِ أوّلاً هناك في الفندق القديم بعد أكثر من ثلاثين سنة على وجودنا فيه آخرَ مرّة. وعندما أغادرُ، أغادرُ على مركب يحمل اسمَ مجموعة الجُزر الصغيرة التي يعود إليها أصلُ عائلة أمّكِ. ألم تقولي دومًا إن اسمَكِ هو على نحوٍ ما صدى لذلك الاسم؟ أتَذكَّرُ جيدًا أننا غالبًا ما تطَرّقنا إلى الحديث عنِ أكثر الجُزر بُعدًا التي تُدعى "إيتر سُولا"، الجزيرة التي عاشت فيها جدّتُكِ. ولكن سولرن و"سولَنديرِ"! أمِنَ الغريب إذًا أن أُوخَذَ على حين غِرّة؟

على الرغم من ذلك، ينبغي ألا تستدرجَنا شِباكُ الصُّدف المحبوكة هذه إلى محاولةِ استشفافِ نتائج باطنية منها؛ فنحن نعلمُ أن الاسمَ الذي يحمله ذلك المركب يعود إلى اسم أحد مراكز المقاطعة الإدارية، لا أكثر ولا أقلّ. وهكذا عدتُ واستعدتُ رَباطَة جأشي، إلا أنني لبثتُ واقفًا على سطح المركب أبتسمُ لوقت طويل.

ها، ما قولكِ في هذا؟

أنا هناك الآن يا ستاين، أعني في "سولَند". أنا في البيت القديم في

"كُولغْروف" جالسة أرنو إلى الأفق من وراء سلاسل الصخور والجُزر. الشيء الوحيد الذي يُفسِد عليّ المنظر في هذه اللحظة ساقا رَجُل. فنيلز بيتر يعتلي سُلّمًا ويطلي إطار نافذة الطابق العلوي.

عندما عدتُ أنا وأنتَ من كوخ الراعي في ذلك الأربعاء، رأى زوجي أنه من الضروري لنا أن نغادرَ على وَجه السرعة، لأن علينا، كما زعَم، الوصولَ في الوقت المناسب إلى بيتنا في "بيرغن" لنلحقَ أخبار الساعة السادسة.

كانت الساعةُ تُقارِب الثالثة عندما بلغنا "بويادال" التي ولَجنا منها النفقَ قرب جبل الجليد. ولما خرجنا إلى ضوء النّهار ثانيةً لاحَظْنا أن السَّديمَ ينقشِع، وأن الشمس أخذَت تتخلّله فيما مضينا نتابع انطلاقنا على خَطّ بحيرة "يُولسْترافاتْنيت". كان السَّديمُ الموضوعَ الوحيد الذي علّقَ عليه نيلز بيتر إلى أن تجاوزنا "فُورد". إنه ينقشِع، قالَ ونحن ننعطفُ حول البحيرة بالقرب من "سكِيي". حاولتُ استدراجَه إلى إقامة حوارٍ بيننا، إلا أنني فشلتُ في حَثّه على قول المزيد. لاحقًا دارَ في خَلْدِي أن هذا التعليق المُقتَضب منه ربما عنَى أكثر من مجرّد شيء يتعلّق بالأرصاد، وأنّه ربما أشارَ به إلى مزاجه بِقَدْر ما أشار إلى الضَّباب.

بينما اتجهنا جنوبًا من "فُورد"، التفَتَ نحوي قائلاً إنها كانَت بمُجملها رحلة طويلة بالنسبة إلى يوم واحد، وأن لا بأسَ من قضاء ليلةٍ في البيت الذي يعودُ إلى عائلة أمي والذي نَدعوه الآن 'كوخنا الصيفي'. كانت الفكرةُ الأساسية أن ننطلقَ إلى بيتنا مباشرة، بسبب خططه لليوم التالي في المقام الأول، بيد أن الاقتراح الذي طرحَه في تلك اللحظة جاء بمثابة محاولةٍ منه لعقد صلح، سواء للاعتذار عن تذمُّرهِ الشديد عندما أصررتُ على الخروج معكَ في نزهة طويلة – بعد كلّ تلك السنين يا ستاين – أو لجلوسهِ الصامت في السيارة لفترة طويلة لاحقًا. وهذا ما فعلناه. عبَرنا الخليجَ بين "ريسيِدالسفيكا" و "رونْلِدال"، وتابعنا الطريقَ إلى جُزر "سولَند". حَظينا بيوم

رائع هناك قرب البحر بينما كنتَ تحضر افتتاح مَركز المناخ. بطبيعة الحال أرسلتُ لكَ أفكارًا شتًّى. أعني ذكريات وصورًا، وأوقات نَعِمْنا بها. وهذا شيء داومتُ على فعله في الأيام التالية. كانت تلك الذكريات التي بثثتُها مُكثّفةً، وبعضُها كما يبدو بلغكَ على هيئة 'مُقتطفات من فيلم' لم تتذكّر أنكَ التقطتَها...

وَصلنا إلى البيت في "بيرغن" في وقت متأخرٍ من مساء الخميس، وباكرًا في صباح الجمعة نزلتُ إلى "ستراندكاين" لأتفرّجَ على *السولَندير*" وهي ترفعُ مَراسيها، فهي تُبحرُ من "بيرغن" في الساعة الثامنة. كنتَ قد ذكَرت أنكَ ستترك "باليستراند" في ذلك الصباح، وبما أنني أنهضُ باكرًا في جميع الأحوال، قمتُ بنزهةٍ صباحيةٍ من "سكانسن"، وتجاوزتُ سوقَ السمك إلى أحواض السفن. لأتمنّى لكَ رحلةً سعيدة يا ستاين، لأقولَ وداعًا مرّةً أخرى. ادْعُني لا عقلانية، لكنني شعرتُ أن ذلك ما أريد القيام به. لا تَقُل لي إن تحيتي لم تصلْكَ. سرّني التفكير في أنكَ تسافر على " *السولَندير*"، وتخيّلتُ أنكَ على الأرجح لن تلبث أن تستغرقَ في ذكرياتكَ عنّي وعن مُجازَفتِنا الصيفية هنا.

أما المركب، فطبعًا لا. لا يحمل اسمي. فهو كما تشيرُ في رسالتكَ أخذَ اسمَه من الجُزر التي في فَم خليج "سوغني"، حيث كنتُ مُعظم يوم أمس، وحيث أجلسُ في هذه اللحظة أرنو إلى البحر وأكتبُ لكَ. لِحُسنِ الحَظّ ذهبَت الآن الساقان اللتان ما بَرِحَتا بطريقةٍ ما تُشتّتان المنظرَ وأفكاري...

"*سولَندير*" هي ببساطة كلمةُ جَمْع نرويجية مُفرَدها "*سولَند*". وتشتملُ المجموعةُ "السولَندية" على بضع مئات من الجُزر. تعني "*سول*" 'الأخدود'، و"*اند*" تعني 'مُفعَم بِـــ' . والجُزر "السولَندية" مُفعَمة بالأخاديد. وهذا ليس بالوصفِ غير الدقيق لطبيعة الأرض هنا. فبَلَدُنا، كما يقول نشيدُنا الوطني 'يمتطي البحرَ، يَخُدُّه الماءُ وتَحُتُّه الأنواء...'

لا ريب في أنكَ تتذكّرُ كيف كنّا نتسكّعُ في تلك الأرجاء، نلعب الغُمَّيضة

في ربوع التشكيلات الصخرية المُسكِرة، والمؤلَّفة من كُتَلٍ تخالِطها الألوانُ البديعة. ولا أظنّكَ نسيتَ كيف درَجنا على المشي لساعاتٍ نجمَعُ الأحجارَ في تلك الفَلاةِ الصخرية المنحوتة. لطالما جمَعتَ الحصى، فيما جمعتُ أنا نوعًا مُعيّنًا من الحجارة الحمراء. ما زالت هذه الأحجار لدي يا ستاين، ما زالت لامعة، أحجاركَ وأحجاري. وهي مصفوفةٌ في أحواض الزهور.

أنتَ مُصيبٌ في قولِكَ إن اسمَ جدّتي راندي. وأعترفُ لكَ أن مجرّد استفهامك عن صِحة الاسم أصابني بشيء من خيبة الأمل، لأنكما انسجمتما معًا كثيرًا. أتذكّرُ أنكَ مرّةً وصفتَ جدّتي بأنها أكثر من التقيتَ في حياتكَ روعة وحميمية. وهي، لم تَكِلّ قطّ كلما ارتادَت حديقَتها الصغيرة أن تُهمهمَ لنفسها أوه يا له من لطيفٍ 'ذاك الستاين'! ثمّة شيء مميز جدًا في 'ذلك الستاين'. فجدّتي رأت أنها لم تقابِل مطلقًا شابًا أروع منكَ.

أمّي ترَعرعَت هناك أيضًا، كما تعرِف، في المكان الذي أصبح الآن أكثر المناطق الغربية الآهِلة بالسكّان في البلاد. كان اسمُها قبل الزواج هينّفوغ، ويبدو أنكَ لم تنسَ ذلك. وعندما أسماني والداي سولرن، لم يلتقطا الاسمَ من فراغ، بل استلهَماه على نحوٍ ما من أصول العائلة.

نحن الآن كلّنا هناك، أربعَتنا في الواقع، قبل أن تعودَ المدرسةُ وحياتنا الروتينية إلى الأخذِ بزِمام أمورِنا في غضون بضعة أيام. أصبحَت ابنتي إنغريد طالبةً جامعية! الهواءُ هنا في مَصَبّ الخليج ساكِنٌ على غير العادة، وأمس أُتيح لنا الجلوس في الحديقة وإعداد شِواء على سبيل التغيير.

العالمُ يا ستاين ليس فُسَيْفِساء من الصُّدَف، بل كلّه مُتداخِل.

رائعٌ أن يصلَنِي منكِ جواب يا سولرن. ويبدو لي أن الحَظّ حَليفي لأن تَعَدُّل مزاجكِ لم يستغرق وقتًا طويلاً.

مجرّدُ التفكير في أنكِ هناك الآن يفعل بي فِعلَه. يجعلني هذا أفترضُ أن بعضًا مني هو هناك أيضًا ما دُمنا نتراسل. إنني أوّل مَنْ يُقِرّ بأن في وسع شخصيْن أن يكونا جدًّ متقاربيْن حتى مع وجود مسافة شاسعة تفصل بينهما. هذا المعنى أوافقكِ على أن العالَم مُتداخِلٌ.

تأثّرتُ كثيرًا بقولكِ إنكِ انحدرتِ إلى "ستراندكاين" في ذلك الصباح لتبعثي لي بتحيّةٍ مع المركب السريع. أستطيع رؤيتكِ بعين خيالي تحثّين الخُطى نزولاً من "سكانْسن"، وهذا المشهد يضعُني في أجواء فيلم إسباني. ومع أنني لم أعترف سابقًا بوصول تحيتكِ، يمكنني الآن على الأقلّ الإدلاء باعترافي.

في نقطةٍ ما يا ستاين، ونحن نصعد إلى "مُنْدالسدال"، قلتَ إنكَ لطالما رفضتَ كلَّ ما يُدعى 'الظواهِر الخارِقة للطبيعة'. بيّنتَ أنكَ لا تؤمن بتوارُد الخواطر، أو بأي صيغة من الاستبصار أو الكَشف الغيبي. وأدليتَ بذلك التأكيد الجازِم حتى بعد أن أعطيتكَ بعض الأمثلةِ الممتازة عن تلك الظواهِر. وأنا أعْزُو هذه المسألة في حالتِكَ إلى امتناعِكَ عن استعمال مَجَسّات الإشعار التي لديكَ، وإبقاء الغَمامات على عينيكَ، أو ربّما أنتَ في الحقيقة لا تميّز أنكَ أحيانًا 'تستقبِل' الأشياء، معتقدًا أنها من نفَحات وَحْيكَ الخاصّ.

وأنتَ لستَ وحدكَ في هذا يا ستاين. فزماننا فيه الكثير من العمَى النفسي، والكثير من الفقر الروحي.

أما أنا فإنني على قَدْرٍ من السذاجة يجعلني لا أتقبّلُ اعتبار ما حدثَ مجرّد صُدفة، أعني حقيقة أنه قُدِّر لنا الوقوف معًا ثانيةً هناك على شُرفة ذلك الفندق. أنا أعتقدُ أن مثلَ هذه الأمور مضبوطة على نحو ما. لا تَسلني كيف ولماذا، لأنني لا أعرف حقًا. ولكن الجهل بالشيء ليس مثل تجاهله. لم يَر الملك "أوديب" خيوط القَدَر التي تلاعبَت بحياته، وعندما غدَت واضحة له اعتراهُ خِزي عظيم جعلَه يفقأ عينيه. بيد أنه من البداية طبعًا عَمي عن قدَره.

أصبحَ النقاشُ بيني وبينكِ يا سولرن مثلَ لعبة كُرة الطاولة، ما رأيكِ إذًا في أن نستمرَّ في التراسُلِ طَوال فترة ما بعد الظهر؟ في هذه الحالة سيتَسنّى لي ولو قليلاً الاستمتاع بـــ "سولَند" في هذا اليوم الصيفي، ها؟

لا أرى ما يمنع ذلك يا ستاين، فنحن نتحاوَرُ. أنا في إجازة، وفي هذا البيت يَسري قانون غير مُدوَّن مَفَاده أن لكلّ منّا الحريّة في فعل ما يشاء في أيام الإجازات. نتشدّدُ فقط في الاجتماع لتناول الطعام، باستثناء وجبة الصباح، حيث يتدبّرُ واحِدنا أمره حالما ينهض. لم يَمض وقتٌ طويل منذ أن أنهينا الغداء، ولا ارتباطات لدي قبل موعد العشاء في أواخر المساء. وإذا لم تَهبّ الريح قد يُواتينا الجوّ لإعداد الشواء اليوم أيضًا.

وأنتَ؟ أعني، ماذا أزور *أنا* في عَصر هذا اليوم؟

مِن المؤسفِ يا سولرن أنني لا أستطيع عَرضَ شيء يُضاهي أجواءَكِ. أنا جالسٌ في مكتب مُضجر في جامعة "أوسلو"، وسأبقى هنا إلى أن أقابلَ زوجتي بيريت في المدينة قرابة الساعة السابعة. سنذهبُ إلى "باروم" لزيارة والدها الواعي والفَطِن جدًا على الرغم من كِبَر سِنّه. ما زال الوقت مبكرًا جدًا على ذلك، ولدينا أنا وأنتِ عِدّة ساعات نقضيها معًا.

جامعةُ "أوسلو"! لا تنسَ أنّني درستُ في تلك الجامعة خمس سنوات. آه، يا لتلك السنوات يا ستاين.. مجرّد أن أحلمَ بتلك السنوات أكثر من كافٍ لإدهاشي...

وعلى ذِكر الماضي، لا يَحضُرني الآن أنه كانت لديكَ تَطلّعات لأن تصبحَ أستاذ جامعة. ألَمْ يقتصِر طموحكَ في تلك الأيام على التعليم في مدرسةٍ ثانوية؟

بعد رحيلكِ وجدتُني في فراغٍ مخيف حاولتُ جهدي أن أشغلَه. وهذا تحوّل مبدئيًا إلى الدكتوراه ثم إلى شهادة الزَّمالة والعُضوية في الكليّة. لكن مَهلاً، ربما علينا التريُّث قليلاً قبل أن نتطرّقَ إلى الحديث عن 'الماضي'، فأنا مهتمّ بِمعرفةِ مَن أنتِ الآن يا سولرن.

حسنًا، أنا مَن انتهَى بي المَطاف إلى التعليم في مدرسة ثانوية. لقد تكلّمنا على هذا. وبكلّ صراحة لم أندَم على هذه الخطوة في يوم. بل أرى أنني أتمتعُ بنوعٍ من الامتياز في كَسبِ عيشي بإنفاق بضع ساعات يوميًا مع ناشِئة مُلتزمين، عِلاوة على تعليم موادَّ تحظَى باهتمامي. فكرةُ أنكَ لا تتوقّف عن التعلُّم ما دامَ لديكَ تلاميذ ليست مجرّد كليشيه. في أغلب الصفوف التي علَّمتُها التقيتُ بعض الشبان من ذوي الشَّعر الأشقر المجعد الذين أيقظوا في داخلي ذكريات عنكَ وعنّا في الأيام الخَوالي. وفي إحدى السنوات كان هناك فتى مثلكَ بالفعل، بل لديه تقريبًا صوتكَ نفسه.

لكن الساحةَ لكَ. كتبتُ شيئًا ضمن السطور أنكرُ فيه أن وجودَنا معًا فجأةً، ووقوفنا ثانية وجهًا لوجهٍ على تلك الشرفة ليس في نظَري من قَبيل الصُّدَف.

بل هو كذلك في رأيي يا سولرن. فكلماتٌ مِثلَ 'لقاء بالصُّدفة' أو 'ضَربة حَظّ' تشير عن طريق تعريفها إلى شيء، هو من الناحية الإحصائية، مُستَبْعَد. وقد توصّلتُ مرّةً في حساباتي إلى أن فرصةَ رَميِ النَّرد اثنتَي عشرةَ مرّةً والحصول في كلّ مرّةٍ على الرّقم ستة، أي اثنتي عشرةَ سِتة مُتتالية، هي أقلّ مِن واحد بالبليونيين. وهذا لا يعني أن أحدًا لم يتأتّ له تحقيقُ الرّقم نفسه اثنتَي عشرةَ مرّةً بالتتابع، وذلك لسبب بسيط وهو أن كوكبَنا فيه بضعةُ بلايين شخص، والنَّرد يُرمَى تقريبًا في كلّ مكان. إلا أننا في قضية

استثنائية كهذه، نحن نتحدّثُ عن احتمالات الأبعادِ الفلكية. وهذا ما يجعلُ الناسَ أحيانًا، في حالِ تَحَقُّق ذلك لهم، يستغرقون في ضحكٍ هستيري. لأنه وفْقَ المعايير الإحصائيَة، عليكِ أن تجلسي وتواصلي رَمي النَّرد آلافًا من السنين حتى تتوافَر لكِ فرصةٌ معقولة لتحصلي على اثني عشرَ رقمًا مُتماثلاً. عِلمًا بأن هذا قد يأتي عفويًا في غُضون ثوانٍ مَعدودات. أليست هذه فكرة مشوّقة؟

كانت صُدفةً مُذهلة بلا ريب أن ألتقيكِ فجأةً هناك يا سولرن. كانت صدمةً. وكذلك لن أتوانَى عن تسميتها ضربةَ حَظّ. إنما ليست خارِقة للطبيعة.

هل أنتَ على يقينٍ كاملٍ من هذا؟

نعم يا سولرن، أكادُ أكون على يقين كامل. تمامًا كيقيني من عدم وجود القَدَر، أو يَدٍ هادِية خَفِيَّة أو قُدرات ذهنية تستطيع التأثيرَ على ما ينتج عن رمي النَّرد على سبيلِ المثال. يُحتمل وجود الغِشّ، وخِفّة اليَدِ، وعلى نحوٍ أكثر تحديدًا، يُحتملُ وجودُ ثغَرات في الذاكِرة أو خَطأ في الرواية. أماَّ الأحداث الطبيعية فلا يمكن *واقعيًا* أن تتأثّر بالقَدَر أو العناية السماوية، ولا بالظواهِر الوهمية التي يدعوها بعض الناس 'التأثير عَن بُعْد'.

هل سبقَ لكِ أن سمعتِ عن أحدٍ جنَى ثروةً من لعبة الرّوليت لأنه يستطيع أو لأنها تستطيع بقوّة التركيزِ السيطرةَ على الكُرة أو التنبؤَ بدقّةٍ أين ستحطّ في الدولاب؟ حينئذٍ، ستكونَ ثوانٍ معدودات من الاستبصار كافية لتجعلكِ مليونيرة. لكن لا أحدَ لديه مثل هذه المَلَكَات. لا أحد! ولذلك لا ترَيْن إشعارات خارجَ أندية القمار تنصُّ على أنها لا تسمح للوُسَطاء

الرُّوحانيين وقارئي الأفكار بالدّخولِ. هذه القوانين المُحَظّرة غير ضرورية.

هناك بُعْدٌ آخر علينا أن نأخذَه بعين الاعتبار أيضًا، سواء بالنسبة إلى ألعاب الحَظّ أو إلى حياتنا على نحوٍ أكثر تعميمًا. وذلك أن ضربات الحَظّ الأكثر إدهاشًا للعالَم تلقَى من الناسِ مَيْلاً فِطريًا إلى إبقائها محفورة في الذاكرة، وإلى الحِرْص على حفظِها في الحضارة التي تعاصِرها. وليس هناك ما هو أسهلَ من أن يُسيء مُراقِبٌ غير متمرِّس فَهْم مجموعةٍ بحالِها من الحكايات المتعلّقة بأحداث استثنائية، ويعزوها إلى 'قُوى' تُحْدِق بنا من كلّ جانب، وتؤثّر في حياتنا.

استيعابُ مَنْحَى هذا النَّهج أمرٌ حاسِمٌ في نظري. إذ حتى انتِقاء الفائزين باليانصيب الذي نتذكّره ونتناقله ما هو إلا استعادة لنظرية "داروين" عن الانتقاء الطبيعي. الاختلاف الوحيد بينهما هو أننا في حالتنا، نحن نتكلّم على انتقاء مُصطَنَع. ولِسوء الحَظّ، من المحتملِ أن يؤدي هذا إلى خَلْقِ مفاهيم مُصطَنعة بمنتهى السهولة.

وقد نبدأ بوَعي أو بلا وَعي في إقامة ترابُط بين ظروفٍ لا رابط بينها. هذا، وَفْقَ ما أعتقدُ خاصّية إنسانية نموذجية. فنحن على خِلاف الحيوانات، نَنشُدُ غالبًا الأسبابَ الضِّمنية، كالقِسمَة والنَّصيب على سبيل المثال، أو العِناية السماوية، أو أي جوهرٍ آخر مُسيطِر، حتى في حالة عدَم وجود أي من تلك الأشياء.

من هذا المُنطَلق، أرى أن اجتماعَنا هناك في ذلك اليوم ما هو إلا وَليد صُدفةٍ خالِصة. أُقِرّ طبعًا أن فُرَصَ حدوثه كانت ضئيلةً جدًا – فلا أنا ولا أنتِ ذهبنا إلى هناك منذُ أيامنا معًا – إنما، حتى مع إقراري بضآلة الفُرص لا يَسعني القولُ إن هذا يشيرُ إلى أي شيء آخر أكثر من حَظّ هائل.

لو تيسّرَ لنا أنا وأنتِ أن نجمعَ في مُجلّدٍ ضخم واحدٍ السلسلةَ الكاملة لنماذجِ التاريخ المتعلّقة بأكثَر الصُدف فرادَةً – كبطاقات اليانصيب الرابحة

كلّها مثلاً - سنضطرُ إلى إفساحِ مكانٍ لعدّة تريليونات من المُجلّدات الأخرى في حالِ أردنا أن نشملَ البطاقات الخاسرة أيضًا. عِلمًا بأن الأشجارَ التي لدينا هنا لا تكفي لصنع أوراق هذه المجلّدات. ثم إن كوكبَنا ليس فيه متّسعٌ يكفي لما سيلزمنا من أشجار وكتب.

وعلى سبيلِ التّنويع في الطَّرحِ فقط، سأُركّزُ على بطاقةٍ واحدة خاسِرة وأسأل، أسبَقَ لكِ أن قرأتِ في يومٍ مُقابلةً صحفية مُسهِبة أُجرِيَت مع أي شخصٍ لم يربح في اليانصيب؟

لم تتغيّر كثيرًا يا ستاين، وهذا جيدٌ أيضًا. عِنادكَ فيه شيء طفولي ومشاكس. لكن، لعلكَ في النهايةِ أعمى. لعلكَ ضيّقَ الأفقِ وقصيرَ النظر في آن.

أَتتذكَّر لوحةَ "رينيه ماغرِت" التي تُصوِّر كُتلةً صخرية هائلة سابِحةً في الهواء فوق الماء - أظنّ أن هناك قلعة صغيرة تتوّج قمّتها - لا إخَالكَ قد نسيتَ تلك اللوحة.

اليوم، لو وقعَت عيناكَ على شيء مماثِل، ستحاولُ بالتأكيد أن تجدَ له تفسيرًا. قد تقول إنها خُدعة. قد تقول إن الصخرةَ مُجوّفة ومملوءة بغاز الهليوم، أو إنها مدعومة بشبكةٍ إبداعية من البَكرات والأسلاك المخفيّة.

أنا مخلوقةٌ أكثر بساطةً. وعلى الأرجح سأكتفي بفتح ذراعيّ أمام تلك الصخرة مُهلّلةً بيا 'سبحان الله' أو 'آمين'.

في رسالتكَ الأولى كتبتَ، 'نقول أحيانًا، لن أصدّقَ حتى أرى. إلا أنني لستُ واثقًا من أنه لا مفرَّ من التصديق عندئذٍ...'

لا أُخفي عليكَ أن هذه الإفادة تزعجني قليلاً. فأنا أرى أن عدمَ ثقة المرء بالدليل الذي تُمليه عليه حواسُّه يتنافَى إلى حدٍّ ما مع قانون الملاحظة والاختبار. بل هذا يبدو لي في الحقيقة أقرب إلى عقلية العصور الوسطى...

ففي الزّمانِ الماضي، عندما سبَرَت الحواسُّ أغوار شيءٍ لم يتوافَق مع "أرسطو"، اعتُبِرَت الحواسُّ هي المُخطئة. وعندما تعارضَ رَصدُ مَدارات الكواكب مع فكرة مركزية الأرض، اخترعَ الناسُ بعض السَّفسَطات التي دَعوها أفلاكَ التدوير ليبرّروا ما رأته العينُ. وكذلك زاولَ رجالُ الكنيسة ومحاكمُ التفتيش الرقابةَ الذاتية على أنفسهم برفضِهم مُشاطرةَ "غاليليو" مِنظاره. وأنتَ طبعًا تعرف كلّ هذا.

أتراكَ حاولتَ أن تأخذ بعين الاعتبار حقيقة أننا معًا *شَهِدنا* شيئًا مثل كُتلةٍ صخرية عظيمة تطفو فوق الطحالب والأعشاب البحرية. شَهِدنا معجزةً. معجزة تتجاوز نِطاق هذا العالم! واسمح لي أن أضيفَ أنني أنا وأنتَ رأينا الشيء عَينه، وكنّا على اتفاق كاملٍ حول ما رأينا.

أكُنّا يا سولرن؟

نعم بلا أدنى شكّ. إنما، بالرجوعِ إلى قضيةِ التِئام شَملِنا هناك، ألا ترى يا ستاين أن في وِسعِنا أن نفسّرَها بمعزلٍ عن أي خيوطٍ قَدَريةٍ؟

ماذا تَقصدين؟

ربّما هذه 'الصُّدفة' لا تَعدو أكثر من كَونها مجرّد طَفرة تَوارُد خواطِر. بيد أنني لا أستبعِد ألا ترى في هذا فرقًا كبيرًا إذا كنتَ قد اتّخذتَ قرارًا مُسبقًا بأنكَ لا 'تؤمِن' بانتقال الأفكار أيضًا.

أنتَ تؤمِن بالجاذبية، فهل لكَ أن توضِحَ ماهيتها؟

لعله يتوجّب عليكَ أن تمنحَني فرصةً، وأن تلقي على الأقلّ ولو نظرةً خاطفةً عبر مِنظاري الغاليليوي؟

لا يُمكنني أن أوضِح ماهيةَ الجاذبية يا سولرن. أعرف أنها موجودة فَحَسْب. ونعم بالتأكيد، سأنظر من خلال منظاركِ 'الغاليليوي'. ولو أن لديكِ دَستَةً منها، سأنظر فيها كلّها. هيّا، ناوليني أوّلها.

حسناً إليكَ ما لدي. بغَضِّ النظر عن كلّ شيء، كانت الرحلةُ التي قمتُ بها أنا ونيلز بيتر عَفويةً جدًا، ولا جِدال في أنني أنا التي اقترحتُ قضاء يومٍ في "فيار'لاند" لنزور بلدةَ الكتب ومتحفَ الثلج. كنّا في الواقع في طريق عودتنا من شرق البلاد إلى "بيرغن"، عندما ارتأيتُ أنه يجدر بنا بعد كلّ تلك السنوات أن نُعَرّج على تلك المنطقة، مع أن هذا سيسبّب لي الألم. بزَغت الفكرةُ في رأسي كنَفحَة إلهامٍ مفاجئ. هي حقًا جاءت وليدةَ اللحظةِ.

كانت آفاقُ مخططاتكِ أكثر اتساعًا، وفي هذه الحالة أعتقدُ أنكَ كنتَ أنتَ المُرسِل وأنا المُتلقّية. ليس هناك ما يستدعي الاستغراب في أن تنبعثَ منكَ فكرةٌ مَفادها أنكَ، ولأولِ مرّة منذ تلك الأيام التي قضيناها في ذلك الفندق التَّليد، ستعودُ إليه ثانية. النقطةُ الجوهريةُ هُنا تتلخّصُ في أن المرءَ لا يعرف مطلقًا متى يكون مُرسِلاً ومتى يكون مُستقبِلاً. فأنتَ لا تشعر بأي شيء في رأسكَ حينما تفكّر. وحتى لو فكّرتَ في شيء محزن جدًا أو عنيف أو مثير، لَمَا سمعتَ في داخله وَقْع جَلَبَة أو صوت تحطُّم أو صرير. وذلك لأن الأفكارَ كما هو معروف لا علاقةَ لها بالجسم أو بالعمليات المُحَسّة.

بالنسبة لي، إنّ أبسطَ تفسيرٍ لِتزامُن ظُهورنا في البقعة التي كانت الأحلَى والأمَرّ في حياتنا معًا هو توارُد الخواطِر. أما تعليلكَ أو نَفيكَ فأكثر تعقيدًا،

وهو في رأيي ليس إلا رَجْع صدى إحصائيات مُمِلّة.

إذا نظرنا يا ستاين إلى اجتماعِنا على الشرفة القديمة من خلال مَعايير قانون الاحتمالات المَحضة، سنرى أنه لا يكاد يختلف في شيءٍ عن تَخيُّلِ أنكَ تقفُ عند طرفِ الخليج، وأنا أواجهكَ عند طرفه الآخر، ثم يُطلق كلّ منّا رصاصةَ بندقية، فتصطدم الرصاصتان معًا في وسطه، وتغرقان إلى قاعِه كأنهما جسم واحد. قد يُعتَبرُ هذا الحدث خارقًا للطبيعة، ويجب أن يُدعَى دِقّةً مُعجِزة في جميع الأحوال. إلا أن الأسهلَ من كلّ ذلك التفكير في أن روحين جمَعتهما الألفةُ مرّة قادرتان، حتى مع تباعُدِهما، على التواصل، لتبلّغ إحداهما الأخرى خبرًا تعتبرانه وِجْدانيًا جدًا. بعثتَ لي إشارة تُعلِمني أنكَ عائدٌ إلى هناك، وتلقّيتُ إشارتكَ. وهكذا انتهيتُ إلى المكان نفسه!

إنه توارُد الخواطِر ما أشيرُ إليه. وهذه الظاهرة المُوثّقة جيدًا التي أطرحها عليك كتفسير معقول لما تصِفه 'حَظًّا استثنائيًا'، كانت في الواقع موضوعَ بَحث تجريبي قام به أشخاصٌ عدّة في الجامعات المختلفة في أنحاء العالم كافّة؛ مثل فريق الزوجين "راينز" اللذين كانا من أوائل الروّاد في هذا المجال في جامعة "الدوق" شمال "كارولينا" منذ ١٩٣٠. وإذا شئتَ، أستطيع بلا عناء تزويدكَ بأسماء بعض المَراجع والمصادِر لأن لدي قائمة مُتكامِلة منها.

أليس صحيحًا أيضًا يا ستاين أن مِيكانيكا الكمّ (الميكانيك الكمُومي) بيّنَت لنا أن كلّ شيء في الكون مُتداخِل، بما في ذلك أدقّ الجُسيمات؟

في الحقيقة، قرأتُ منذ عهدٍ قريب القليلَ عن مِيكانيكا الكمّ بمساعدة بعض الزملاء. ففي السنة الماضية أقامت مدرستي ندوات مسائية متنوّعة الاختصاصات. والنادي الذي رعَاها يُدعى 'الحقيقة في الخمر'، ولعلّ هذا الشعار اللاتيني يوحي لكَ بشيء عن خَلفيّته. إلا أنني بعد أن قضيتُ بعض الأمسيات مع الفيزيائيين وعُلماء الطبيعة، لم أشعر بأي حال بأن الفيزياء الحديثة جعلَت العالَم أقلّ غموضًا ممّا كان عليه في أيام أفلاطون. ولا أمانع

أن تصوّبني يا ستاين إذا رأيتَ أنني مُخطئة.

تبيّنُ الفيزياء الحديثة أنه إذا تشارك جُسيمان؛ ولنَفرِض أنهما فوتونان أو وَحْدتان من وحدات الكمّ الضوْئي، إذا تشاركا في أصلٍ واحدٍ أو نقطة بداية واحدة ثم انشقّا وانطلَقا في طريقين متباعدين بسرعة فائقة، سيبقى كلّ منهما، بالقَدْر نفسه، جزءًا من الكُلّ عينه. وحتى لو أُرسِلا إلى الفضاء باتجاهين متعاكسين، والسنوات الضوئية تفصلهما، يبقيان مترابطين: كلّ منهما لديه معلومات عن خصائص الأخر. واضحٌ أن لا علاقة لهذا بتبادل المعلومات، بل *بالتواقُف*، أي تَوقّف شيء على شيء، أو ما يُسمّيه العلماء اللامَوْضِعية. وهذا غريب – ولعلّه في إبهامه يُماثل إبهام الجاذبية – وقد دحَضَ "آينشتاين" هذه الظاهِرة لأنه اعتبرَها مُعاديةً للمَنطق، إلا أنها بعده أُثبِتَت عن طريق التجربة.

نحن الآن لا نتحدّث عن توارُد الخواطِر، بل عن الفيزياء البُعَادية أي التيلي فيزيكس، على الرغم من إيماني بأن الاتصال الروحي عبر مسافات كبيرة هو أكثر صلِة بالبشر من ميكانيكا الكمّ – وذلك لأننا الأرواح الموجودة هنا. سرِّح نظركَ في النجوم والمَجرّات. تأمّل المُذنّبات والكَوكبات العابِرة واضحك ضحكةً غامِرة يا ستاين. لعلّها أجرامٌ سماوية ضخمة مدهشة، لكن نحن وحدنا الأرواح الحيّة في هذا الكون. ما المعرفة التي تتمتع بها المُذنّبات والكَوكبات؟ ما القُدرة التي تمتلكها لتدركَ أي شيء؟ وأي وَعي ذاتي لديها؟

لو كنتُ مِمّن يؤمِنون بالخرافات لقلتُ إن الفوتونات تمتلك وَعيًا، وإنها تتواصل عن بُعْدٍ بإرسال الأفكار إحداها للأخرى. حسنًا، لا أعتقد هذا. ما أعتقده هو أننا نحن البشر ننعَمُ بمكانة فريدة. إننا الأرواح التي تحتَلّ مسرحَ الكون هذا!

بينما تقرأ كلماتي يا ستاين تتدفَقُ إلى دماغكَ بلايين النّيوترينات أو ما يُسمّى الجُزَيئات المُحايدة! هي تأتي من الشمس، وتأتي من نجوم أخرى في

دَربِ التَّبانة، وتأتي من مَجَرّات أخرى في الكون. وهي أيضًا بطريقتها الخاصة تعبير عن لا مَوْضعية الكون.

ولدينا أيضًا إشكالية أخرى، وهي أن الجُزيئات في ميكانيكا الكَمّ قد تأخذ أحيانًا شكلاً مَوْجيًا أي تكون على هيئة مَوْجة، وأحيانًا تأخذ شكل جُسَيمات. وقد أظهرَت التجارب أن الإلكترون، والذي هو جُزَيء بالغ الصِّغر من هَيُولَى أو 'شيء' قادرٌ على المرور عبر فتحتين أو حفرتين مختلفتين في وقت واحد. وهذا مُدهش، وهو يشبه تَخيُّلَ كُرة تنِس واحدة تمرّ في الوقت نفسه عبر فتحتين مختلفتين في السياج المحيط بباحة الملعب.

أنا لا أطلبُ منكَ أن توضحَ أو تدخلَ في تفاصيل إمكانية أن يكون شيء ما مَوْجة وجُسَيمًا في وقتٍ واحد، أو مرّةً هذا ومرّة ذاك. لا أطلبُ منكَ أكثر من الإقرار بالكَوْن كما هو بالفعل. إذا كانت قوانين الفيزياء غامضة – أعني في أعيننا – فلتَبقَ كذلك. من الجائز أن نشعرَ بالأسف لأننا لا نستطيع تعليل كلّ شيء تحت الشمس – وفي وِسْع الشعراء أن يحوّلوا هذا الأسف إلى ممارسةٍ يومية حكيمة – وأعني بذلك أن يهزّوا رؤوسهم هزّةَ رِثاءٍ تأسّيًا على ضآلة ما نفهمه من هذا الكون الغارق في الغموض الذي نجد أنفسنا فيه – أما نحن، فما علينا في الوقت الراهن إلا القبول بذلك.

أن تمتلكَ القُدرةَ على بعثِ فكرةٍ لي، وأن أكون على وَعي كافٍ لالتقاطها قد لا يتيسّر لنا فهمه بالرجوع إلى ما لدينا حاليًا من تفسيرات رياضية أو فيزيائية. ومن ناحية أخرى، لعلّ التَّسليم بصحتّه ليس أصعب من التسليم بصحّة فيزياء الكمّ السائدة في أيامنا؟

ما رأيكَ؟

مرّةً، قال عالمُ الرياضيات والفيزياء الفلكية "جيمس جينز" إن الكَونَ يَنحُو إلى أن يبدو أقربَ إلى فكرةٍ عظيمةٍ منه إلى ماكينة عظيمة.

أَمْهليني قليلاً يا سولرن. فقد تسلّمتُ للتوّ آخرَ تقريرٍ عن المناخ، وهو أكثر

إقلاقًا ممّا انتهَت إليه مخاوِفنا، وتلقّيتُ اتصالات هاتفية من بعض الصحفيين المتحمّسين. هم حتمًا يريدون الحصول على تعليقٍ قبل موعدهم الأخير لإنجاز العمل. ثمّة قَدْر لا بأسَ به من الهستيريا المُحَرِّضة إعلاميًا لِطَرح مثل هذه الأسئلة في أيامنا. أنا الآن مضطرٌّ إلى التوقّف عن متابعة حوارنا لبعض الوقت، غير أن هذا لن يستغرق فترة العَصر كلّها. فإلى أن يحين الأوان اسمحي لي أن أقولَ لكَ إنني أحترمُ قناعتكِ، وأكثر من ذلك: مهما اختلفَت المبادئ التي تُفرِّقنا اليوم، أُقدِّركِ كثيرًا. ولذلك أرى أنه سيتعيّنُ عليكِ أن تعذريني لأنني لا أُؤمِن بما يُدعَى الظواهِر اللاحِسّية.

لا عليكَ. أنتَ شخصٌ لا يُستَهان به يا فتى. أما الآن، وبما أني سبرتُ أغواركَ عن كثبٍ في ما مضى، فسأكتب بضع كلمات عن حادِثة مَرأة العِنَبية. تلك الحادِثةُ التي بكيتَ بعد أن واجهناها يا ستاين، بل نَشَجتَ كالأطفال، وجعلتني أضطر إلى هَدهَدتكَ.

وماذا جرى بعد أكثر من ثلاثين سنة عندما وقفتُ أنا وأنتَ في تلك البقعة ثانيةً؟ أشعرُ ونحن هناك بشيء يتنازَعكَ! تمامًا مثلما شعرتُ بأنني أستطيع رؤيتكَ عبر ذلك الجدار والباب ليلة قبعتَ تدخنٍ في غرفة النوم. لذا، عليكَ الساعةَ أن تعيرني انتباهك.

كتبتَ تقول إنكَ لا تؤمِن بأي قُوى خَفيّة تؤثّر على حياتنا. إلا أنكَ ارتعشتَ مثل ورقة حَوْر عندما وقفنا أمام أشجار البتولا تلك مرّة أخرى. والجسدُ لا يكذب يا ستاين.

لمّا ازددنا دُنُوًا من ذلك الموقِع قبضتَ على يدي فجأة. نعم، غالبًا ما مشينا يدًا بيدٍ قبل زمن بعيد، أما في الحاضر فبدا لي أنه ليس من المألوف أن تُمسِكَ يدي، حتى مع تيقّني من أن اقترابنا من وِجهتنا هو ما دفعكَ إلى هذا التصرّف لأنكَ احتجتَ إلى الدَّعم. احتجتَ إليه لأنكَ خائف! كنتَ أبعدَ ما يمكن عن الرَّجُلِ الجَسورِ ونحن هناك عند مُنحدر البتولا. أفزعكَ شيءٌ من وراء هذا العالَم.

أنتَ صاحبُ يَدٍ قويّة يا ستاين، ومع ذلك ارتعشَت يدُكَ!

أما أنا فكنتُ أهدأ منكَ في تلك الأثناء، أكثر رَباطة جأشٍ، مع أنني تأثّرتُ مثلكَ بقوّة اللحظة. ولعلّ السبب يعود إلى أنني قد توصّلتُ إلى قناعةٍ مُعيّنةٍ بخصوص ما بعدَ الموت. ما فَوق الطبيعي أصبح طبيعيًا بالنسبة لي الآن. ذهبتُ مُستعدّةً لإمكانية تَجَسّدِها مرّة أخرى. أقول تجَسّدها مع اقتناعي بأن مصطلح التجَسّد مُضلِّل تمامًا، لأنها لم تكن من طبيعة مادّية. وربما وَجدنا أنه من المُتعذّر علينا التقاط صورة لها لو حاولنا. فهي في الواقع كانت ما نسمّيه *ظُهور رُوح*. وكِلا التاريخ والباراسَيكولوجيا مفعمٌ بتقاريرَ عن مثل هذه الظواهِر؛ ومفعمٌ أيضًا بقصص عن شخصٍ ما ظَهَر لروحِ شخص آخر، حتى مع وجود مئات الأميال التي تفصل بينهما في العالَم المادّي. وكذلك يغصّ الأدبُ بروايات عن أولئك الذين رأوا أو تسلّموا رسائل من أناسٍ – لم يموتوا مؤخّرًا، إنما *بُعِثوا ثانية*. والسيّد المسيحُ هو أفضلُ مثالٍ معروف طبعًا. بَيد أننا نعايش حضارةً مُوغِلةً في المادّية ولا صِلة لها تقريبًا بما هو روحي – طبعًا من غير أن نأتي على ذِكر الحياة الأُخْرَوية. تأمّل في كتابات "شكسبير" لِتدركَ ما أعني، اِقرأ الملاحم "الأيسلَندية"، ألقِ نظرةً أخرى على الكتب السماوية و"هوميروس"، أو اِستمِع إلى ما لدى الحضارات الأخرى لتقولَه عن كهنتها وأسلافِها.

كما ترى يا ستاين، أنا أعتقدُ أن ظهورَها لنا آنذاك لم يهدف لشيء سوى *التّسرية* عنّا. كان في تلك المرأةِ التي تدعوها 'العَرْض المسرحي' شيء ما استحوَذَ على تفكيري منذ ذلك الحين لمرّات تفوق العَدّ والحَصر. لم تَرمُقنا بعين الاتهام ولا البُغض. بل عاينتنا بخِفّة وابتسمَت. فهي ما عادت هنا، بل رحلَت إلى الطرف الآخر حيث لا توجد كراهية. إذ لا ريب في أنه حيث لا توجد مادّة، لا توجد كراهية أيضًا.

كانت على أي حال تجربةً مُربكةً جدًا لِكلينا – نعم أربَكتني أنا أيضًا. ونعم

أُصِبنا بالذُّعر، غير أننا كنّا طَوال الأسبوع السابق على ظهورها نعيش في حالة ذعر. ولو قُدّر لها أن تظهرَ ثانية لاستقبلتُها بذراعين مفتوحتَين.

في هذه المرّة لم تظهر...

ليس هناك موتٌ يا ستاين، وليس هناك أموات.

٢

ها قَد عُدتُ إليكِ. ما زلتِ أمام كومبيوترِك؟

أنا أذرعُ الأرضَ من حوله يا ستاين. ماذا جاء في تقريرِ المناخِ الجديد؟

التقريرُ مُقلِقٌ إلى حدٍّ ما. فهو يشير إلى أن النَّشرات المتعلّقة بتغيّر المناخ الواردة من الفريق الحكومي الدولي التَّابع للأمم المتّحدة كانت وما زالت إلى الآن مُتحفِّظة جدًا. ويبيّن هذا التقريرُ أنهم لا يُعوِّلون كثيرًا على ما يُدعى تِقنيات التّغذية الارتجاعية أو ردود الفعل. بالمُختَصر المفيد، يعني هذا أن ارتفاع الحرارة الآن مؤشّرٌ على أنها في المستقبل ستزداد ارتفاعًا. وذلك لأنه عندما يذوب الثلج والجليد في القُطب الشمالي، يَقلُّ انعكاس أشعَّة الشمس بطبيعة الحال، والأرض ككلّ تزداد حرارة. وهذا يؤدي تِباعًا إلى تقلُّص مناطِق الجَمْد الدائم، وإلى إطلاق المزيد من الغازات الدَّفيئة الناجمة عن البيوت الزجاجية والمُسبِّبة لظاهرة الاحتباس الحراري، كغاز المِيثان على سبيل المثال. يوجد من هذا القبيل تِقنيات ذاتية التّعزيز متعدّدة. ويُحتَمل أن يكون اقترابنا من نقطة الانحراف المُهلِكة وشيكًا. بعدها لن نستطيع الحَؤولَ دون كارثة عالمية شاملة. لم يمْض وقت طويل منذ أن كان مُعظمُنا يعتقد أن اختفاء جليد البحار من القُطب الشمالي في أشهُر الصيف يحتاج إلى ما يُقارب نصف قَرن. الآن، نرى أن تسارُعَ هذه العملية يفوق توقُّعاتنا بدرجة كبيرة. ونحن هنا لا نتكلّم ربما إلا على عَقدَيْن من الزمان. اختفاءُ الثلج في الشّمال يُسهم أيضًا في تعجيل ذَوبان أنهار الجليد في آسيا وإفريقية

وأميركا الجنوبية، ويؤدي هذا بالتالي إلى تقليل الاحتياطي من الماء الحَي والمَجاري المائية لجزء من السّنة. شيء من الواضح أنه يؤثّر سلبًا على المحاصيل والغِلال، وعلى توافر المياه الصالحة للشرب لملايين الناس. والبشر ليسوا وحدهم المُتضرِّرين من هذا، فالتقرير يشير إلى أن التهديد يَطالُ أيضًا خمسين بالمئة تقريبًا من نبات الأرض ومن أجناسٍ مختلفةٍ من الحيوانات.

فماذا نحن فاعلون لكَوْكبنا؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي طرحه. إننا لا نملكُ غيره، وعلينا أن نحافظَ عليه لنشاركَ به الناس الذين سيخلُفوننا.

لكن، ماذا عن الحوار الجاري بيننا؟ هل تريدين مني أن أستمرّ فيه؟

نعَم، اِفْعل يا ستاين. سأقصدُ غرفة الجلوس لأرتِّبَ بعض الصُّحف والنَّشرات الدورية، وسأهرعُ إلى هنا حالما أسمَع طنين كومبيوتري.

ما زالت لوحة "ماغرِت" التي أشرتِ إليها في رسالتكِ حيّةً في ذاكرتي طبعًا. كانت المُلصَق اللافِت للأنظار الذي علّقناه في غرفة نومنا، وقد وجدتُ نسخةً عن اللوحة الآن على شبكة الإنترنت. إنها تُدعَى 'قلعة البيرينيه'، وتصورٌ عالَمًا يُحلّقُ حُرًّا في الفراغ. أو على الأقلّ هذا هو التأويل الذي اخترناه لها أنا وأنتِ. كنّا لا أدْريين أو أغنوستيين في توجّهنا الفلسفي. لم نقبَل التسليم بالفكرة القديمةِ القائِلة إن لكلّ سبب مسبِّبًا، والتي تستدعي بالتالي الإقرارَ بحتميةِ وجودِ 'إلهٍ' خالقٍ للعالَم. طبعًا لَجأنا إلى التساؤل عمّا إذا كان هناك شيءٌ ما يقف وراء هذا الذي ندعوه الكَوْن. لكن لا أنا ولا أنتِ آمَنا بوجود أي مَظهَر من مظاهر تجلّي قُوى أسمَى. وفي المقابل، أشاعت فينا كَيْنونتنا وكَيْنونة العالَم الرهبةَ باستمرار.

واليوم يا سولرن، ما زال لدي الشعورُ نفسه تقريبًا تجاه الحياة. فكرةُ أن

العالَم موجود لن تتوقّفَ أبدًا عن إدهاشي. ومهما كان ذاك الذي حدثَ هناك عند أجمة البتولا، هو بالمقارنة، أقلّ غموضًا بكثير، بل بالأحرَى لا قيمة له في رأيي. لاعِبو السِّيرك والعُروض الترفيهية المتنوِّعة لن يفتِنوني أبدًا كما تَفتِنني الغابات الاستوائية و سُهوب روسيا، أو مَجَرّات السماء المستَعصية على العدِّ وكلّ بلايين السنوات الضوئية التي تفصِل بينها.

أنا الآن كما كنتِ أنتِ في الماضي تمامًا؛ مشغولٌ بالعالَم لُغزًا أكثر مما أنا مَشغول بالألغاز التي في العالَم. مشغولٌ بالطبيعي أكثر مما أنا مشغولٌ بما فوق الطبيعي. وأرى أن دماغَ الإنسان المُستغلِق على الفَهم أكثر إدهاشًا من كلّ تلك الحكايات المُفكَّكة عمّا يسمّونه 'ما فوق الحِسّي'.

ولا أرى أنه يمكننا ترجمة إشكاليات فيزياء الكمّ إلى فيزياء أكثر مما يمكننا أن ننظرَ إلى الظواهِر 'الرُّوحانية' باعتبارها عملية تحويل أفكار بين الفصائِل الثَّديية المُتطوِّرة. ولكن فكرة أن الثَّدييات المُتطوِّرة موجودة، وفكرة أنني واحدٌ منها، تسحَرني كثيرًا. في جميع الأحوال ستضطرين إلى البحث مُطوَّلاً قبل أن تعثري على شخص يفوقُ انبهارُه بكَيْنونته انبهاري. أعرف أنه ادّعاءٌ لا يُستهان به، مع ذلك أتجاسَر على الإدلاء به. وفي هذه الحالة لن تلسعَني سِياط اتهامكِ بقولكِ إنني قصير النظر.

إنما ماذا عنكِ أنتِ، ماذا غيّركِ؟ وإلى أين انتهى بكِ المطاف؟

تقولين إنكِ توصلّتِ إلى قناعة حتمية بوجود حياة الآخرة، وتَنفين وجود الموت. أفما زالت لديكِ تلك القُدرة المعهودة على الاحتفاء بكلّ ثانيةٍ من ثواني الحياة التي تعيشينها هنا والآن؟ أم أن نزوعَكِ إلى الحياة الأخرى أزاحها من الواجهة؟

أما زلتِ تشعرين 'بأسى لا مُتَناهٍ' من حقيقة أن الحياةَ 'قصيرةٌ جدًا، قصيرةٌ جدًا'؟ هذه الكلمات كانت مرَّةً كلماتكِ أنتِ. أما زالت عيناكِ تترقرَقان بالدموع من مجرّد التفكير في مصطلحات مثل 'الشَّيخوخة' و

'متوسّط العمر'؟ أما زلتِ تجهَشين بالبكاء عند مغيب الشَّمس؟ كنتِ أيضًا، بلا سابق إنذار، تقولين لي وقد اتسعَت عيناكِ وبانَ عليكِ القنوط، سنَفنَى في يومٍ ما يا ستاين! أو، في يوم ما لن يكون لنا وجود!

مِن المؤكَّد أنه ليس في وسْع جميع مَن في العشرين من العمر التأمُّل مَليًا في فكرة انتِفاء وجودهم، أو على الأقلّ ليس بذلك العُمق الذي اتّسَمْتِ به. مع ذلك، تعايَشنا مع هذه الحقيقة، وتقريبًا اتخذناها مَرجعًا يوميًا لنا. ألم تكن دافِعنا إلى الإقدامِ على أخطر الأعمال الجريئة باستمرار؟ بعد مرور فترةٍ علينا معًا ما عُدتُ في حاجة إلى التساؤل عن سبب بكائكِ. فقد بتُّ أعرف، وعَرفتِ أنني أعرف. وبدلاً من التساؤل صِرتُ أقترح عليكِ أن ننطلقَ إلى الغابات أو الجبال. عديدةٌ كانت نزهات المواساة تلك إلى الغابات والبراري. فقد أحببتِ الخروجَ إلى الهواء الطَّلْق يا سولرن. إلا أن حبّكِ لما كنتِ تسمّينه أحيانًا الطبيعة بدا بمعنى من المعاني علاقةً عاطفية حزينة. لأنكِ أدركتِ دائمًا أن ما تُقدِّرينه كثيرًا سيُخيِّبُ آمالكِ، وأنكِ في الختام ستجدين نفسكِ وحيدةً.

هكذا كان الحال. كنتِ تارةً تضحكين وتارة تبكين. وتحت طبقةٍ رقيقة من بهجة وجودية جَذِلَة كَمَنَ الحزنُ فيكِ دائمًا، وفيّ أيضًا. إلا أنني أعتقدُ أن حزنَكِ فاقَ حزني، وكذلك اندفاعكِ وانتِشاؤكِ.

بالنسبة إلى 'مَرأة العِنَبية'، أنا لن أحاولَ نفيَ وجودها، ولا أنكِرُ أنني تخاذلتُ مُنْهارًا في ذلك الوقت. كان الشَّبه مُذهلاً يا سولرن. ولا أدري كيف استطاعت تلكَ المرأةُ تعقّبنا؟

أما عندما ارتعشَت يَدي مؤخّرًا، فما ارتعشَ إنما هو الحياة نفسها لا الخوفُ كما تقولين. فقد مرّت ثلاثون سنة على افتراقنا، ثم حين مشينا معًا في ذلك المكان ثانيةً، تكشّفَت لي فجأةً بوضوحٍ جَمّ روعةُ أن يكون المرء في رَيْعان الشباب، وكذلك روعةُ أن نكون نحن بالذات في رَيْعان الشباب. قبل أن يحدث شيء هناك في الأعلى عند مُنحدَر البتولا، شيء ملعون،

زلزَلنا ومزّقَ ما بيننا من روابط.

لما أمسكتُ يدكِ، لا ريب في أنه كان لهذا التصرُّف علاقة بغابة البتولا التي لن نلبثَ أن نمرّ فيها ثانية. عاودَتني ذكرى الصَّدمة التي أصابتنا بها في تلك السنوات السابقة. أتذكَّرُ الهلَع الذي خلَع أفئِدتنا، ولا أنكِرُ أنني شعرتُ في هذه المرّة أيضًا بالقشعريرة أو ببادِرة خوف. إلا أن ذلك لم ينجُم عن الفَزع من رؤية أحد الأشباح ثانية. فالفزع قد ينشأ أيضًا بسبب خوف المرء من سيطرة جنونه عليه،أو من سيطرة جنون الآخرين عليه. الخوف مُعْدٍ، وكذلك الجنون مُعْدٍ.

تغيّرتِ يا سولرن بعد ما حدثَ هناك، ولم تعودي إلى طبيعتكِ السابقة. وفي الأسابيع التي تلَت، وجدُتني أحيانًا أشعر بالخوف من بقائي معكِ في الغرفة نفسها. كنتُ أحبِسُ أنفاسي وآملُ في أن تعودي إلى نفسكِ القديمة. وقبل أن يتحقّقَ ذلك أخذتِ بعض أشيائكِ وغادرتِ. أَمَضَّني الحنين إليكِ لسنوات بعد رحيلكِ. وكثيرًا ما فكّرتُ في أنكِ قد تقرعين الجرس في أي لحظة. وفي الليل يخطُر لي أنكِ قد تدخلين إلى الشقّة وأنا نائم، لأنكِ لم تُعيدي مفتاحها. فأستلقي في السرير المزدوج العريض وأتلهّف عليكِ. في الوقت نفسه غدوتُ فريسةَ قلَقٍ رهيب: ماذا لو عدتِ قبل أن تسترجعي سولرن القديمة التي أعرف! وبعدَ مرور بعض السنوات وضعتُ على الباب مِزْلاجًا.

تبقَى 'مَرأة العِنَبية' واحدة من أكثر الألغاز إبهامًا في حياتي. لكننا كنّا في مُقتَبل العمر آنذاك. ولا تنسي أن ذلك حدث قبل أكثر من ثلاثين سنة، والآن ما عدتُ أعرف ما علي أن أعتقدَه بشأنها.

نعم يا ستاين.

ماذا تَعنين؟

عادَ إلى الوقوفِ هناك يا ستاين! لا أستطيع التركيز. لا أستطيع العودةَ بذهني ثلاثين سنة إلى الوراء وهو واقفٌ على السُّلّم مواصلاً غَطَّ فُرشاته في علبة الطِّلاء الأخضر. هل من الضروري حقًا وضعُ طبقتين؟ أليس من المُفتَرض أن تتركَ بينهما يومًا على الأقلّ لتجفَّ الطبقةُ الأولى جيدًا؟

لا بأس، اِشغلي نفسَك بشيءٍ آخر. أنا باقٍ هنا لساعتين.

هَا قَد رجعتُ إليكَ. أعددتُ لنفسي كوبًا من عصير التُّفاح مع أربع مُكعَّبات من الثلج، وقد ذهَبَت الآن والحمدُ لله الساقان والسُّلّم. أتراه لن يعودَ ويضعَ طبقةً ثالثة؟

تقولُ كُنّا لا أدْرِيين! بل كُنّا دُمَى حيّةً! هل تَتذكُر؟ مَضينا طَوال الوقت في طريقنا مسحورين بالحياة. شعورٌ بالحياة خِلْنا أنه يخُصّنا وحدنا. كنّا لا مُنْتَمين: ابتَدَعنا لأنفسنا مَركزًا أماميًا سحريًا أهّلَنا لأن ننظرَ بعيْن الشكّ إلى كلّ شيء؛ كان ذلك كما لو أننا وضَعْنا أُسُسَ ديانتنا الخاصّة. ذاك ما قلناه، إننا أسّسنا ديانتنا الخاصّة.

لم نقِف عند حَدّ اكتِشافِ أحدنا للآخر، بل لفترةٍ ما أخذنا على عاتِقنا مهمّة القيام بمجموعة معيّنة من النشاطات التّبشيرية. هل تتذكّر جميع أيام السبت تلك، حين كنّا نهرع إلى البَلدة ومعنا حقيبة طافحة بقُصاصات ورقٍ تشبه أوراق الإعلانات، لنوزّعها على إخوتنا في الإنسانية. كنّا عادةً نقضي الأمسية السابقة ونحن نطبعُ على آلةٍ كاتبةٍ قديمة رسائل قصيرة، مِثلَ:

إشعار مهمّ لجميع سُكّان هذه المدينة: العالَم في صَيْرورةِ الآن! درَجنا على كتابة الرسالة نفسها عدّة آلاف من المرّات، ودرَجنا على تقطيعها بعناية وطيّها قبل أن نهرعَ إلى ركوب الترام قاصدين المسرح الوطني. وهناك، نتّخذُ موقعنا إما في حدائق تجَمُّع الطلاب "ستودينترلونْدن"، أو أمام الدَّرج المؤدي إلى محطّة الأنفاق، حيث نشرع في توزيع جواهِر أفكارنا الصغيرة على الناس، في محاولةٍ منّا لإيقاظ أقسامٍ من المدينة ممّا اعتبرناه خُمودها الرُّوحي. كنّا مِقْدَامين. قُوبِلنا أحيانًا بكثير من الابتسامات الوَدودة، وقُوبِلنا أيضًا بعدد لا يُستهان به من صيحات الاستياء. ثمّة أُناس يشعرون بالانزعاج عندما تذكِّرهم بأنهم على قَيْد الحياة.

أضِف إلى هذا أنه في بداية السبعينيات لم يكن صائِبًا من المَنظور السياسي السائدِ الانغماسُ في تأمّلات وجودية مضيّعة للوقت. فآنذاك رأى الكثير من اليساريين أن الفِكر الذي يَعتَبِر الكَوْن لُغزًا هو فِكرٌ مُعادٍ للثورة. فليس المهمّ أن نفهمَ العالم، بل أن نغيّرَه.

استلْهَمنا فِكرة الرسائل الصغيرة من أوراق الدُّعابات التي تُرْفَق بالبسكويت والحلوى. وإن لم تَخُنّي الذاكرة أعتقد أن فكرتَنا الأساسية تمَحوَرت حول إقامة مراسيم عيدٍ وَهْمي في حفلةٍ طُلابية. هل تَذكُر؟ حلمنا أيضًا بأن نُعِدَّ أنا وأنتَ مسيرةً دينية تخصّنا وحدنا في الثاني من أيَّار على سبيل المثال. بيد أن مشروعَنا لم يتعدَّ ما هو أكثر من كتابة بعض الشعارات، وهذه استوحيناها في الواقع من أشياء سابقة. ففي فترة الثورة الطُّلابية في باريس، تضمَّنت الكتابات على جدران جامعة "السوربون" كلمات مثل: *أطلقوا عِنان الخيال! والموت مُحبِطٌ!* وقد تخيّلنا إقامة مَوكِب بحالِه من هذه الشعارات. كنتَ مُبْدِعًا جدًا يا ستاين.

كثيرًا ما قُمنا بجَولات في المعارِض والحفلات الموسيقية – لا من أجل الفنّ أو الموسيقى بالتحديد، ولكن لنتأمّلَ جميع الدُّمى الحيّة. وأطلقنا على ذلك كلّه اسم المسرَح السِّحري – جاء هذا بعد أن قرأنا "ذِئب السّهوب" لــ "هيرمان

هيسه". وقد نجلس أحيانًا في مقهى وندرس بإمعان نماذِجَ معيّنة من تلك الدُّمى الحيّة. رأينا أن كلّ فردٍ من أولئك الناس يُمثّل كَونًا صغيرًا مُستقِلاً بنفسه. ألم ندعُهم بالأرواح أيضًا؟ أنا متأكّدة من أننا فعلنا. لم نكن نراقبُ دُمى آلية. بل هم دُمى حيّة. ذاك ما قُلناه دائمًا. أما زلتَ تتذكّر كيف كنّا نقبعُ في إحدى زوايا مقهى ما، ونَحُوكُ قصصًا مُعقّدةً عنهم؟ وقد نأخذ معنا إلى البيت بعض هذه 'الأرواح'، ونتوسّع في دراستها على مدى الأيام التالية. كنّا نعطيها ألقابًا، ونخترِع لها سِيَرًا ذاتية كاملة. وعلى ذلك النحو شيَّدْنا هيكلاً مُتكاملاً من المراجِع الخيالية. كان التبجيلُ المُطلق للإنسانية أحد العناصر المهمّة في ديانتنا.

ثمّ علّقنا مُلصَق "ماغرِت" على جدار غرفة النوم. أظنّ أننا اشتريناه من مركز "هينِه أونستاد" للفنون في "هوفيدْكودن".

وبمناسبة الحديث عن غُرف النوم، كان يمكن أن نذهبَ إلى السرير في منتصف النهار، ومعنا على الأغلب زجاجة 'شمبانيا' وكوبان عاديان نضعها كلّها على مِنضدة السرير الجانبية. ونقبَع هناك لساعات نتناوبُ القراءةَ جَهرًا. قرأنا لـــ "شتاين مهْرن" و "أولاف بُلّ" – استَبَحنا قراءة تلك الكتب، على الرغم من أن الشعراء المُمثّلين للاتجاه السائِد كانوا إلى حدّ ما من الممنوعات آنذاك. في الوقت نفسه قرأنا لـــ " جان إيريك فولد"، قرأنا كلّ ما كتبه بلا استثناء. من غير الحاجةِ طبعًا إلى ذِكر روايات أخرى مثل "الجريمة والعقاب" و "الجبل السِّحري". روايةٌ بأكملها قد تتحولّ إلى واحدٍ من مشاريع السرير والشمبانيا تلك. كان اسم الشمبانيا التي درجنا على شربِها "غُولدِن باوَر" أي الطاقة الذّهبية؛ رخيصة الثّمن وحُلوة المَذاق وقويّة المفعول أيضًا، ومن هنا جاء اسمها.

لم نرَ ما هو أروع من أننا أجساد من لَحم وعَظم. ولم نجد ما هو أجمل من أننا أُنثَى وذَكَر. واستمتعنا بهذا. إلا أن شيئًا ما في سعادتنا الحِسّية لم يكُفّ عن تذكيرنا بأننا من الفانِين. ولطالما قُلنا إن الخريف يبدأ في الربيع. كنّا لا نتجاوز منتصف العشرينيات من العمر، ومع ذلك كثيرًا ما أسرّ أحدنا

للآخر عن شعوره بالتقدُّم في السِّنّ.

كانت الحياة بالنسبة إلينا مُعجزة، ولم يَخْفَ علينا أنها شيء ينبغي الاحتفال به على الدَّوام. قد نحتفل بالخروج إلى الغابات المُحيطة بـــ "أوسلو" في نزهةٍ ليليةٍ عَفْوية على الأقدام، أو نقوم برحلة في السيارة بالعَفْوية نفسها. لنذهب إلى "سكاين"، تنبري قائلاً. وبعد خمس دقائق ترانا في السيارة منطلقين في طريقنا مع أنه لم يسبِق لأيٍ مِنّا الذهاب إلى هناك من قبل، ولا نملكُ أدنى فكرة عن المكان الذي سنَبيتُ فيه.

أتُراكَ تتذكرُ يوم انتهى بنا التَّرحال إلى حفل شاي الأخوات "لندغرن" في الهواء الطَّلْق في "السُّويد"؟ لم نكن قد نِلْنا أي قسطٍ من النوم بَعْد، وانبَرينا نضحك ونضحك فقط، ثم تهالكنا لاحِقًا على العشب وغفَونا. بقينا نائمين إلى أن أيقظتنا بقرةٌ في النهاية، ولو لم تأت لأيقَظَنا النملُ بطبيعة الحال بعد ثوانٍ قليلة. رُحنا نقفز كالمجانين نحاول كَنْسَه عنا، إلا أن النمل لم يزحف على ملابسنا فقط، بل بينها وتحتها أيضًا. يومها، استَبدَّ بكَ غضبٌ شديد مما دعوتَه النمل *السُّويدي*. واعتبرتَ ما حدثَ إهانةً شخصية.

كانت الرغبةُ الجامِحة في التزلّج على جليد "يوستدالسبرين" واحدة من المُجازفات الطائشة التي دعوتَها في رسالتِكَ أعمالاً جريئة. جرى ذلك في يومٍ من شهر أيَّار قبل أكثر من ثلاثين سنة. سنذهبُ إلى التزلّج على "يوستدالسبرين"! أعلنتَ في عصر أحدِ الأيام. ولأن بيننا ما يشبه الاتفاق المتبادَل على خضوع كلّ منّا لنزَوات الآخر من غير اعتراض، جاء إعلانُكَ بمثابة الأمر. لم نستغرِق سوى دقائق قليلة في حزم أغراضنا، ثم انطلقنا. رأينا أننا نستطيع قضاء الليلة في مكانٍ ما في الجبال أو في "ليرْدال"، أو حتى يمكن أن ننام في السيارة. كنّا مُتهورين وصَعبي المِراس. عندما وصلنا إلى الخليج كانت خطَّتنا تقتَضي أن نمضي مباشرةً إلى جبل الجليد وزلاّجاتنا على أكتافنا. وكنّا قد سمعنا عن كوخٍ حجري نستطيع المَبيتَ فيه إذا حال الوقتُ المُتأخِّر دون التزلّج. مع العِلم أنه لم يسبق لنا قطّ أن تدرَّبنا

على الجليد. من هذا المُنطلَق أقولُ إن ذاك التصرّف تضمّنَ قَدْرًا كبيرًا من الاستهتار. لم تتكلَّل رحلة التزلّج تلك بالنجاح. لَجَمَنا شيءٌ ما للمرّة الأولى – وأنت تعرف إلى أي شيء أشيرُ هنا – وبقينا أسبوعًا كاملاً في الفندق قبل أن نعودَ أدراجنا ونحن نَجرُّ أذيال الخيبة. لم يكن أجْرُ الفندق رخيصًا – لم يخصّــوا الطلاب بأي امتيازات. بيد أننا آنذاك شُغِلنا بما هو أكثر من قِلّة المال، ثم إننا كنّا نحمل دفتر شيكات.

بينما أكتبُ هذا يا ستاين، أوَدُّ التشديدَ على أن افتِتاني بالحياة ما زال هو نفسه. 'أما زالت لديكِ تلك القُدْرة المعهودة على الاحتفاء بكلّ ثانيةٍ من ثواني الحياة التي تعيشينها هنا والآن؟' تسأل، وجوابي هو نعم.

تغيّرَت أمورٌ كثيرة، لأن لدي شيئًا إضافيًا الآن. إنه بُعْدٌ جديد كلّ الجدّة في الواقع. ثم تسأل، 'أمَا زلتِ تشعرين بأسى لا مُتَناهٍ من حقيقة أن الحياة قصيرةٌ جدًا، قصيرةٌ جدًا؟ أمَا زالت عيناكِ تترقرقان بالدموع من مجرّد التفكير في مصطلحات مثل الشّيخوخة ومتوسّط العمر؟ وجوابي الآن هو لا صريحة. فاليوم ما عدتُ أبكي. ومع أخْذِ ما ينتظرني في المستقبل بعين الاعتبار بِتُّ أعيشُ في حالة من... السّكينة.

ما زلتُ أستَمِدّ مَسرّةً كبيرة من جسدي المادّي، إن لم أقُل إنها في عُمقها تكاد تُماثِل العُمق نفسه الذي اختبرتُه في تلك الأيام. لكنني في الحاضر أعتبرُ جسمي مُجرّد قَوقعة، وأراه بالتالي شيئًا خارجيًا وليس بذي أهميةٍ بالِغة. إنه ليس شيئًا سيُلازمني ويأسِرني لوقتٍ طويل. وأنا على قناعة تامّة من أن التي أدعوها *أنا* ستنجو من بعدِ موت جسدي. ما عدتُ أشعر بأن جسمي هو أنا. إنه لا يُمثّلني، إنه ليس 'أنا' أو 'لي' أكثر من أثوابي القديمة في الخزانة. تلك أيضًا لن آخذها معي، ولن آخذ الغسّالة، ولا السيارة، ولا بِطاقة اعتمادي.

سأسهِبُ في الحديث عن هذا بِطيبةِ خاطِر – بل بأكثر من طيبة خاطِر. في هذه الأيام لا أقرأ فقط عن علوم الباراسيكولوجيا، بل أيضًا أقرأ الكتابَ

المُقدّس كثيرًا. بالنسبة لي أحدهما لا يتعارَضُ مع الآخر. وقد يتناغَمُ اعترافي هذا مع رفضِكَ لِكليهما.

أما الآن فسأطرح السؤال عليكَ: ما مُعتَقداتكَ اليوم؟ أعرف جذورَ مُعتَقداتكَ السابقة، ولكن هل اقتحم حياتَكَ شيء آخر غيرها؟

أوَدُّ أيضًا أن أشكركَ على رسالتكَ الأخيرة. بدوتَ نوعًا ما أقلّ غرورًا مما بدوتَ عليه في رسائلكَ الأخرى. وقد شعرتُ بأن يديكَ امتدّتا نحوي قليلاً، لولا أنهما امتدّتا فارغتين يا ستاين. إنني أتحرّقُ شوقًا لأضعَ فيهما شيئًا بديعًا. في ذات يوم سيسُرّني أيّمَا سرور أن أعطيكَ برهانًا حيًا وساطِعًا على عدم وجود الموت. ما عليكَ سوى الانتظار. سأفعلُ هذا يومًا! وحتى ذلك الحين، أنا ممتنّة لكَ لأنكَ على الأقلّ تريد فتحَ هذه القناة بيننا بعد أن أُغلِقَت في وَجهنا منذ أكثر من ثلاثين سنة.

رَاعَني قولكَ إنكَ كنتَ خائفًا مني. لم تَبُح بهذا يومًا. وظننتُ حينها أنكَ انغلقتَ على نفسكَ، وأنني أسئِمُكَ بتصوّراتي الجديدة.

مع ذلك، لا ريب في أن كلاً منّا مَدينٌ للآخر في الاحتفاظ بإيمانه بما كُنّا عليه، وبما كان لدينا قبل أن يحدثَ ما تعرف، وقبل أن يتهيأ لكَ أنني جُنِنتُ. لم أُجنّ قطّ. إلا أن ما حدث كان مَهولاً جدًا. وأدّى بي إلى الارتداد من فلسفة حياةٍ مُعيّنة إلى أخرى. أخذ هذا التحول طابَعًا مأسَويًا خاصًّا، لأن الأبرشيةَ التي تخلّيتُ عنها لم تضمّ إلا تابِعيْن.

إلا أنكَ تتذكّرُ بقيّة القصة؟ وتتذكّرُ مغامراتنا! أنا شخصيًا أعتقدُ أن المرء يتذكّرُ ما يريد أن يتذكّرَه.

طبعًا أتذكّرُ يا سولرن، وغالبًا ما أعودُ بتفكيري إلى تلك السنوات الخمس التي قضيناها معًا ناظِرًا إليها على أنها نَواةُ حياتي الحقيقية.

عَزَمنا على المشي إلى "فروندْهايم"، ومشينا! قَرّرنا الإبحار في بحيرة "ميسا" وأبحَرنا. جلسنا في مقهى دارَة الفنون "كونسترنارنيس هوس"، وإذا بالرغبةِ في الذّهاب إلى "ستوكْهولم" على الدرّاجات تُداهِمنا، فقصَدنا البيتَ ونِمنا بضع ساعات. ثم ركبنا الدرّاجات إلى "ستوكْهولم".

كانت مَأثُرَتُنا على هضبة "هاردانييرفيدا" أكثر ما أقدَمنا عليه جنونًا. لمَعَت في رأسنا فكرة خَوْض تجربة الحياة التي اختبرها أُناسُ العَصر الحجري لبضعة أسابيع. ركبنا القطار إلى الجبال وأقَمنا مَأوانا عند سفحٍ في الجنوب الغربي يبعدُ كيلومترات قليلة عن منطقة "هاوجاست"، أقمناهُ في ما يُشبه الكهفَ تحت لوحٍ صخري ناتِئٍ. أخذنا معنا ملابس سميكة وأغطية. وتزوّدنا برزمتين كَبيرتين من الشطائر لنضمَنَ ما يَسُدُّ رَمَقَنا في الساعات القليلة الأَولى فيما نحن ننصبُ مخيَّمنا، ولنشعرَ بأمان أكثر، جلبنا معنا أيضًا مؤونةً من أنواع مختلفة من الكعكِ والبسكويت للحالات الطارئة. أما أشياؤنا الأخرى فلم تتعدّ قِدْرًا واحدة للطهي، وبكَرَة خيطان صَيد، ومُدْيةً وعُلبتَي ثِقاب. هذا كلّ شيء، أو تقريبًا كلّ شيء، لأنكِ – وهذا هو الغرضُ الوحيد الذي لم يكُن في زمانه الصحيح – أحضرتِ معكِ علبة حبوب مَنْع الحَمْل، وقد استخدمناها كتقويم إلى جانب استخدامها الأصلي، بما أننا لم نَمْلك وسيلةً أخرى لحساب الأيام. عِشنا الساعات الأربع والعشرين الأولى على مختَلف أنواع التّوت – توت الغُراب والتّوت الشّوكي وتوت العُلّيق – وتَحَصَّنّا بشاي العَرعَر الساخن. في اليوم التالي عثرنا على عِظام طيرٍ رأينا أننا نستطيع تحويلها إلى أدوات لصيد السَّمَك؛ حفرنا الأرض بحثًا عن الديدان، ومنذ ذلك الحين صرنا نصطاد سمَك السَّلمون ونشويه على لوح صخري. حلمنا باصطياد أرنب أو دجاجة بريّة. بيد أن الأرانب كانت سريعة جدًا، أما الطَّيْهُوج أو الدَّجاج البرّي فكان يقلِعُ مبتعدًا ما إن نَهُمّ بالوثوب عليه. مع مرور الوقت قَرِمْنا إلى اللحم أكثرَ فأكثر، وعندما وقَع نَظَرُنا على قطيعٍ من غِزلان الرِّنّة، نَحّيْنا بعض الصخور وحفرنا شَرَكًا

وارَيْناه بأغصان البتولا والعِيدان والطحالب. من ساعتها لم نلمح للغزلان أثرًا، وفي النهاية سقط حَمَلٌ في الحفرة. ذبحناه من غير أن يخالِجَنا مِثقال ذرّةٍ واحدة من الشفقة، وسلخناه واقتَتْناه لأيام. صمّمنا من عِظامه خُطّافات لصيد السمك وأدوات مطبخ، وكَشطتُ منها حِلية نَظَمْتُها بسُوَيقة نباتٍ متينة وعلّقتُها حول رقبتكِ. وحصلنا أيضًا على الصوف. تلك كانت نعمة عظيمة لأن الأيام بدأت تَميلُ إلى القِصَر، وفي مطلَع ذات صباح رأينا الأرض مَكسوّةً بالصقيع. حينها حَزمنا أمْتعتنا. فعَلنا ذلك بنَشْوة المنتصرين، إذ لم يكن قد تبقّى في علبة حبوب مَنْع الحَمْل إلا ما يكفي أربعة أيام، ما يعني أننا عشنا حياةَ ساكِني الكهوف سبعة عشر يومًا. عِلاوَة على أننا نجحنا في الاختفاء عن العيون، فنحن لم نلمح إنسانًا واحدًا في تلك الفترة كلّها. أثبتَنا لأنفسنا أننا قادِران على البقاء أحياء في ظروفٍ مثل ظروف أُناسِ العصر الحجري. إنما كان من الرائع حتمًا أن نعود إلى البيت لننعَم بالحَمَّام والسَّرير العريض وزجاجة من "الغُولدِن باوَر". وليوم ونصف يوم لم نغادر السرير إلا لحاجَةٍ ماسّة. كانت أوصالنا يَبِسَة، وعانَينا من إرهاق السفر كما لو أننا سافرنا عبر الزمن لآلاف السنوات.

إنَّ للعودةِ بالتفكير إلى ذلك الزّمن وَقْعًا مُحبَّبًا إلى النَّفْس يا ستاين، ولا أستبعدُ أن يكون لُبُّ *حياتي* قد طُوّق بتلك الأيام السبعة عشر التي انعزلنا فيها عن العالم وبقينا وحدنا في أعالي الجبال تحت صفحة السماء، أنا وأنتَ فقط. ولكن كيف تنظر إلى الزّمن الحاضِر؟ وبم *تؤمِن*؟

حسنًا، لعلّ سؤالي مُبْهمٌ نوعًا ما. فَلِنلعَب لعبةً صغيرة إذًا. لِنَقُل إنكَ في مكتبكَ الجامعي، مسترخٍ إلى الوراء في جلستكَ بأُبَّهة الأساتذة والمللُ يكاد يقتلكَ. وأنا تلميذةٌ أدقُّ بابكَ. تدعوني إلى الدخول - تغمركَ البهجة لحصولِكَ على زائرٍ - ثم أقولُ لكَ، ما تُعلّمنا يا أستاذ رائع جدًا، ولكن ما هي

المُعتَقدات التي تؤمِن بها *أنتَ* عندما يتعلّق الأمر بالأشياء التي لا تملكُ لها أجوبةً؟ طبعًا، تشعرُ بالإطراء من هذا السؤال المباشر والشّخصي جدًا الذي تطرحه عليكَ تلميذتكَ المُفضّلة، ولذا تبدأ في إلقاء محاضرةٍ قصيرة. هيا! انطلِق يا ستاين! إنها المحاضرة القصيرة التي أنتظر سماعَها. (حاوِل ألا تجعلها طويلة، فعلى ما يبدو ستكون أمسيتُنا أمسية شُواء اليوم أيضًا، وعلي أن أُعِدَّ السَّلَطة على الأقلّ).

تمزحينَ بلا شكّ! كيفَ لي أن أقاومَ مثل هذا الإغراء؟

لا بأس، ليس أمامكَ إلا أن تستسلمَ له.

في هذه الحالةِ أستطيعُ بكلّ سهولةٍ المتابعة من حيثُ توقّفتُ، لأنني أؤمِن بأننا ننحدِر من سُلالةٍ على شاكِلة سُلالة أُناسِ العَصر الحجري. لولا أنهم لم يتَعاطوا حبوب مَنْع الحَمْل. نحن على غِرارهم ننتمي إلى فصيلة *الإنسان الحديث*، وهو سَليل *الإنسان المُنتَصِب* المباشر، وهذا بدوره مُتَحَدّر من *الإنسان الماهِر*. ومنه نعود إلى *الأُستر الوبيثكس أفريكانوس* أي الإنسان الإفريقي.

إننا من المقَدّمَات أو الرَّئيسات يا سولرن، أتراكِ ما زلتِ تَذكُرين هذا؟ وإذا رجعنا إلى الوراء بضعة ملايين السنين، نجِد أننا نشتركُ في الأصول نفسها مع الشّمبانزي والغوريلا. أنتِ تعرفين كلّ ذلك. سبقَ أن خُضْنا فيه. كان العَصَبَ المُحرِّض الكامِن وراء شعورنا المُعمَّق بالحياة، وراء شعورنا بأننا جزء من الطبيعة. بعد ذلك أصبحنا من الثّدييات، على غِرار الأرانب البرّية وغِزلان الرنّة التي رأيناها في "هاردانييرفيدا"، وهذه الفئة من الفَقاريّات تطوّرت قبل ما يُقارب بضع مئة مليون سنة من صنف مُعيّن من

الزواحف شبه الثّديية، وهي التي تُدعى ثِيرابْسيدس أو الثّدييات البدائية.

لكن لماذا ننظُر إلى الوراء؟ إن هذا يشبه المُضِيِ عكسَ التيّارا أليسَ من الأفضل أن نضعَ أنفسنا في الطرف الآخر، ونأخذ دورًا من البداية مباشرة في الرِّحلة المُتَّسمة بخطورةٍ لا مُتَناهية؟ لا بأس، سأحاولُ توضيح ما أعني مُكتفيًا بخُلاصةٍ مُوجَزة.

وَفْقًا لآخر الحسابات، يبلغ عمر هذا الكَوْن الذي يكتَنفه غموض رهيب ١٣,٧ بلايين سنة تقريبًا. في ذلك الحين وقعَ ما يُسمّى *الانفجار العظيم*.

كيف؟ ولماذا؟ لا تسأليني! ولا تسألي أي شخص آخر، لأن أحدًا لا يعرف. أما ما نعرفه فهو أنه بعد ذلك الانفجار، وفي غُضونِ جُزء من ثانية تحرّرَ كَمٌّ هائل من الطّاقة وتجَمّعَ على هيئة بروتونات (جُسَيْمات تحت ذَرّية) و نيوترونات (جُسَيْمات أوّلية دون ذَرّية) إضافةً إلى الإلكترونات (جُسَيمات سالِبة مُكوِّنة للذرّة) وعناصر أخرى تسمى الليبتونات (صنف من أصناف الجُسَيمات). وبينما بَرَد الكَوْن، انبثَقت العناصرُ الخفيفة، وكذلك ظهرَت مع مرور الوقت النجومُ والكواكبُ والمَجرّات والعناقيدُ المَجَرّية العُظمى. وبِتْنَا الآن نعرف أن عُمرَ نظامنا الشمسي وعُمْرَ كَوكبنا ٤,٦ بلايين سنة، أي تقريبًا ثلث عُمْر الكَوْن. وهذا أكسبَنا بالتدريج قدْرًا من الفَهم العميق لتاريخ الأرض وتطوّرِها.

بدأ أوّلُ أشكال الحياة البدائية هنا قبل ثلاث أو أربع بلايين سنة. بغضِّ النظر عمّا إذا حصلَ التطوّر من الأرض إلى الأعلى - في الموقِع أعني - أو أن لَبِنات الحياة الأساسية (يمكن أن ندعوها المادّة ما قَبل الحيوية) جاءت من مَكان بعيد جدًا بسبب تعرُّضِ الأرض لضربة مُذنَّب أو كَوكب. ما هو مؤكّدٌ على أي حال، أنه في ذلك الوقت لم يكن ثمّة أوكسجين في غلاف كَوكبنا الجوّي، ما يعني أيضًا أنه في البداية لم يكن هناك طبقة أوزون واقِية حوله. والشرطان المُسبَقان المُهمّان لتحريض تشكُّل جُزَيئات الحياة يتمثّلان في غياب الأوكسجين وطبقة الأوزون. وهنا نأتي إلى مُفارَقة مثيرة للانتباه؛

وهي أن الظروف الضرورية لازدهار الحياة (مثل غِلاف جوّي غني بالأوكسجين وطبقة أوزون واقية) يجب ألا تكون حاضِرة حتى تبدأ الحياة. وهكذا يُفتَرَض أن الخلايا الحَيّة الأولى نشأت في البحر، ربما في أعماق سحيقة جدًا. أما الأوكسجين المُحَرَّر وطبقة الأوزون فهما نِتاج عملية البناء الضّوئي - وبالتالي نِتاج الحياة نفسها - وهما قِوامان أساسيان لوجود الكائنات الحَيّة هنا. لكن وجودهما يَحُولُ دون نشوء حياة جديدة أخرى. وهذا ما يجعلنا نُرجِّح بقوّة أن جميع أشكال الحياة على هذا الكَوكب هي متماثلةٌ بدِقةٍ في أعمارها.

لم تكن الشروط مناسبةً لظهور كائنات حيّة أعلَى مثل النباتات والحيوانات إلا بعد أن تطوّرَت الكائناتُ المُخَلَّقة ضوئيًا في الدَّهر الأسبق لتاريخ الأرض، أو في ما ندعوه حِقبَة ما قبل الكامبري (حِقبة الحياة الخَفيّة). في الحِقبة الكامبرية (منذ ٥٤٣ مليون سنة إلى ٥١٠ مليون سنة)، ظهرَت الرّخْويات ومَفْصِليّات الأرجُل الأولى، وفي الحِقبة الأوردوفيشية (منذ ٥١٠ مليون سنة إلى ٤٤٠ مليون سنة) ظهرَت الفَقَاريات الأولى؛ أي الهيكل العَظْمي الداخلي الذي أعطى الحياة إمكانيات جديدة كلّ الجِدّة. وكان الذين يُمثّلون فرعًا صغيرًا من هذا الخَطّ الحيواني هم مَنْ انطلقوا بعد نصف بليون سنة إلى الفضاء لدراسة بداياتنا الكَوْنية.

في أثناء العَصر السّيلوري (منذ ٤٤٠ مليون سنة إلى ٤٠٩ مليون سنة) ظهرَت النباتات الأرضية الأولى، وكذلك حيوانات اليابسة الأولى، وأسبقها إلى الظهور العقارِب. كانت من المَفْصِليّات، من رتبة العَنْكَبيّات، وهي أوّل من شقَّ طريقه إلى اليابسة. وعلى أعتاب الفترة الدّيفونية المتأخِّرة (منذ ٤٠٩ مليون سنة إلى ٣٥٤ مليون سنة) كانت البَرْمائيات تزحفُ إلى اليابسة، وعلى وجه التحديد ما يُعرف باسمِ "تَيْهيّ السِّن" (حَيَوان بَرْمَائي مُنْقَرِض)، وهو من أحفاد إحدى فصائل السَّمك التي تُدعى "فَصيّات الزَّعانف". وفي العصر الكاربوني (منذ ٣٥٤ مليون سنة إلى ٢٩٠ مليون سنة) تطوّرَت فَقاريات الأرض بسرعة كبيرة، وتوسّعَت إلى عائلة غنيّة متنوّعة

من البَرْمَائيات ثم بالتدريج إلى زواحِف أيضًا. استمرّ هذا التطوُّر إلى العصر البَرمي (منذ ٢٩٠ مليون سنة إلى ٢٤٥ مليون سنة). وكانت الخاصيّة المميِّزة لهذه الحِقبة تزايُد عدد الزواحِف المُتكيِّفة مع مناخٍ أكثر جفافًا. وفي هذه الحِقبَة ظهرَت أُولى الزواحِف الشبيهة بالثّدييات، وهو نظام الزواحِف الذي تأتي منه جميع الثّدييات.

شهدَ العصر الترياسي (منذ ٢٤٥ مليون سنة إلى ٢٠٦ مليون سنة) ظهور الثّدييات الأولى والدِّيناصورات الأولى. سيطرَت الدِّيناصورات على الحياة على اليابسة من نهاية العصر التّرياسي، واستمرّت باسِطة سيطرها طَوال العصر الجُوراسي (منذ ٢٠٦ مليون سنة إلى ١٤٤ مليون سنة)، إلى أن أبادَت كارثةٌ شاملة، يُرجّح أنها ضربة نَيْزَك في "يوكاتان" عند خليج "المكسيك"، آخرَ الدِّيناصورات في نهاية العصر الطّباشيري (منذ ١٤٤ مليون سنة إلى ٦٥ مليون سنة). وتلك لم تكن نهاية الدِّيناصورات تمامًا. فكلّ شيء يشير إلى حقيقة أن الدَّجاج البرّي أو ما يُعرَف باسم طائِر الطَّيْهوج الذي حاولنا أنا وأنتِ اصطياده عند هضبة "هاردانجر" هو في الحقيقة من الأحفاد المباشرين لِعائلة معيّنة من الدِّيناصورات، وهو أصل يشترك فيه مع باقي الطيور الأخرى. وغالبًا ما يمزحُ عُلماء الحفريات بقولهم إن الطيور هي في الواقع ديناصورات.

أما أنا وأنتِ والحيوانات الرَّئيسة كلّها فننتمي إلى فِئةٍ من آكِلاتِ حَشَراتٍ قريبة الشبه من حيوان "الزَّبَّابَة"، وهي حيوانات من القوارِض أصغَر حجمًا من الجُرذان، جاءت تعدو منذ ٦٥ مليون سنة حالما انتهى طغيان الدِّيناصورات آكِلة اللحوم. هل تتذكّرين مُزاحنا حول هذا؟ قَوْلنا إننا حيوانات تشبه الفئرانَ الصغيرة!

على امتداد العصر التّيرشري أو الثُلاثي (منذ ٦٥ مليون سنة إلى ١,٨ مليون سنة) كان نظامُنا الثّديي، أي المُقدّمَات، يمرّ بمرحلة تطوّرٍ سريعٍ جدًا. ثم على عتبة العصر الكواترنري أو الرُّباعي (منذ ١,٨ مليونَ سنة)، وهو عصر فترتنا الجيولوجية، ظهرَ جَدُّنا العظيم الأول *الأسترالوبيثكس* أو

أوّل جنس شبه بَشَري مشى على الأرض بقدميْن اثنتين، وقد سبقَ أن أشرتُ إليه.

هذا ما أؤمِن به يا سولرن! أؤمِن بالمعرفة التي تُمِدّنا بها الفيزياء الفلَكية وعِلْم الكَوْنيات أو الكوزمولوجيا. وأؤمِن بما يستطيع عِلْم الأحياء وعِلْم الإحَاثَّة تزويدنا به من معلومات عن نشوء الحياة على الأرض وتطوّرها. وأؤمِن على نحو قاطعٍ وبكلّ ما في الكلمة من معنى بفلسفة العلوم الطبيعية. أعرف أن هذا كلّه يتغيّر باستمرار: فالبحوث العِلمية تأخذ خطوتين إلى الأمام وخطوة جانبية، أو خطوةً إلى الأمام وخطوتين جانبيتين. ومهما اختلفَت الأحوال، فإن شيئًا لن يجعلَني أؤمِن إلا بالقوانين الطبيعية، وبالتحليل النِّهائي الذي يعني قوانين الفيزياء والرياضيات.

أؤمِن بما هو موجود. أؤمِن بالحقائق. نحن لا نعرف بَعدُ كلّ شيء، ولا نفهم كلّ شيء – معرفتنا مُفعَمة بالثّغرات. إلا أننا نعرف ونفهم أكثر بكثير من أسلافنا.

ألا توافقيني يا سولرن على أن ما كسَبناه من بصيرةٍ خلال القرن الماضي فقط يدعو إلى العجَب؟ يمكننا أن نبدأ قَرننا بنظرية النِّسبية الخاصّة لـــ "آينشتاين" في ١٩٠٥. فوراء المعادَلة E = mc٢ يكمنُ استيعاب عميق، يفوق التصديق تقريبًا، لطبيعة الكَون؛ الطاقة يمكنُ أن تتحوّلَ إلى كتلة، والكتلة إلى طاقة. وفي ١٩٢٠ اكتشف العَالِم "إدوين هابل" انزياحًا كوْنيًا أحمر وانتهى إلى أن المَجرّات يبتعد بعضُها عن بعض بسرعة تتناسب مع المسافة التي تفصِل بينها. لا مجال للشكّ في أن هذه إحدى أهمّ إنجازات القرن العِلمية، لأنها جلبَت معها حقيقة أن الكَون يتوسَّعُ وأن أصلَه كان الانفجار العظيم. نظرية أُثبتَت بعدّةِ طرائق منذ ذلك الاكتشاف، ناهَيْكِ عن إثباتها بوساطة الكشف عن الأشعّة الكونية الخَلْفية، حيث تبيّنَ لنا أن الكَون ما زال ساخنًا بعد الانفجار العظيم قبل ١٣,٧ بلايين سنة. وفي عام ١٩٩٠ وُضِع مِنظارُ الفضاء العظيم – الذي حملَ اسم "هابل"

تيمّنًا به – حول مدار الأرض، وبعد إجراء تعديلات وتحديثات ضرورية عليه، زوّدَنا بصور مهمّة للكون على بعد العديد والعديد من بلايين السنين الضَّوئية، وبالتالي أعادَنا بما يعادلها من بلايين السنين إلى تاريخ هذا الكَون. لأن الإطلالَ على الكَون لا يختلف في شيء عن الرجوع بالزمن إلى الوراء. اليوم، لا مُعَوِّقات كثيرة تحول بيننا وبين النظر إلى بدايات الكَون، مع أنه ليس من المُحتمل أن نرى ما هو أبعد من ٣٠٠،٠٠٠ سنة بعد الانفجار العظيم. وينبغي ألا ننسى أن الكيمياء الحَيوية واستيعابنا لماهية الحياة قد واكَبا هذا التطوّر على مَدار القَرن بسرعة جنونية. ومن اللحظات المهمَّة في هذه الفترة توصُّل "فرنسين كريك" و "جيمس واطسون" إلى وصف الشريط الثُّنائي اللوْلبي المؤلَّف من جُزَيئات الحَمْض النَّووي (دي إن إي) في ١٩٥٣. ولا يمكن أن نغفِلَ اللحظة الحاسمة الأخرى التي شهدَت رسم الخريطة الجِينية للإنسان، أي تلك البلايين الثلاثة تقريبًا لزَوْجي القواعِد الأساسية التي يتركَّب منها الجِينوم البشري أو مجموعة العوامِل الوراثية. وقد اكتملَت هذه الخريطة في نهاية القَرن. العلامة الفارِقة التالية في سَعْينا لِفهم الكَون وطبيعة الهَيُولَى ستتجلّى في التجربة الفيزيائية الأكبر في العالم، والتي سيُجريها المركز الأوروبي للبحوث النووية "سيرن CERN" في فترة ما مِن ٢٠٠٨. حيث سيدخلُ في حَيِّز الاستعمال مُعَجِّل جُسَيمات فائق القدرة وجديد كليًا. والهدف منه تَحَرّي الجُزَيئات الأوّلية التي تألّفَ منها الكَون بعد الانفجار العظيم بـــ ٠,٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠١ من كَسْر الثانية الأولى. ولعلّنا يومَ نستوعِب تاريخ هذا الكَون بالعودة إلى أوّل جُزء مِجهَري من أوّل ثانية لظهوره، نجدُ ما يجعلنا نَكُفّ عن التذمُّر من استيعاب الإنسان الناقِص للكَون.

غالبًا ما درَجَ الناس على القول إن مناقشة التساؤلات المهمَّة عن أصول العالَم أو جَوهر الحياة هي في عَبَثيتها مثل مناقشة حقيقة الجانب المظلِم من القمر، لأن القمر يُرينا دائمًا الهيئة نفسها. اليوم، أصبحَت هذه الفكرة

ساذجة وباطلة لأننا الآن - بعد الرحلات الفضائية إلى القمر - نستطيع العثورَ في أي مكتبة على صور مُفَصَّلة لجانبه المظلم.

ها.. بَهرتَني يا ستاين! وأنا هنا أتَهَكَّم في الواقع.

تُذكِّرني بتصَرُّف الطفل الذي لا يستطيع أن يجيبَ السؤالَ المطروح عليه، فيبدأ بدلاً من ذلك في التحدّث عن شيء مختلفٍ تمامًا. سألتكَ عن رؤيتكَ الآن إلى العالَم المُعجزة، لا عما تظنّ أنت وبقيّة الناس أنكم تعرفونه.

أنتَ بلا شكّ لا تعتقد أن تلميذتنا الصغيرة اللطيفة جاءت إلى مكتبكَ لتسألكَ عن هذا؟ إن آخر ما أرادَته هو أن تتَّخِذكَ كتابًا مرجعيًا.

من ناحيةٍ أخرى لا رغبة لدي أبدًا في أن أباعِدَ بيني وبين ما طرحتَه عن الفلَك وعِلْم الحَفريات أو التاريخ العِلمي. ولذا أتقبّلُ ما قلتَ بصدرٍ رَحب. إلا أنكَ في الحقيقة تتلو على مسامِعي سلسلةً من الحقائق. ما يعني أنكَ لا تجيبُ أي سؤال، وأن ليس لديكَ نظريات تتعلّق بكيف حدثَ أي شيء أو لماذا؟ أنتَ فقط تعكِس العالَم كما يظهَر لنا جميعًا.

أنتَ لا تأتي مُطلقًا على ذِكر كلمة واحدة عن الشيء الأكثر غموضًا - وربما الأكثر أهمية - وهو أننا أرواحٌ تشعُ نورًا أيضًا. كلّ فردٍ منّا هو بحدٍّ ذاته روح في هذا الكَون. أليس هذا ما رأيناه في 'الدُمَى' آنذاك؟

تخيّل أن طفلاً يذهبُ إلى أمّه ويسألها، من أنا؟ أو ما ماهية الإنسان؟ فتتناول الأم سكّينًا وتبدأ في تقطيع لَحمِه ليتسنّى لها أن تُزَوِّده بجواب أفضل.

في الوقت نفسه، وَرَدَ في رسالتكَ مقطَعٌ عاودتُ قراءته مرَّات. تكتبُ قائلاً: 'وفقًا لآخر الحسابات، يبلغ عُمر هذا الكَون الذي يكتنفه غموض رهيب ١٣,٧ بلايين سنة تقريبًا. في ذلك الوقت وقع ما يُسمى الانفجار العظيم. كيف؟ ولماذا؟ لا تسأليني! ولا تسألي أي شخص آخر، لأن أحدًا لا يعرف.. '

على هذه الحافَّة البَرَّانية المُضيئة يا ستاين وقَفنا في تلك الآونة. وأسلمنا زمام أمرنا إلى تلك اللاأدرِية الوِجْدانية التي تطلّعنا من خلالها إلى كلّ ذاك الذي كان 'غارقًا في لُجّةِ الغموض'. وربما كانت هذه الحَمِيَّةُ هي ما أمَدَّنا بالطاقة لنعيش سبعة عشر يومًا مثل أهالي الكهوف. كنّا مُصابين بدُوار الدَّهشة، وأصرَرنا على تحرّي كلّ شيء على الإطلاق. وفي أدنى الأحوال، كان جوابُ تساؤلنا عمّا تبدو عليه الحياة في العصر الحجري في متناولِنا.

ولا أرى داعيًا اليوم لأن تكون المسافة بيننا شاسِعة. لعلّ اختلافنا لا يكمُنُ إلا في أن ما تدعوه 'الانفجار العظيم' هو ما أسمّيه لحظة الخلْق، أو كما تقول الآية الثالثة من سِفْر التَّكوين، 'وقال الله لِيَكُن نورٌ فكان نور'.

ما تُنَحّيه جانبًا باعتباره 'تحرُّر طاقة' هو بالنسبة لي فِعل خَلْق، ولا بدّ لي من القول إنه من المُحزن جدًا من وِجْهَة نظري أن يقترِبَ المرءُ من يَدِ الله المُبدِعة إلى حدود ٠,٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠١ من الثانية، ولا ينتابه ولو على نحوٍ مُبهَمٍ الشُّعور بالحَضْرَة الإلهية. هذا برأيي يدلُّ على نقصٍ معيّن في الحِسّ المُرهَف.

على أي حال، سأمنحكَ من جديدٍ فرصةً أُخرى. ما هو مُعتقَدكَ يا ستاين؟ أعني بما يتعلّقُ بالأشياء التي لا نعرفها.

أتَحْذِفين؟

ماذا؟

أتذكّرتِ أن تحذفي رسائلي قبل أن تَرُدّي عليها؟

نعم ...

أراكِ قادرةً على تَذكُّر ما كتبتُه بدقّةٍ. مثل 'المقطَع' الذي استَشهَدتِ به. وضَعتِه بين علامات اقتباس، وبقَدْر ما أستطيع التّخمين، يبدو لي أنك اقتبستِه كلمةً بِكلمة.

يا لِخِفَّة دَمكَ. لطالما كانت ذاكِرتي حادّة. أنا كما ترى *أمتلكُ* بعض 'المواهِب' الخاصّة...

وإذًا؟

أشعَلَ يوناس ونيلز بيتر شوّاية اللحم للتوّ، وعلي أن أقومَ وأُعِدّ السّلَطَة. لم ألاحِظ إلا الآن فقط أن يوناس فاقَ أباه نُموّا. بشكلٍ عامّ أرى أنني سأبقى مُرتبطةً مع العائلة لبقيةِ هذا المساء. فماذا عن الغَد؟

لدي متّسعٌ كبيرٌ من الوقت غدًا. استمتعي بأُمسيتكِ العائلية!

وأنا بدَوْري أتمنّى لكَ وقتًا طيبًا مع حَميكَ الفَطِن.

٣

صباحُ الخير! أأنتَ هناك يا ستاين؟

أهلاً بكِ. بعثتِ برسالتكِ قبل نصف ساعة. وها قد أصبحتُ الآن أمام الشَّاشة، والحاسوبُ متَّصل بشبكةِ الإنترنت.

الجوُّ هنا أروع من أن يُصدَّق يا ستاين. لا نفحة ريحٍ واحدة تَهبّ، والدِّفء اللطيفُ يغمُر الدنيا منذ الآن. أخذتُ حاسوبي المَحمول إلى الخارج تحت الشمس، وأنا الساعة جالسة إلى طاولةٍ في الحديقة الصغيرة التي لطالما تعهّدَتْها جدّتي بالرّعاية وهي تدندن بترنيمتها: أوه، يا له من شخصٍ لطيفٍ ذاك الستاين.

إنَّ القدومَ من غَرب البلادِ إلى هنا يفعَل بالمرء فِعله، فهو يجعله حريصًا على ألا يُفوّت يومًا صيفيًا دافئًا. احتفاءً بالشمس ومحيطي ارتديتُ ثوبًا هفهافًا أصفر تتخلّله زَخْرفة كَرَزيّة اللون رقيقة، وأمامي على الطاولة حاليًا إلى جانب الحاسوب المَحمول وعاءٌ صغيرٌ من الكرز. اشتريتُ الكرز من بِقالة إيدي عند رصيف الميناء.

وأنتَ؟

أظنُّني أشرتُ إلى أننا في "نوردْبيرغ"، على مسافة لا تبعد كثيرًا عن المكان الذي كنتُ أعيش فيه أنا وأنتِ يا سولرن. وأتذكّر أننا في مُناسبتين أو

ثلاث مَررنا بالقرب من البيت الذي أقيم فيه حاليًا في قمّة "كونغليفيين". إنما أرجّحُ أن تكوني قد نسيتِ معظم أسماء الشوارع في منطقة لم تَطأها قدمكِ منذ أكثر من ثلاثين سنة.

حاليًا أنا على شُرْفة زجاجية أرنو إلى الحديقة التي تواجه الجنوب. وهذا يكاد يماثِل الجلوس في الخارج لأنني فتحتُ نافذتين كبيرتين، وبين آن وآخر تدخلُ نحلة طنّانة عابرة، ثم تعود وتخرج بعد لحظاتٍ قلائل. أرادَت بيريت أن ترصَّ في هذه الشُّرفة أحواض الأزهار، إلا أنني نجحتُ في إقناعها بأن ما لدينا من أزهار في الحديقة أكثر مما نحتاج. وكان علي في المقابل أن أتأقلمَ مع واقِع تكديس أحواضِ النباتات على الشُّرْفة طوال الشتاء. وحينذاك، ليس هناك طبعًا نَحْل أو دبابير تطير إلى الداخل عبر النوافذ المفتوحة. إنني أصِفُ هنا مساوَمة زوْجية نموذَجية. فأقلّ ما في وِسْع المرء أن يفعلَه في هذه الحالات مُقابلة شريكهِ في منتصف الطريق، والموافقة على ترتيبات كهذه.

عادَت بيريت إلى عملِها بعد العطلة. ربما أخبرتُكِ بأنها أخصّائية عيون وتعمل في مستشفى "أوليفول". أما ابنتاي إينّا و نُورون فهما كالمعتاد تتسكّعان في الأرجاء، جَذلتين كَجَذل الصيف نفسه. وأنا وحدي في البيت كما ترَيْن.

أتذكّرُ "كونغليفيين" جيدًا يا ستاين، وكيف درَجنا على التنزّه في تلك الأنحاء. كنّا أحيانًا نمشي إلى محطّة "بيرغ"، وأحيانًا نمضي مباشرةً إلى الجامعة. وهذا تعدّى المرّتين أو الثلاث. ثم إنني كنتُ أقوم بزيارات خاطِفة إلى "كرينغشْو" كلّما وجدتُ نفسي في "أوسلو" تقريبًا. لا تنسَ أنني عشتُ هناك خمس سنوات، وهي سنوات مهمّة في حياتي، فقد كان ذاك بيتي. وإلى يومنا هذا ما زلتُ أدور مرّتين حول بحيرة "سوغنسفان". لا أظنّ أنها منطقة مَحظورة علي، أليس كذلك؟

قطعًا لا. يَسُرّني أن أعرفَ أنكِ كنتِ تأتين إلى هنا خلال هذه الفترة.

إلا أنني لم أقابِلْكَ قطّ يا ستاين، أعني عند بحيرة "سوغنسفان".

ها، ها أنتِ!

ها أنا ماذا؟

الصُّدفةُ يا سولرن. إنها لا تعمَل دائمًا.

لعلّ التِئام الشَّمل العظيم وُفِّر إلى أن نعودَ إلى تلك الشُّرفة القديمة...

أنتِ تمزَحين. لكن مهلاً، عندما تدورين حول البحيرة، هل تدورين مع عقارب الساعة أو عكسها؟

عكسها يا ستاين. هذا ما فَعلناه دائمًا.

وأنا محافِظٌ على التقاليد مثلكِ! مَنْ يدري، لربما كنتُ في تلك الأثناء أمشي

خلفكِ على بُعد خمسين أو مئة متر منكِ. وبما أنني الآن بدأتُ أُهَرول، قد يتاح لي اللحاق بكِ في المرّة القادمة.

ما يهمّني حاليًا يا ستاين هو تشكيلُ صورة لكَ وأنتَ جالس أمام حاسوبكَ على شُرْفة زُجاجية في "نوردْبيرغ". أَخَذْتُ عِلْمًا بالنحلة التي زارتكَ للتوّ، وأشكركَ على هذا. مع ذلك أنا أحتاج إلى مزيدٍ من التفاصيل لأنسى تمامًا أننا مُتباعدان مسافة إبحار عبّارتين و ٦٠٠ كيلومترًا. أهناك شيء آخر تستطيع أن ترسمَ لي تفاصيله؟

حسنًا، أنا ألبَس "فانيلة" بيضاء وبنطلونًا قصيرًا كاكي اللون، ولا أنتعلُ شيئًا. أمامي منضدة صغيرة جدًا، هي بالأحرى أقرب إلى المَنَصَّة، مساحتها تكفي فقط لحاسوب مَحمول، وعلى حافة النافذة فنجان فيه كمية "إسبريسو" مُضاعَفة وكوب من المياه المعدنية. أنا جالسٌ على مقعدٍ عال، ولا أتذكَّر من أين حصلنا عليه. في الخارج بلغَت الحرارة حوالي ٢٥ درجة. وفي وسْعي أن أرى من هنا في الحديقة المسوَّرة بسياجٍ من نبات التُّويا عَيِّنةً من شجر إجَّاص ثمرُه ما زال رماديًا وفجًّا، وشجرتَي خوخ تحملان خوخًا ناضجًا تقريبًا مُشرّبًا باللونين الأزرق والبنفسجي. وإن لم يُخَيِّبني الظنُّ فهذا النوع يُدعى "هيرمان". ومن حول ساعة شمسية قديمة تنبثِق باقةٌ كثيفة من أزهار "لووس ستريف" الصفراء – غالبًا ما تبقى مُزهِرة طَوال الصيف – وإذا مشينا إلى الأمام ثمّة عناقيد من الزهور النَّجمية البيضاء والحمراء إلى جانب الممرِّ الحصوي – تزهِرُ في وقت متأخِّر وتدوم منتصبةً معظم الخريف كأنها الأعمدة الصغيرة.

هل في هذا تعويض كافٍ لرحلة عبّارتين و ٦٠٠ كيلومتر؟

نعم. هذا دَعْمٌ عظيم، فالآن في مقدوري أن أتخيّلكَ. ولكن ماذا عن البنطلون القصير؟ لم يسبِق لكَ قطّ أن لبستَ شيئًا كهذا. كنتَ عمومًا تلبَس بنطلونات مُضلَّعة مُخْمَلية الزَّغَب، بُنيِّة أحيانًا، وأحيانًا بلون الصوف الطبيعي، أو حتى حمراء قانية. أي أن هناك *شيئًا* قد تغيَّر.

والآن، يمكنكَ أن تشرعَ في التحدُّثِ إلي يا ستاين. فأنا لن أبرحَ مكاني.

أشرعُ في التحدّث إليكِ؟

منحتُكَ فرصةً أخرى لتطلعَني على ما تَعْتَنِقه من مُعتَقَدات بالنسبةِ إلى تلك الأمور التي لا تستطيع أن تجِد لها تفسيرًا.

آه،نعم. أرى أنكِ تُناورين ثم تعودين إلى طرح السؤال عَينه تقريبًا، وأنا لا أستطيع استرجاع ما كتبتُه لكِ بالضبط. ولا أُخفي عليكِ أنني، بعدما غادرتِ أنتِ وزوجكِ بلدة الكتب في ذلك الأربعاء، أمضيتُ وقتًا طويلاً أتمشّى في الحديقة معاوِدًا التفكير مَليًا في ما وقفَ وراء فراقنا. إنه في الحقيقة لم يكن إلا بسبب هذه الأسئلة عن المُعتَقدات. وبما أنكِ ذكّرتِني بــ 'مَرأة العِنَبية'، حاولتُ أن أستحضِرَ في ذهني جميع المحادثات التي أجريناها عن مثل هذه الأمور قبل أن يَحطّ علينا الصمتُ المباغِت وينهار كلّ شيء.

تنتابني بعض المخاوف من نَبْش ذلك ثانية. فأنتِ على صواب في قولكِ إنني جلستُ في غرفة النوم أدخِّن بلا انقطاع في أمسية ذلك اليوم الأخير وليلته. كنتُ في حالة يأسٍ رهيبة. ما عاد في وسْعنا تبادل الحديث. لا بل ما عاد في وسْعنا البقاء معاً في الغرفة نفسها. وعندما اضطجعتُ في لحظةٍ ما

قُبيل الفجر، لم يكن قد بقي لديَ إلا سيجارة واحدة من أصل عشرين في العلبة – أتذكَّرُ هذا جيدًا، لأنني أشعلتُها وأنا قابع على حافة السرير حينما قمتُ بعد ساعة. وقبل أن أصِلَ إلى منتصفها، سحقتُها بعنف وخرجتُ إلى غرفة الجلوس، وهناك وجدتكِ جالسة على طرف الصوفا، وفي يدكِ أنتِ أيضًا سيجارة.

ستاين! كان كلّ ما قلتِه، إلا أن شيئًا ما لاحَ في عينيكِ، فأومأتُ لكِ برأسي.

عرفتُ أنّكِ سترحلين في ذلك اليوم. وعرفتِ أنني عرفتُ. ولم أحاول منعكِ.

الآن، تَعودين بعد أكثر من ثلاثين سنة لتسأليني عن المُعتَقَدات التي أعتَنقها؟ قد يخيّبُ هذا آمالكِ، فأنا في جميع الأحوال لستُ واثقًا من أن لديَ أي نوع من أي 'مُعتَقَدٍ' شخصي بأي شيء. ومِنَ الأسهل لي أن أحدِّدَ لكِ ما لا أعتَنْقه من مُعتَقدات.

أرى أنكَ تُعقِّد الأمور الآن. لا بأس، ما هي المُعتَقدات التي لا تَعتَنِقها؟

يمكن أن أُلَخِّصَها بعبارةٍ واحدةٍ يا سولرن. أنا لا أعتَقِد أن هناك أي كَشْفٍ غَيْبي من أي نوع. وبمعزل عنه يوجد الكثير ممّا يدعو إلى التساؤل، إلى جانب قَدْر كبير من الأمور التي نجهَلها. هناك حَقْلٌ لا حدودَ له من المُعتَقَدات التي قد يؤمِن بها المرءُ أو يشكِّك فيها.

نعَم؟

إننا نستخدمُ كلمة 'الاعتقاد' في سياقاتٍ مختلفة مُتعدِّدة. فنحن قد نعتقِد أن فريق "مانشِستَر يونايتد" سيغلِب فريق "ليفَربول"، أو قد نعتقِد أن الجوَّ غدًا سيكون رائقًا. بهذا الأسلوب نحن نعني أن شيئًا ما في نظَرنا له الأرجَحية على شيء آخر. أي بمعنى آخر أن كَفّةَ فَوْز فريق "مانشِستَر يونايتد" بمباراة كُرة القَدم يوم الأحد قد تكون الراجحة. وربما هناك علامات تشير إلى أن الجوّ غدًا سيكون رائقًا. وهذه ليسَت الأمور التي نناقشها هنا.

ثم لدينا تصنيف آخر من الأسئلة عن المُعتَقدات التي لا مانِع أيضًا من أن نضعَها جانبًا الآن - ما يجول في ذهني بالتحديد التساؤل الذي تطرّقتِ إليه بخصوص ما إذا كان الانفجار العظيم قد حدث من تِلْقاء نفسه أو أنه نتيجة فِعْل خَلْق ربّاني. هذا سؤال لا يستطيع أحد إعطاء جواب حاسم له؛ فهو من الأسئلة النَّموذجية المتعلّقة بالإيمان، ومن جهتي أنظرُ باحترام كبير إلى فكرة أن الانفجار العظيم قد يكون من مُعجزات الله، على الرغم من أن تعبيرَ أو مُصطَلح 'الله' مَشحونٌ كثيرًا جدًا بمفاهيم إنسانية أَربَأ أن أستخدمَها بنفسي. ضمن هذا التصنيف لدينا أيضًا، وفْقَ ما أرى، سؤال آخر يهمّكِ، وهو الذي يدور حول ما إذا كان فينا أو ليس فينا شيء مثل 'روح' أو 'نفس' سيُكتَبُ له النجاة من الموت. أنا شخصيًا أستبعِدُ أن يكون فِي شيء سيُكتَب له أن يستمرّ من بعد ما أنا عليه اليوم. أقول أستبعِدُ، لا لأنني أرى أن مثل هذا الاعتقاد لا يتوافَق مع العلم، على الرغم من إمكانية القول إنه يَشغل منطقة ضبابية، بل لأنني لن أرغبَ في دَحْض الإيمان بوجودٍ آخر بعد هذا - وبدرجة أقلّ سلبه منكِ - بِناءً على أُسُسٍ علمية.

ولكن، لا أعتقدُ أنّ هناك أي قُوى 'غَيْبية' تتخلّل حياتنا باستمرار و 'تظهَر' لنا. كان يجدُر بي أن أكونَ أكثر وضوحًا معكِ في الماضي بخصوص هذا كلّه، لأن ردَّ فعلي لم يأتِ بسبب اقتناعكِ المفاجئ بحياةٍ أخرى بعد حياتنا الآن، إنما لأنكِ ربطتِ هذه التصوّرات بفكرة أن 'مَرأة العِنَبية' كانت ظُهُورًا من العالم الآخر. وكما سبق أن بَيّنتِ في رسالتكِ، كان ظهُورها حدثًا اختبرناه معًا. وعلى الرغم من أنني ربطتُ فورًا بينها وبين ما واجهناه عند تلك البحيرة في الجبال، لم أستطع التَّصديق أنها ماتَت هناك، وأنها بعد ذلك عادَت لتزورَنا من 'الطَّرف الآخر'.

ها، فهمتُ، ومع ذلك تابِع يا ستاين. إنني أحاول في الوقت الراهن أن أستوعِبكَ جيدًا. ثم، عندما يأتي دوري سأنقلُ لكَ وجهة نظري. ما عليكَ الآن إلا أن تُخرِج ما في داخلكَ، فأنا قادرةٌ على تَقَبُّلِه.

حسنًا إذًا، إليكِ ما لدي. أنا لا أعتقِدُ أن تاريخ الإنسانية بأسره يتضمّن حالةً واحدة ظهرَت فيها لأي فردٍ أو عِرق الآلهةُ أو الملائكةُ أو الأرواحُ أو الأسلافُ أو الأشباحُ أو العفاريت، أو أعلَنَت عن نفسها بأي سُبُل أخرى. والسبب هو أبسطُ الأسباب على الإطلاق: تلك الأشياء بالتَّحديد لا وجود لها.

نعم يا ستاين. لقد تناولتُ إلى الآن خمسَ حبّات من الكرز. ولِتَسهلَ عليّ متابعة العدّ، أحتفِظُ بالنَوَى على الطاولة أمامي.

هناك إشاعات تقول إن بِقالة إيدي ستُغْلَق بعد أن كانت تجارةً عائلية منذ ١٨٨٣. لدينا طبعًا دكاكين في "نورا" وفي "إيترويفريند"، وتعداد سكان

الجزيرة الدائمين لا يكاد يتجاوز المئتين. مع ذلك سيكون مُحزِنًا أن نفقِدَ الدكّان هنا عند اللّسان البحري. بالتأكيد ليس ثمّة ما يَحُولُ دون أن تقودَ السيارة أو تركبَ الدرّاجة إلى "نورا" وتتسوّق من هناك، لولا أنه عندما يفقِد مجتمعٌ صغير مثل "كُولغْروف" دكاكينه، تبدأ بُنْيَةُ المكان بأكملها في التفكُّك، شتاءً في أدنى الأحوال، عندما لا يكون زوّار الصيف هنا.

هل تتذكّر جميع رحلاتنا على الدرّاجة التي قمنا بها في ذلك الصيف؟ أعرِف أنكَ تفعل. كان لا بدّ لنا في كلّ مساء من الذهاب إلى "سوندره يونيفّوغ" لنتأملَ البحر والغروب، ومن بعد ذلك لا بدّ لنا من الاستحمام في كلّ البِرك الجبلية على طريق البيت.

تابِع حديثَكَ يا ستاين. أنا لستُ بالهشاشَة التي تظنُّها. كتبتَ تقولُ إنكَ لا تُؤمِن بِالقُوى الغَيبيّة...

طَيِّب، بما أنكِ تسألين، إليكِ بمنظاري الغاليليوي. حاولي أن تَتَمثّلي في ذهنكِ أن جميع الأفكار عن الظواهِر الغيبيّة هي بلا استثناء ليست إلا تصوّرات إنسانية بَحْت، وليس لها أي أساس بتاتًا إلا في أعماقِ الإنسان نفسه. فهناك يجِدُ الناس تربةً خَصْبة جدًا للتعويض عما ينقصهم. ما أراه شخصيًا هو أنّ لدينا هنا ثلاثة عوامِل بارزة: ذَخيرتنا المُفْرطة من الخيال، حاجَتنا الغَريزية إلى البحث دومًا عن معانٍ خفيّة حتى في حال عدم وجودها، وأخيرًا تَوْقنا الفِطري إلى وجودٍ بِكْرٍ بعد هذا، أعني حياة أخرى بعد الموت.

وقد أثبتَ كوكتيل الطبيعة البشرية الثلاثي هذا أنه مُثْمِرٌ على نحوٍ فريد. ففي العصور كافّة بلا استثناء – وفي المجتمعات والحضارات كلّها – عزّزَ البشر، كَمًّا هائلاً إثر كَمٍّ من المفاهيم المتعلّقة بالكائِنات الغَيْبيّة مثل أرواح الطبيعة، والأسلاف، والآلهة، والعمالقة، والملائكة أو الشياطين.

خُذي ما تزخَرُ به خيالاتُنا من حياةٍ نابضة كَبداية. الجميع يحلم، لذا لا أحد يستطيع أن يصُونَ نفسه صِيانة مُطلقةً من الهَلْوَسة، وفي مواقِف معيّنة يمكن أن يحدثَ الشيء نفسه ونحن في حالة اليَقَظة. حيث يخطرُ لنا أننا نشاهِد أشياء ونشعر بها من غير أن يكون لتلك المُدْرَكات أي أساس على أرض الواقع. مَنْ مِنّا لم يسأل نفسه ما إذا كانت هذه الذّكرى أو تلك هي شيء اختبَرَه بالفعل، أو أنها ليست إلا شيئًا ذُكِرَ أمامه أو فكّرَ فيه، أو حلمَ به أو تخيَّله.

أنا بنفسي قابلتُ أُناسًا يَزعمون أنهم شاهدوا 'جنيّات'. بَيْدَ أن الواقع يَنُصُّ على أن رؤوسنا هي على الدوام جدّ مَحشُوّة بانطباعات حِسيِّة بحيث لا يكاد يبدو مفاجئًا أن تغلي وتفور من حين لآخر، أعني أن الاضطرابات البسيطة تحدُث، الأَشياء التي ندعوها عمومًا الأوهام أو التَّهيُّؤات.

أما الوثوب المفاجئ من نَوْبات الارتباك الحِسّي الطبيعية جدًا هذه، إلى ما نسمّيه الحقائق الدينية فيحدُث عندما نسمحُ لِخَيالاتنا أو لخيالات الآخرين أن تكتَسبَ مَنزِلةَ كِيانات مَوضوعية قائِمة بذاتها، ومُستقِلّة عن وَعْينا الخاصّ أو وَعْي غيرنا. إنني أفكّرُ هنا في كلّ شيء؛ ابتداءً من أرواح الطبيعة، ومرورًا بالحَشد الكبير للشخصيات الصُّوفية التي نلقَاها في الأديان القَوْميّة القديمة، وانتهاءً إلى المفاهيم التي تفوقها عَظَمَةً أو تَبُذُّها فِكْرًا والتي نُواجَهُ بها عادةً في الأديان العالمية الكُبرى، مثل فكرة وجود ربٍّ قادر على كلّ شيء يُظهِر نفسه للبشَر على الأرض، أي يُظهِر نفسه على كَوكبنا في درب التَّبّانة.

أرى أنه يجدُرُ بي هنا إجراء تمييز مُهمّ. فجميعُ الأديان، تتضمّنُ إلى جانب بعض المُثُل الأخلاقية وَفْرَةً من التجربة الإنسانية التي يمكن أن تكون قَيِّمةً جدًا بحدٍّ ذاتها. ومثلما سبق وقلتُ، ليس *تَديُّن* الناس هو ما أسعى إلى

إلقاء ظِلال الشكِّ عليه. فأنا لا يطفَح بي الكَيْل إلا عندما أسمَع أو أقرَأ عن أُناس يجرون اتصالاً روحيًا مع ربٍّ عَليّ، ربٌّ خاطَبهم أو ظهَر لهم مُحمِّلاً إياهم رسالةً مُحَدّدة ينبغي أن يطيعَها الجميع. ملايين من الناس يعيشون على هذه الأرض مُعتقدين أن الربَّ يُخاطِبهم – ويُمْلي عليهم ما ينبغي فِعله – على نحو فَردي كليًا. ملايين وملايين من الناسِ هم كذلك مُقتنعون بأن ربًّا مُهَيمِنًا يتحكَّم بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ تحدُثُ هنا، سواء كَانت تسونامي أو حربًا نوَوية أو لَسْعة بَعوضة.

أو ربما يا ستاين توقُّف بطارية حاسوبٍ مَحمولٍ عن العمل هنا في هذا الزُّقاق البَحري. سأعملُ على حلٍّ هذه المشكلة. ما عليكَ إلا الاستمرار في الكتابة. الآن، ليس في بطارية حاسوبي طاقة كافية لأنغمِسَ معكَ في نقاش مُطَوّل. ولن أدخلَ إلى البيت في هذا الجوّ.

هل أُكْمِل إذًا؟

نعم يا ستاين. سيأتي دوري مِن بعدكَ، وأرجو أن تكونَ مُستعِدًا نفسيًا لما أنوي قوله. لعلّ النَّبْشَ في محيط ما اختبرناه في الماضي من مهامّي. لا أعرف ما تبقّى في ذاكِرتكَ منه. على كلّ حال ما عليكَ الآن إلا أن تُكمل حديثكَ.

لا أَجدني قادرًا على القَول إنني أتطلّع بشوق إلى ما ستعمَدين إلى نَبْشه، إلا أن التزامَنا الحَذْفَ يشَجّعني على قبول شروطكِ، ولذا سأتابعُ الآن.

لقد تأمّلنا قليلاً في ما يمكن أن نُسمّيه التَّفسير الدّيني. إلا أننا نعرف أن الطبيعةَ البشرية لا تتغيّر، وأنتِ تعلمين طبعًا أنني لم أؤمِن قطّ بقائِمة علوم الباراسيكولوجيا، سواء ما يتعلّق بظواهِر الماوَرائيات أو بالظواهِر الخارقة. وهنا لا يقتصر تفكيري على الجَلَسات الرُّوحانية لتحضير الأرواح وكلّ تنويعات الشّعْوَذة غير الرُّوحانية في صالات الاستقبال ذات الطّراز الفيكتوري. فهذا النوع من استنْساخ الواقع أصبح قديم العَهد نوعًا ما. ما أفكّر فيه فعليًا هو المفاهيم الحديثة عن توارُد الخواطِر والاستبصار وتحريك الأشياء عن بُعْد والأشباح. من غير أن نُغفِلَ الأفكار القديمة عن الملائكة و 'الملاك الحارِس' التي نَعِمَت في السنوات القليلة الماضية بعودةٍ قويّة. وهذه مثلها مثل سابقاتها اختُزِلَت إلى نَمَط من الاعتقاد بالتجلّي المرتَبط بمفاهيم عن إمكانية التواصُل مع بعض القُوى الماورائية أو الغَيبيّة. وقبل فترة ليست ببعيدة حدثَت بَلبَلةٌ طَفيفة عندما صَرَّح ٣٨ بالمئة من سُكّان "النّرويج" أنهم يعتبرون اتصال البشَر بالملائكة مُمكِنًا.

أُدْرِج أيضًا في قائِمة هذه الظواهِر الزائِفة جميع نماذِج التّنَبُؤ بالغَيب، لأن هذه أيضًا تستند إلى فكرة وجود قَدَر مُحتّم يتيسَّر الكشفُ عنه أو إظهاره باستخدام تقنيَات مُحدَّدة. خصوصًا عبر وساطة قارِئي البَخْت ذوي الأتعاب الباهِظة. إننا نتحدّثُ هنا عن تجارةٍ قائمة بأكملها، قد تعادِلُ في نشاط مبيعاتها نشاط مبيعات تجارة الجِنس. فسِلَع كلّ من الفُحْش والعِرافة تلقَى على ما يبدو الرَّواج نفسه، حتى على الرغم من أن إحداهما تتعلّق بشيء طبيعي للغاية، والأخرى بشيء هو فوق الطبيعي.

الشيء الوحيد الذي من المُحتَمل أن تحَقّقه هذه المُسَماة علوم الباراسيكولوجيا هو في رأيي رسم خطوط مشهَدٍ لا وجود له - أعني خطوط مشهدٍ خيالي أو وهمي. ولا أرمي بقولي هذا إلى الحَطّ من قيمة آداب هذه العلوم. فهي آداب يمكن أن تماثِلَ في مستوى تشويقها تاريخ الدّينَ والفولكلور وبقية المجالات الثقافية إذا قُرِئَت باعتبارها وصفًا لِنوْعية المفاهيم السائِدة لدى شَريحة واسعة من الناس. نحن لا نعتَبِر الحكايات

الخُرافية بلا قِيمة، لا بل نحن سُعداء بالتأكيد لأن "سنوري ستورلسون" جمَعَ الكثير من الأساطير "النُّورسية" و "الجرمانية" قبل أن يُغَيِّبها النسيان.

في جَعْبَتِي المزيد، إلا أنني سأتوقّف بانتظار أي تعليق منكِ على طول ما كتبتُ، ومن أجل ذلك سأرسلُ الآن هذه الأفكار التجريبية قبل أن تفرغَ بطارية حاسوبكِ نهائيًا.

***

لا أتسلّمُ أي رَدٍّ منكِ يا سولرن، ما يعني أنكِ تواجهين مشكلةً مع البطارية. لذا سأتابع في الوقت الحاضِر تحليلي العَبَثي إلى أن يَصِلَني بريدٌ منكِ.

إنّ رَفْضيَ كلّ الأفكار المتعَلِّقة بالظواهِر الخارقة أو الظواهِر اللاحِسّية يجعلني، بطبيعة الحال، أَتَبَنّى موقِفًا يُشكِّكُ في جميع المفاهيم المماثِلة ضِمْنَ الأديان المُعْتَرف بها. في نظري هما وَجْهان لِعُملةٍ واحدة، ولا أدري ما إذا كان من المفيد بشكلٍ خاصّ إجراء أي تمييز مَنهجي بين الأديان المُوحَاة من ناحية، وبين مفاهيم 'الظواهِر الخارِقة للطبيعة' التي تتفوَّق عليها في انفلاتها الجامح وفي تأكيداتها التي لا تقوم على بَيِّنة من ناحية أخرى. إذ في مقابل نبتة الحكايات المتبرعمة عن الحوادِث 'الخارقة' في علوم الباراسيكولوجيا، ترسَّخت الروايات المُناظِرة لها في صُلب الأَديان العالمية الكُبرى، وتحوّلت إلى مُسَلَّمات، وهي تواصل حياتها في إطار إيمان له أركانه ونُظمه الجيّدة وتتدخّلُ فيه القُوى الإلهية.

إنما، كيف نستطيع حتى التميِّز بين الإيمان والمُعتَقَد الخُرافي؟ فإيمان أحدهم هو في الواقع المُعتَقَد الخُرافي لشخص آخر - والعكس بالعكس. ولا تنسي أن لميزان العدالة كَفّتيْن.

أنا لا أستطيع تَلمُّس الاختلاف بين الرَّطَانة وبين تواصُل مُحَضِّر الأرواح مع الأرواح ومُصادقتها. أليس الشخص الذي يَرطُن، أو يتكلّم بلُغَة غير مفهومة 'وَسيطًا رُوحيًا' أيضًا؟ وكذلك، لا أستطيع تلمُّس أي اختلاف بين النُّبوءات الدّينية وبين عروض فنون السِّحر والعِرَافة الفنّيّة أبدًا. وسواء أطلَقنا على الحوادِث اسم 'مُعجزات' أو تَحريك نَفْسي المَنْشَأ، أو 'صعُود' أو استرْفاعٍ، هي في نظَري واحدة. لأنها في كلّ حالة من هذه الحالات تمَسّ تعطيل جميع قوانين الطبيعة.

فكرةُ أن 'الخارِقَ للطبيعة' يتجلّى لنا في بعض الحالات النادرة، هي في الحقيقة فكرة مشاعَة بين الخُرافة والعُلوم الغَيبيّة والأديان العالمية — مقارنةً مع ما ندعوه نظرةً عِلْمية أو واقعية إلى العالَم. ومع أنكِ تستخدمين عبارة 'ظُهور روح'، أرى أنها تحمِل معنى التجلّي تقريبًا.

إن أحد الدوافع المهمّة لبحوث الباراسيكولوجيا التي أشرتِ إليها كان على وجه التّحديد محاولة العثور على ركيزة عِلمية لفكرة الإيمان بوجود حياة بعد هذه، وهو شيء استقطَبَ الزَّخْمَ بعد أن بدأ تهديد "الدّاروينية" والتفكير الحُرّ يَطالُ الأديان التقليدية. إشارتكِ إلى الزوجيْن "رايتر" جعلَتني أقوم ببحثٍ متواضِعٍ. كان دافِعُ هذيْن الزوجيْن وغيرهما من روّاد حُقول الباراسيكولوجيا التّجريبية البرهَنة على خلود الرُّوح. ولو نجحوا فقط في تقديم دليل دامِغٍ على أن توارُد الخواطِر ظاهِرة أصيلة، لسَهُلَ الذَّودُ عن المُعتَقد الذي يرى أن روح الإنسان أبدية، أنها روح 'حُرّة'، تُقيمُ في الدِّماغ لفترة مُؤقّتة فقط، من غير أن تكون مرتبطة به ارتباطًا لا فِكاكَ منه. مثل هذا الدليل غير القابل للدَّحْض لم يُعثَر عليه بَعد.

هَا أنا أرسلُ من جديد، فهل تتسلّمين؟

نعم أفْعَل يا ستاين! اهتديتُ إلى وصلَة كهرباء قديمة في سقيفة الأدوات، وأنا

الآن أحصل على الكهرباء من البيت. وحاسوبي الموصول بالشريط الأحمر الطويل يشبه القمر الصِّناعي الخاصّ بشبكة الجزيرة الكهربائية. وفي هذه اللحظة هو عمليًا مرتبطٌ بالبيت ومُحيطه، ولكن ليس *ارتباطًا لا فِكاك منه.*

حصلنا مؤخرًا على مُحَوّل بيانات لاسلكي وهو يغطّي الحديقة الصغيرة بأكملها، من غير أن نحتاج إلى قابِس كهربائي أو وصلات. وهذا يتيحُ لي الجلوس حيث أنا والتواصُل مع العالَم بأسره.

لذا حاوِل فقط أن ترى بعَيْن خيالكَ أن البشرَ ليسوا وحدهم من استطاع إبداع مثل هذه الشَّبكات اللاسلكية...

أنتِ تفكّرين في توارُد الخواطر، وربما أيضًا في الاتصال بأرواح الموتى؟

إنني أفكِّرُ في الكثير من الأشياء يا ستاين، إلا أن ما أريدُه هو أن يتسنّى لك إنهاء كلّ ما لديكَ لتقوله حتى تُتاح لي فرصة فهمكَ. تعرِض آراءكَ أولاً، وفي هذه الأثناء وفيما تتابِع حديثكَ أتولّى مهمّة الهَمْز واللّمْز قليلاً، ثم يأتي دوري لأحتلّ الساحة وأُدلي بكلّ آرائي.

جَيّد. شَرط ألا ننسى جُملتكِ الأخيرة، لأنني أنا أيضًا أرغبُ في فهمكِ.

لا بأس يا ستاين. سيكون عَليّ إلى جانب ذلك أن أعيدَ استعراض ما اختبرناه فعلاً آنذاك بسردٍ مُفَصّل، لأنه من المستحيل بالنسبة لي فَصل ذلك الحدث عن هُوِيّتي الدّينية اليوم. أظن أنكَ قد نسيتَ بعضه – أعني بعض أهمّ النقاط – وكما أخبرتُكَ، أنا أتمتّع بذاكرةٍ قويّةٍ جدًا.

ألا تَرَيْن أن ذلك شيءٌ قد نَعْمدُ إلى مناقشته لاحِقًا، في حال رأينا أنه ضروري؟ أعني، إن تحتّم عليكِ أن تفعلي هذا. إن تحتّم *علينا* أن نفعل هذا. فنحن كما تَذكُرين تعاهدنا على ألا نعودَ أبدًا إلى نَبْشِ ذلك الموضوع ثانيةً.

سَنَرى يا ستاين. فحِوارنا في حركةٍ تصاعُدية مُستمِرّة.

عندما عثرتُ على وَصلَة الشريط الكهربائي الطويلة وقمتُ بِكَرِّها وتَمريرها عبر الحديقة، دوّرَت ابنتي إنغريد عينيها. حَسِبتكِ في إجازة، قالت مُحتَجَةً. فهي تظنُّ أنني أعملُ على مادّةٍ تخصُّ مجلس المعلمين أو أنني أُحضِّر دروس اللغة الفرنسية للسّنة الدراسية القادمة – على فِكرة في هذه السَّنة سأعلّم بعضَ الصفوفِ اللّغةَ الإيطالية أيضًا. طبعًا، العمل على هذا أو ذاك ليس فيه ما يبعث على الاستغراب، بما أنه بقي على افتتاح المدارس أقلّ من أسبوع. غير أن نيلز بيتر ويوناس عادا منذ فترة قصيرة من نزهة صَيد السمك. وعندئذ حَدَجَني نيلز بيتر وحَدَج وصلة الكهرباء بنظرةٍ شبه قَلِقة قبل أن يُقبِلَ نحوي ويُدلّكَ رقبتي وهو يتناول ما يحلو له من الكرز. تَجنَّبَ بِحرصٍ النظرَ إلى شاشة الحاسوب التي ليس من السهل كثيرًا على أي حال استشفافها تحت هذه الشمس الساطعة. أظنّه يعرف أنني جالسة أتبادل الرسائل الإلكترونية مع شخصٍ ما، ويتهيأ لي أن حدسَهُ يقول له إن ذاك الشخص هو أنتَ. لم أتجاسر على إخباره لا عن ماذا أكتب ولا لِمَن. ويبدو كما لو أنه هو أيضًا لا يتجاسر على الاستفسار.

أين أنتَ يا ستاين؟ هل من أخبارٍ من "نوردْبيرغ"؟ إذا لم يصلني فورًا أي شيء من تلك الشُرفة الزُجاجية، سيراوِدني شعور بأنكَ تواريتَ عن الأنظار.

أنا في الحقيقة لم أفعَل شيئًا تقريبًا ما عدا الجلوس هنا والكتابة، ثم انتظار ردودكِ وقراءها، فأنتِ تستمرّين في الإجابة فورًا بمجرّد أن أرسلَ. على أي حال، ولأكونَ صادقًا معكِ، أعترفُ أنني قصدتُ خزانة الزاوية وسكبتُ لنفسي قدحًا صغيرًا من "الكالفادوس". تلك "الإسبريسو" كانت شبه خالية من النَّكهة.

لا تقترِب من تلك الخزانة ثانيةً يا ستاين. تابِع فحَسْب. كنتَ تتحدّث عن الباراسيكولوجيا وما وراء الطبيعة...

نعَم، إلى هنا وصلنا فعلاً.

عَرَض "جيمس راندي"، السَّاحر الأميركي المشهور، جائزةً بقيمة مليون دولار لأوّل مَنْ يستطيع أن 'يُظهِرَ، تحت شروط مُلاحَظة دقيقة، دليلاً على وجود أي قُوى خارِقة أو مَا ورائية أو غَيبيّة'. اسمها جائزة المليون دولار لتَحَدّي الخوارِق، وقد وُضِعت أوّلَ ما وُضِعت في ١٩٦٤ عندما عَرَض "راندي" مبلغ ألف دولار من جَيبه الخاصّ لأوّل شخص يستطيع تقديم دليل عن أي شيء خارِق للطبيعة. وشيئًا فشيئًا، دعَمَ أشخاص آخرون الجائزة، وسرعان ما أصبحَت قيمتها مليون دولار. وإلى يومنا هذا لم ينجح أحدٌ في الاختبار.

يَحِقُّ لكِ طبعًا أن تعترضي على هذا بقولِكِ إن المُستَبْصرين أو الناس الذين يمتلكون مواهِب خارقة ليسوا بالضرورة جَشعين. ولكن، حتى من بين آلاف المُشَعْوذين اللاهِثين وراء المال والذين يَشغلون أعمِدة الصحف ويظهَرون في القنوات التَّرفيهية الرَّخيصة، بالكاد انضمَّ أحدهم إلى تحدّي الخوارق سعيًا وراء اقتِناص مال جائزة "راندي" السَّهل. لماذا؟ الجواب واضح للغاية: لأنه ليس هناك أي مُستَبْصرين ولا أُناس يتمتّعون بمواهب 'خارِقة'.

معظمُ الذين تقَدّموا ليشاركوا في تَحدّي الخوارق هذا، وكان هناك الكثير منهم، لم يكونوا في الواقع مُحترفين في تجارة 'عوالِم ما وراء الطبيعة'. فهذا الفريق الأخير تجَنّبه كما لو أنه الطّاعون؛ فهو في نهاية المطاف، يُهدِّدُ باستئصال قِطاعِهم بأكمله من جذوره. (طبعًا لن ينجحَ أبدًا، لأن العالَم *يريدُ* أن يُخْدَع!)

قبل بضع سنوات، اجتمعَت قارئة بَخْت ذائعة الصِّيت في أميركا واسمها "سيلفيا براون" مع "راندي" وجهًا لوجهٍ في البرنامج التلفزيوني "لاري كينغ على الهواء"، وعندما تحدّاها "راندي" لِتعرِضَ ما لديها من مواهِب تحت ظروفٍ خاضِعة للرقابة، وعَدَت على الهواء بأن تقبلَ دخول الاختبار. مضَى على هذا عدّة سنوات، وإلى الآن لم تذهب لترى "راندي". في إحدى المناسبات تعلّلَت بقولِها إنها لم تجد وسيلة للتواصل معه. وأرى أن هذا دَسِمٌ جدًا. دَسِمٌ جدًا أن تزعُم امتلاكها لقُوى الاستبصار وفي الوقت نفسه تعجِز حتى عن العثور على رقمٍ في دليل الهاتف.

أغلب المتطوِّعين الذين تقدّموا إلى مباراة تحدّي الخوارق المليوني كانوا من السُّذَج أو المُقْنِعين ظاهريًا أو غير المُتزنين عقليًا. واضطرَ "راندي" باستمرار إلى تشديدِ القوانين ليتجَنّبَ إجراء التَّحدّي بطريقة قد تسبِّب الأذى أو الخطر للمشاركين. فإذا أراد رجلٌ، على سبيل المثال، أن يعرضَ قُدرته على إلقاء نفسه من بناية بعشر طوابق من غير أن يتأذّى، يرفض "راندي" السماح له بالمحاولة.

في جميع الأحوال من المؤكّد أن جائزة التَّحدّي هذه غير ضرورية، فلو كنتِ عَرّافة، لو أن لديكِ قُدرات خارِقة، فأمامكِ فُرص كثيرة أخرى للثّراء. سبق أن أشرتُ إلى لعبة الرُّوليت، ولدينا غيرها صالات ترفيه نموذجية توفّر مجالَ ربح واسعٍ في حال امتلاك المرء قُدرات خارِقة. ومع ذلك، لم أسمع قطّ عن أي حلقة "بوكر" تطرد أحد اللاعبين لأنه مُستَبْصِر. ما يُقلقهم هو الغِشّ لا العِرَافة.

القُدرات الخارِقة والخِداع. إننا هنا نتكلّم على شريكَي فِراشٍ قديمين يا سولرن، وقِدَمهما هو بلا جدال كقِدَم الجنس البَشري نفسه.

ويبقى مليون "راندي" في الحِفظ والصَّون.

إن مَعْقِلَ 'الخَوارق' النِّهائي بالنسبة إلى الكثيرين كان وما زال اختبار ضربات حَظٍّ مُوفَّقَة أو مواجهة 'صُدَفٍ عشوائية'، وهو ما وصفه "كارل غوستاف يونغ" بالتَّزامُن. هذا شيء سبقَ أن ناقشناه في مَعْرِض حديثنا عن اجتماعِنا هناك عند اللِّسان البحري، عِلمًا بأن اختبار مثل هذه الأمور لا يقتصِر علينا وحدنا. فالمرءُ قد يفكِّر في شخصٍ لم يخطر على بالِه منذ عقود، ثم ينعطِف عند زاوية وفجأةً يجد نفسه وجهًا لوجهٍ مع ذاك الشخص. والكثير من الناس إذ يختبرون مثل هذه اللقاءات الخاضعة للصُدفة يرون فيها البُرهان الحاسم على بُعْدٍ خارق للطبيعة. وهذا واردٌ وصحيح: ففي لحظة وقوع صُدفة كهذه يشعر المرء بشيء من التَّشَوِّش وقِلّة الحيلة، وليس في هذا الشعور ما يدعو إلى العَجب كثيرًا.

ما تطرّقنا إليه قليلاً في بعض رسائلنا الإلكترونية الأولى، وما يسمّيه "يونغ" التَّزامُن، هو في نظري ليس إلا ما يُدعى الصُدفة الخالِصة.

أنتَ دائمًا مُتَيَقِّن جدًا من كلّ شيء يا ستاين. وأراكَ تتجاهلُ حقيقة أن ليس كلّ ما 'يكون' أو 'يحدُث' يمكن بالضرورة إخضاعه للاختبار بالطَّرائق العلمية. إنني بصراحة لن أستغرِب كثيرًا إذا لم يُتَح لعلوم هذا العالَم إلا عَرضَ ما هو مِن هذا العالم.

ألا يسعكَ أن تدعَ الآخرين يؤمِنون بما يحلو لهم؟ ماذا عن المَثل القائِل، عِش ودَع غيركَ يعيش.

طبعًا ينبغي أن تُترَكَ للناس حُرية اختيار الإيمان بما يريدون. لكن عندما يعلِنُ أي شخص أن سُلْطات عُليا ما كَشَفت له الحقائق، لدينا سبب يدعونا إلى إظهار شيء من الارتياب. ولا أظنُّه يخفَى عليكِ مدى شيوع استشهاد أفراد أو جماعات بمُهمّة أو دعوة من الله، سواء هي مُهمّة عُدوانية أو حَميدة. بينما يكتفي غيرهم بالتَّشكّي من سماع 'أصوات' في رؤوسهم ويقصِدون طبيبًا نفسانيًا.

في جميع مراحل التاريخ استخدَمَ الأفرادُ والشعوبُ الادِّعاءات الدائرة حول 'العَجائب' و 'المُعجزات' لا لمجرّد التَّشبُّث بمَنْصِب وامتياز، بل أيضًا لتحريضِ أفعالِ قَمْعية ولا إنسانية. نعرفُ بالتأكيدِ أنّ الدّين قد يُلْهِم الناسَ الأعمالَ الوَرِعةَ والخَيْرية والغَيْرية. إلا أن كُلاً من التاريخ والصُّحف اليومية يبيّن لنا كيف يمكن إساءة استخدام المفاهيم الدّينية. وما يُرتَكَب من أعمال وحشية باسم الآلهةِ والبطارِكة والأسلاف قد لاحَقَ تاريخ الإنسان منذ الأزَل.

استطاع السيّدُ المسيح مَنْعَ جَمْعٍ من الرِّجال من رَجْم امرأةٍ ضُبِطَت وهي تزني. مع ذلك ما زال الرَجْم مستمرًا، وفي بعض البُلْدان يُطلَقُ سَراح المغتَصِب أما الأنثى الضَّحية فقد يُحْكَم عليها بالموت رَجْمًا.

مؤخَّرًا، أُعْدِم رجل في بلدٍ من الشَّرق الأوسط، وزُعِم من ضِمن تُهَمٍ أخرى، أنه حاول استخدام السّحر ليُفرِّق بين شخصيْن. وفي البلد نفسه حُكِم على امرأةٍ بقَطع رأسها لأنها لجأت إلى السّحر لتصيب رَجُلاً بالعُنَّة. من الشَّنيع طبعًا أن نجعل رَجُلاً ما عاجزًا جنسيًا. إلا أنه من المناسب هنا دَحْض التصوّر الذي يرى أن 'الشّعوذة' و 'السّحر' ظاهِرتان أصيلتان في العالَم. نعم، الشرُّ موجود، بيد أنه من المهمّ في نظري التشديد على أن ما يرتكِبَه الناس من شرّ إنما هو من صُنْع الناس، وليس من صُنْع الشياطين أو الأرواح الناقِمة.

إذا وَسَّـعنا مجال الرؤية، نجد أن الإيمانَ بالشَّعوذة، وبالتواصُل مع الأسلاف أو المَوْتى ما زال يُخَضِّب البشرية، وكذلك الإيمان بكامِلِ

السلسلة المُسمَاة الظواهِر الخارِقة. ونجد في بعض أنحاء إفريقية وآسيا وأميركا اللاتينية أن الاعتقاد بالعِرافَة والسِّحر الأسود وتأثير الأسلاف على السلوك الفردي بالغُ التَّفشّي بحيث إنه يُهَيمِن على حياة ملايين الناس. مع العِلم أن تصديقَ الخُرافات واسع الانتشار في الدُّول الصناعية أيضًا. وما زالت قِطاعات كبيرة من سُكّان أوروبا والولايات المتّحدة الأميركية تُصِرّ على الاعتقاد بوجود الأشباح، وباستحواذِ الأرواح الشريرة على الإنسان، وبإمكانية التواصُل مع الموتى، وكذلك بأكثر الظواهِر 'تمدُّنًا' مثل قِراءة البَخت وتوارُد الخواطِر والاستبْصار.

قلتُ إن المفاهيمَ الدِّينية يمكن أن 'يُساءَ استخدامها'، إلا أنه يمكن أيضًا أن نجِد جذورًا للتَّعذيب والأعمال الوحشية في النماذِج الدِّينية نفسها. فالتّعصُّب الذي يُواجَه به بعض الأعداء والزنادِقة أو حتى شعوب بحالِها ليس بلا سوابق تعود إلى مراجِع لاهُوتية. وبالنسبة إلى الأُصوليين — وهؤلاء يُعثَر عليهم في شتّى زوايا العالَم — قد يصبح المِعيار كلّ شيء مُدوَّن في الكتب المقدّسة القديمة والكتب السماوية المُنزلة. ولذلك نحن في حاجة إلى نَقْدٍ ديني مستمرٍّ. وعلى الرغم من أن هذا ما عاد يُمثِّل تهديدًا مباشرًا في مُعظم البُلْدان، ما زالت هناك استثناءات كثيرة، وهو أمر يجعل النَقْد الدّيني أكثر أهمية.

***

أنتِ هناك يا سولرن؟

نعم، أحتاجُ إلى أن ألتقطَ أنفاسي قبل أن أجيبَ يا ستاين. امنَحني لحظةً فقط.

سأنتظِر.

أنا معكَ في نقطتِكَ الأخيرة، وأتفِقُ تلقائيًا مع شَجبِكَ الآراءَ المُتصلِّبة والأُصولية. وعلى الرغم من أنني أجِدُ في الإنجيل الكثير مما يَشيعُ في نفسي المَسَرّة ويثير دهشتي، لا أشعرُ أنّ كلّ ما فيه من مقاطِع لَفظية هي من إملاء الربّ. وبالنسبة لي يُشَكِّل إيماني بصعود المسيح أحد النقاط الأساسية.

منذ فترةٍ ليست بطويلة اعتلَى نيلز بيتر سُلَّمه مجدَّدًا ووضع طبقة طِلاء *ثالثة* على إطار النافذة! في اللحظة الراهنة هو يقطفُ توت العُلَّيق. يبدو لي أنه يُبقي عينَه على الحديقة لمجرّد أنني جالسة هنا أكتب. في لحظة ما سألَني عمّا أكتبُهُ، فصارحتُه بالحقيقة. الآنَ، قلتُ له، أُرسِلُ رسالة إلكترونية إلى ستاين.

أما زال لديكَ ما تريد قولَه؟ أم أن النقدَ الدِّيني انتهى في الوقت الحاضر؟ أعتقدُ أنكَ قلتَ الكثير. يكفي ربما؟

ما زال لديَ نقطة أخيرة واحدة.

طَيّب، هيا يا ستاين إلِيَ بها. ليس لدينا رَقابة هنا على الأقلّ.

لا يخفَى عليكِ أن الأديان المُوحَاة تقوم على فكرة أن الحياة في هذا العالم ليسَت إلا مجرّد محطّة انتقالية إلى وجْهة سماوية. وتماشيًا مع هذه الفكرة، نجدُ أن الظروفَ الموجودة هنا والآن لا تَستَوفي حقَّها من الاهتمام الذي كان من المُحتَمل أن تحظَى به لو انتفَى وجود عالَم آخر أعظم وأكثر أصالة سيأتي لاحقًا.

ولأني عالِم مناخ، لا شيء يجعلني أسأم من تذكير الآخرين باستمرار بأننا قد لا نحصل على ما نتشبَّثُ به إلا هذا الكوكب. لكن الكثير من الناس يَحيون مع فكرة أنه على المدى الطويل لا تُشَكِّل رعاية كَوكبنا ووسائل الحياة المادّية فيه أهمية كبيرة، لأن قضاءَ الله وخَلاص المؤمنين هو في جميع الأحوال على قاب قَوْسين أو أدنَى. ولذلك لا ضَيْر في النَّظر إلى عالمنا الدُّنْيَوي على أنه مرحلَة متوسّطة، لا بل هناك فِرَقٌ من المؤمنين الذين يتطلّعون بتَوْق إلى انهيار المُحيط الحَيوي هنا، لأنهم يرَونه بشيرًا بالأيام الأخيرة وعودة المسيح. هكذا يُقال في الكتاب المقدّس!

بناءً على استطلاع أُجرِيَ لمصلحة قناة "السي إن إن"، يَعتَقِدُ ٥٩ بالمئة من الأميركان أن النُّبوءات الواردة في سِفْر الرؤيا ستتحَقَّق، وأن يوم القيامة سيأخذ مَجراه على نحو ما وصفته هذه الرُّؤى النّبوئية المُمعِنة في الخيال. والأمر لا يتوقَّفُ هنا. فثمّة الكثير من الوُعَّاظ والقساوسَة الذين يساعدون على بَذر بذور النِّزاعات الدُوَلِيّة، كي يُسهموا فعليًا في *تعجيل* عودة المسيح. ولا يُستَبْعَد أن يكون لأولئك المسيحيين الأُخْرَوِيين نفوذٌ عالي المستوى في البيت الأبيض، لأنّهم، مثل فَصيلةٍ مِن المَناجذ (حيوان الخُلْد)، يطلعون إلى السطح دائِمًا في فترات الانتخابات الرئاسية الأميركية.

خَوفي من هذه النُّبوءات الأُخْرَوية وأمثالها طفيف، كما تعلمين، وأنا واثقٌ من أن هذا حالكِ أيضًا. ما يُرعِبني حقًا هو ما ندعوه نُبوءات ذاتيّة التَّحقيق. ربما لن يكون هناك جنّة وأرض أخرى. ربما لن يكون هناك يوم حساب أخير فيه فِداء للمؤمنين. ربما هذه الأرض هي كلّ ما لدينا، هي بيتنا الوحيد ورابطنا الوحيد. في هذه الحالة قد لا يعادل أي شيء في أهميته أهمية المسؤولية المَنوطة بنا باعتبارنا القائمين على رعاية هذا الكَوكب وعلى جميع الأجناس التي عليه.

طبعًا، يقتَضي الواجبُ منّا الاعتناء بكَوكبنا يا ستاين. ولا أظنّ أنكَ من

السُّخفِ بحيث تلومُ المؤمِنين على التّدهور البيئي. ما أتصوّرُه شخصيّا هو أن العديد منّا ممّن وَقَرَ الإيمانُ في قلوبهم يُقَدِّرون الطبيعة أكثر بكثير من الذين لا يعتَنِقون أي مُعتَقَد من أي نوع. ألا ترى أن الاستهلاك المُفْرِط والطائش في أنحاء كبيرة من العالَم ما هو إلا من مظاهِر الماديّة الخام؟ النقيض المتطرِّف للتوَجُّه الروحي، إذا صحّ التعبير. كلّ شيء في وقتنا الحاضر يُجَزّ ويُغَيّر في محاولة للعثور على طرائق للحَدّ من تزايد غازات الاحتباس الحراري. الشيء الوحيد الذي لا يتجاسَر أحدٌ على طرحه للمناقشة هو ما لدينا من إمكانيات وفرص مُتاحَة لتخفيض نسبة الاستهلاك الجسيم؛ هذا الكوكتيل الأكثر فَتْكًا والذي ليس له مثيل في التاريخ، المؤلَّف من سِلَعٍ سَهلة المَنال، مُلَوِّثة للبيئة، وقابِلة للرمي. إننا نعيش في عَهْد تاريخي لا أستبعدُ أن ينتهي أحفادُنا إلى تسميته عصر المُستهلِك الفاشستي. ولدي قناعة بأن المَذهب الفِكري المادّي في زماننا حلَّ إلى حدٍّ كبير محلَّ الدّين.

قد تكونين مُحِقّة، وأنا أُذعِنُ لهذه النقطة برحابةِ صَدر، لأنني في الواقع لا أملكُ دليلاً واحدًا لأتَمَسّكَ بقولي إن رغبةَ الأشخاص الذين يُؤمِنون بالحياة الأخرى في تَحَمُّل مسؤوليتهم تجاه كوكبنا أقلّ من رغبة الذين يُخالِفونهم في مُعتقداتهم. إنما أحذِّرُ دائمًا من مَغَبَّة الاعتماد على فكرة أن 'الأرض والسماء ستَفْنَيان'، وأن هناك عالَمًا جديدًا بالانتظار يحمِل معه الخَلاص للمؤمنين.

أرى يا ستاين أنه ينبغي إجراء بعض التَّغييرات في الأجواء عاجِلاً – من ناحيتي في أدنى الأحوال. أظن أن الكَيْلَ قد طَفَح بالآخرين هنا منذ وقتٍ لا بأس به بعد أن عَزَلتُ نفسي عنهم اليوم. ولا بدّ لي من الإقرار بأن انعزالي كان تقريبًا عَلَنيًا وغير متحفظ. لعلّ وَصلَة الكهرباء الطويلة من البيت إلى

طاولة الحديقة فيها شيء من المُبالغة. إنه يومنا العائلي الأخير في هذا المكان، وقد مضى عليَ أنا وأنتَ ونحن نتبادلُ الرسائل أكثر من سِتّ ساعات. قطعتُها أنا فقط ببعض المُناورات نحو أحواض الزهور وبيَدي صفيحة الرَّيّ إلى أن أسمعَ طنين الحاسوب على الطاولة، حيث أسارِع إلى إلقاء الصفيحة وأنطلِقُ عائدة إلى محطّتي الصغيرة الأنيقة. نيلز بيتر ما عاد ينظرُ إلي مباشرة كلما مرّ بي، وصار يكتفي بِرَشْقي بنظرات جانبيّة.

قمتُ بِلَفٍّ الوصلة الكهربائية وأعَدتُها إلى سقيفة الأدوات. بطارية الحاسوب المَحمول شُحِنَت بالكامل، أما وِعاء الكرز ففرَغ عن آخره.

عَلَيَ أن أُصَحِّح الوَضْعَ هنا. أعلنتُ أنني سأضطلِع وحدي بمهمّة تحضير سمك القُدّ للعشاء. عاد الفتيان مع ثلاث سمكات قُدّ كبيرة في هذا الصباح، وبالكاد نظَرْتُ - أعني إلى السَّمك - وفي الوقت نفسه أظنّ أنني الوحيدة التي تعرف عن زجاجة "البرغاندي". واليوم سأجعلها ورقتي الصغيرة الرابِحة. أو ربما يجدر بي القول كفّارة ذنوبي. خبّأتُ الزجاجة في دُرجٍ تحت طبقات من المُلاءات القطنية، على نِيّة إخراجها مع وجبة سمك القُدّ في أمسيتنا الأخيرة.

يحلو لهما دائمًا الذّهاب إلى الصَّيد في يومنا الأخير، ولا يروقني حَمْل السَّمك إلى البلدة حتى مع توافر أكياس حِفظ المُثلجات المُرتّبة. فأهْلُ "بيرغن" لا يتنقّلون هنا وهناك بسياراتهم ومعهم سمك طازَج في الأكياس الحافظة. نُفَضّل أن نقصدَ السوق ونشتري سمك قُدّ حَيّ.

ثمّة فِكرة تجول في ذهني الآن. ألديكَ مانِع في أن تختتمَ جلستنا بإعطائي نُبْذة عمّا حدثَ في افتتاح معرض المناخ الجديد؟

في هذه الأثناء سأضَع غَلايَة سَلْق السَّمك على النار، وأُقشّرُ بضع حبّات من البطاطس المَحليّة، وأُعِدّ السَّلَطة وأُحضِّر الطاولة. بعد ذلك أعود لأقرأ

رسالتكَ. أما أنا فلن أكتبَ المزيد اليوم.
اتفقنا؟

*

بعدَ أن رحلْتِ أنتِ وزوجكِ بقيتُ لفترةٍ من الوقتِ أروح وأجيء على طول المَرْج الفسيح المقابِل للخليج. ثم صعدتُ إلى غرفتي وأخذتُ حمّامًا قبل أن أنزلَ إلى الصالة. هناك حيّيتُ بعض الضيوف قبل النَّدوة القصيرة عن ذوَبان الجليد والمناخ والبحوث القُطبية في "مقهى ميكيل". وبعد كوب من النَّبيذ الأبيض، ومُقدِّمة مُسلّية عن تاريخ الفندق والبلدة وسياحة الجليد، جلسنا إلى العشاء. شعرتُ في الواقع بالتكريم عندما جعلوني أتَصَدَّر المائدة.

حالما انتهينا من العشاء سعيتُ إلى طلبِ كأس "كالفادوس". كنتُ طَوال الوقت أُفكّر فيكِ – أو فينا بالأحرى، وفي رحلتنا بالسيارة إلى "نورماندي". أعلموني أنهم ما عادوا يقَدَّمون "الكالفادوس". عندئذٍ، بدا لي كما لو أنني تخيّلتُ وجوده في السابق، بدا لي كما لو أن أقبيتَهم لم تَحتوِ قطّ على "براندي تفاح" في أي زمن من الأزمان. فهل خَذَلتني ذاكِرتي؟ وفي حال كانت قضية "الكالفادوس" هذه ناجمة عن خلَلٍ في ذاكِرتي، فكيف لي أن أثقَ بأي شيء آخر خِلتُ أنني أتذَكَّره من تلك الأيام؟ امتنعتُ بإصرار عن "البراندي" الذي جاء تَقدمَةً من الفندق في هذه المناسبة – أعتقد أن الشابَّة صاحبة الفندق سمِعَت من بعض المعارِف أنني سألقي كلمةً على الغَداء في اليوم التالي – وبدلاً من "البراندي" طلبتُ نصف ليتر من الجِعَة و "فودكا" على حسابي.

كانت صالة الفندق تَضِجّ بكثير من الأصوات المُفعَمة بالحيوية، فصعدتُ باكِرًا إلى غرفتي وأويتُ إلى الفراش. أظنُّ أنني نمتُ على الفور. وليلتي لم تحفَل فقط بالجِعَة و"الفودكا"، بل قابلتُكِ ثانية، وذهبتُ إلى كوخ الراعي، ومررتُ بأجمة البتولا مرّة أخرى.

في الصباح التالي استيقظتُ باكِرًا على صياح النوارِس الحادّ، ونزلتُ لأتناول الفطور بينما هم يفتحون أبواب صالة الطعام. في ذلك الصباح أيضًا أخذتُ قهوتي إلى الشرفة. إلا أنكِ لم تكوني هناك في هذه المرّة. جلستُ على الشرفة وحدي تحت أشعّة شمس الصباح وأرهفتُ السَّمع إلى ورق شجر الزان النُّحاسي يوشوِش الريح. صاحَت النوارِس وخفقَت بأجنحتها فوق التَّعاونية وفوق رصيف ميناء البواخر القديم. وفي الزُّقاق البحري لَمحْتُ في زورق تجديف شخصًا يلبس ثيابًا خُضرًا يصطاد السمك.

تَمرّدَ شيء في داخلي على جوّ الصباح المفرِط في شاعريته.

بعد بضع ساعات اصْطُحِبنا إلى متحف الجليد. وهناك أُطْلِعنا على مُستَوى المَضيقِ البحري المُتَوقَّع في غضون عُقود قليلة إذا لم نجد حلاً لمشكلة تغيّر المناخ. ووجدتُني أتساءل ما إذا قد أخذوا بعَيْن الاعتبار كلّ تلك الرواسب التي تُجرَف من الجليد بلا انقطاع، حيث يؤدي هذا إلى زيادة تمدُّد مساحة الدِّلْتا وتوسّعها في لسان الخليج. اليوم هم يزرعون البطاطس في المَوْضِع الذي اتّخذَه "الفايكينغ" ميناءً لهم قبل ألف سنة!

عندما وصلنا إلى معرض المناخ وَزّعونا إلى مجموعات صغيرة، ودخلنا أولاً إلى مقصورة ضيّقة حيث عِشنا وسط الهدير والقَعقعة تجربة خَلْق الأرض قبل ٤,٦ بلايين سنة. وفي القِطاع الثاني الذي اقتادونا إليه عُرِض أمامنا ما بدَت عليه الحياة على الأرض قبل ما يُقارِب ٤٠ مليون سنة، ثم كيف أثّرَ العصر الجليدي الأخير على سطحها. بعد ذلك دخلنا إلى غرفة صغيرة حيث أُطْلِعنا على أسلوب عَمَل الدَّفيئة الطبيعية، وكيف تصبح ظروف الحياة على كَوكبنا غير مِضيافة في حال الغياب الكُلّي لمفعول الدَّفيئة. وفي الوقت نفسه بيّنوا لنا فَداحة تأثير النتائج الناجمة عن البيوت الزُّجاجية الصناعية على توازن الكربون الأصلي. وفي القِطاع الذي تَلاه رأينا ما ستبدو عليه الأرض في سنة ٢٠٤٠ وفي سنة ٢١٠٠ إذا لم نتّخِذ إجراءات جَذْرية الآن لتخفيض انبعاث غازات البيوت الزُّجاجية. وهذه، لم

تكن تجربة تشرَح الصَّدر كثيرًا. إنما ولحُسْنِ الحَظّ، أرُونا أيضًا ما يمكن أن تبدو عليه الأرض في ٢٠٤٠ و ٢١٠٠ إذا نجحنا في توحيد سُكّان الأرض ليتّخِذوا تدابير جَذْرية للحَدّ من انبعاث الغازات وكذلك لوَقْفِ كوارث قطع الأشجار وتدمير الغابات الاستوائية. أي أنه ما زال هناك أمل في أن يستعيدَ هذا الكوكب توازنه. في الغرفة الأخيرة كانوا يعرضون بعض الشرائح الرائعة لمواطِن الأرض المختلفة، مع التركيز بشكلٍ خاصّ على تنويعات كَوكبنا البيولوجية. كان "ديفيد اتنبرو" يتولّى مُهمّة التعليق. وبعد عَرْضِ صُوَر مُذهِلة لفئات فريدة من النباتات والحيوانات اختَتم بقوله، "... لم يَفُت الأوان بعد كي نتصرّفَ ونُجري تغييرات تضمَن حياة هذا الكَوكب. إنه بيتنا الوحيد..."

لمّا انتهَت مراسِم افتتاح المركز الرّسمية اقتادُونا إلى الحافِلات وأخذونا إلى كُتلة جليد "سوهيليبرين"، حيث هَيأوا مُسبقًا المكانَ لإقامة حفل استقبال في الهواء الطّلق، وتضمّنَ الحفلُ النبيذَ والفراولة والطّعام الخفيف. جهّزَه هناك موظفون من الفندق ونحن بَعدُ في متحف الجليد. وسرعان ما لمَحَتْني مالكةُ الفندق الأنيسة ثانيةً، وقد بدا واضحًا أنها كانت مشغولة جدًا في الأربع والعشرين ساعة السابقة. وأعتقد أنها عرفَت منذ البداية أنني هناك بسبب افتتاح معرض المناخ الجديد، وأنني سألقي كلمة قصيرة أثناء الغَداء في الفندق بعد بضع ساعات.

أقبَلَت نحوي وعلى وجهها ابتسامة دافِئة وودودة، وبطبيعة الحال انبَرَت تستعلِم عنكِ.

'أين زوجتكَ؟' بادرتني بالسؤال.

لم أستَطع تَخييبَ أملها يا سولرن. لم أستَطع. ولذلك قلتُ بلا تَلَكّؤ إنكِ اضطررتِ فجأة إلى مغادرة "فايرْلاند" والعودة إلى البيت في "بيرغن" لأسباب عائلية.

'الأوْلاد؟' استَفْسَرتْ.

'لا، خالة عجوز،' كَذَبْتُ.

عندئذٍ، وقَفَت في مكانها لثانيةٍ أو ثانيتين متردّدةً: لعلّها راحَت تتساءل بينها وبين نفسها إلى أي درجة يَحِقُّ لها الخَوض في أمور شخصية.

'وهل لكما أطفال؟' سألَت أخيرًا.

ماذا كان علي أن أقول؟ كنتُ قد انغمَستُ في الكذب، ولم أستطع التراجُع والاعتراف بأننا التقينا هناك صُدفة، بعد أن لم نَحْظ ولا حتى بفرصةٍ أن يلمحَ أحدنا الآخر منذ أكثر من ثلاثين سنة. حاولتُ أن يأتي ردّي مُبهمًا بقدر ما استطعتُ.

'اثنان،' أجَبتُ وأنا أهزُّ رأسي. ولا أرى أن ما قُلتُه يجانب الحقيقة كثيرًا، بالنَّظر إلى أن لكلّ منّا زوجًا من الأبناء.

غير أنها لم تكتَف بهذا القَدْر: أرادت أن تعرفَ المزيد عن أبنائنا. ولا أدري ما دافِعها إلى ذلك. فالتزَمْتُ من تلك اللحظة الحديثَ عن "بيرغن". لم آتِ قطّ على ذِكر ابنيّ، بل أشرتُ باختصار شديد إلى إنغريد ابنة التسعة عشر ربيعًا ويوناس ابن الستّ عشرة سنة - على الرغم من أنها معلومات عرفتُها قبل بضع ساعاتَ فقط. ما رأيتُه هو ضرورة التَّمَسّكِ بكذبةٍ واحدة، وهناك مَثَل يقول إن كنتَ كَذوبًا فكن ذَكورًا. باختصار تظاهرتُ بأنني زوجكِ.

من المؤكد أنها قامت بعملية حساب ذِهنية سريعة لأنها ما لبثت أن هتَفَت،'حقًا؟ إذًا أمضيتما بضع سنوات معًا قبل أن تُنجبا؟'

قلتُ في سِرّي أكانَ يَحدُوكِ الأملُ في أن تسمعَي اعترافًا مني بأننا مهّدنا الطريق لطفلٍ هنا في فندق "مُنْدال" في تلك الفترة الماضية ونحن ما زلنا بَعدُ في رَيْعان الشَّباب؟

راوغتُ وأشرتُ إلى جبل الجليد قائلاً، 'كان أضخم بكثير في تلك الأيام.'

هَزّت رأسها وضحكَت، ولم أعرف سبب ضحكها. ثم قالت، 'سرّني أن أراكما ثانية!'

تسارعَت الأفكار في رأسي. وأظنّ أنها تَمحورت حول اختلاف حياتينا وانفصالهما. وفكّرتُ أيضًا في رصيف ميناء العبارات في"ريفْسنيس"، وسيارتَي الشُّرطة في "لايْكانْغَر"، وأجمة البتولا في "مُندلْسدال".

أومأتُ برأسي في اتجاه جبل الجليد ثانيةً.

'أنا في الواقع أكثر قلقًا على جبال الجليد في الهملايا،' قلتُ. 'هناك آلاف منها ينحَسِر عنها الجليد أيضًا، وهي تُزوِّد عديدًا من مئات ملايين الناس بالماء.'

وافقتُ على مَلءَ كأسي مرّة ثانية، واستدرتُ على أعقابي فورًا لأتجنّبَ اضطراري إلى الردِّ على أسئلة أخرى، ثم سلكتُ بضع خطوات نزولاً إلى جانب الجدول الفيروزي. تمشّيتُ وفكّرتُ في الكتاب الذي حملتِهِ إلى غرفتنا في ذلك المساء، والذي اختلستِهِ لاحقًا وأخذتهِ إلى البيت في "أوسلو". بعد لقائنا مع 'مَرأة العِنَبية' أصبح ذلك الكتاب السَّيف القاطِع الذي فصلَنا. لو لم تصادفي ذلك الكتاب، لربما بقينا نعيش معًا إلى يومنا هذا. حسنًا، ألا يخطرُ ذلك على بالكِ؟

كان في وِسْعنا من غير ريب التعامُل مع موضوع 'مَرأة العِنَبية'. لولا أنكِ ما لبثتِ أن لاءَمْتِها في غُضون أيام في سِياقٍ أوسع بكثير جدًا.

خواطرُ مُتَشعِّبة جدًا تحتَشِدُ في رأسي الساعةَ يا ستاين، بيد أنه عليَ الآن إنهاء حوارنا. سأُطفئ الجِهاز، وسأُكاتِبكَ من "بيرغن" في الأيام القليلة القادِمة.

أنا الآن جالسةٌ إلى مكتبي أمام النافذة في "سكانسن"، أسرّحُ النظر عبر "بيرغن". الجوُّ بديع هنا، ويكاد يكون خريفيًا. لاحظتُ مؤخرًا أن الصُّفرة قد كَسَت بعض أوراق الأشجار لأول مرّة في هذه السنة، وأن النهار بدأ يميل إلى القِصَر.

أنا في الغرفة التي كنتُ أشغلها في نشأتي وصِباي. ومع أنها غَدت غرفة نوم ابنتي إنغريد منذ أن بلَغَت الثالثة من العمر، استرجَعْتُها بعد انتقالِ إنغريد قبل بضعة أشهر لتقيمَ مع فتيات أخريات في شقّة مُشتَركة، وباشرتُ العمل عليها فورًا. نزعتُ السّجاد القديم الذي يغطي الأرض من الجِدار إلى الجِدار، لمّعتُ البلاط وطليتُ الجدران بلونٍ أصفر باهِت. أعدتُ تحويل تلك الغرفة إلى عَريني الصغير ثانية. أدعوها المكتبة، غير أن نيلز بيتر ينظرُ إليها كما لو أنها غرفتي الخاصّة، وهذا كرمُ أخلاقٍ منه.

كان ردُّ فِعل إنغريد على ما فعلْتُه مُحَبَّبًا للغاية. إذ عندما جاءَت بصحبة صديقةٍ لتأخذ آخر ما بقي من أغراضها – تركَت هنا بعض صناديق الملابس وعلّاقات الثياب – اندفعَت تعانقني فجأة عناقًا حارًا وشكرَتني لأنني أعَرتُها هذه الغرفة. شكرَتني على إعارتِها غرفةً شغَلَتْها منذ أن كانت في الثالثة! طبعًا عرَفَت دائمًا أنها لطالما كانت غرفة نومي سَواء في طفولتي أو في صباي.

عِشْتُ في هذه الشّقّة طَوال حياتي ما عدا خمس سنوات.

عندما ركبتُ القطار السَّريع في عصر ذلك اليوم، ركبتُه وأنا أبكي. وهل

تراكَ تعتقِد أنني كنتُ أفعلُ شيئًا آخر لما بلغنا "هاوجاست"؟ قبل أن يصلَ القطار إلى "فينسه" جلس جامِع التّذاكِر إلى جانبي وحاول التَّخفيف عني. لم أقُل كلمة واحدة، وهو لم يسألني شيئًا، اكتفى فقط بالتَّخفيف عني. وبعد أن تركَني ليلوّحَ بعلَمه الأخضر في "مِرْدال"، عاد مجدَّدًا. وحينما رأى أنني ما زلت أبكي قدّم لي فنجان شاي، لم يقدّم لي الشاي بتلك الأكواب الورَقية التي نشتريها عادةً من العربات، بل بفنجان لائِق. بعدئذٍ، نجحتُ في التَّحامُل على نفسي لأرفعَ نظري إليه وأبتسم. تسنّى لي أن أشكرَه، إلا أنني لم أستطع إخباره عن العَصر الحجري.

كنتُ في طريقي إلى البيت. في طريقي إلى أمّي وأبي. وهذا هو الشيء الوحيد الذي بدا لي مؤكَّدًا آنذاك. لم أتكلَّم معهما بالهاتف لأُعلِمَهما بقدومي. لم أستطع إِعمال ذهني في ما هو أكثر من الوصول إلى البيت. وكان عليهما أن يتقبّلاني كما أنا.

وهكذا عُدتُ إلى غرفتي من جديد. وعندما قابلتُ نيلز بيتر بعد بضع سنوات كان أبي وأمّي يوسِّعان بيت جدّتي القديم في "إِيتر سُولا"، الجزيرة التي في لسان الخليج. وفي تلك الأثناء بدأ أبي 'يستنفِدُ طاقَته' كما عبَّر هو عن الأمر، وفي النهاية باع الوكالة. وأمّنَ له ذلك معيشةً مَيسورة. 'الحياة في بيرغن جيّدة يا سولرن'، قال يومًا متفكِّرًا، 'مع ذلك لا أرى المدينة مكانًا يصلُح لأن يموتَ فيه المرءُ.

عاشَ هو وأمي ما يزيد عن عشرين سنة في "كُولغْروف"، ولا ريب في أنه مُحِق في ما قاله. مات أبي فجأة بلا أي سابق إنذار قبل ثلاث سنوات. حدَث هذا وهو مُسترخٍ في أريكته المُجنَّحة وبيده قَدَحٌ فيه مشروب، قدحٌ قديمٌ موروثٌ عن العائلة، وقد سقطَ على الأرض وتهشَّم في طَرْفَة عَيْنٍ بعد موته. وكما أخبرتُكَ تُوُفِّيَت أمّي في الشِّتاء الماضي. لم يكن لديها أحد غيري. وقد جالستُها وأمسكتُ يدها في تلك الأثناء.

عندما قصدتُ "أوسلو" للدراسة، كنتُ بِعُمر إنغريد اليوم بالضبط. التفكير في

هذا يثير في النّفْس الدهشة. التفكير في أننا كنّا جدّ فَتِيّين!

لأننا التقينا بعد أسبوعين فقط من قدومي إلى المدينة. جرى هذا اللقاء في إثر مُحاضرةٍ في مبنى "شاتو نوف" – أردتَ أن تشعلَ سيجارتكَ، وربّما اتّخذتَ السيجارةَ عذرًا فَحَسْب، إلا أننا من بعد ذلك بقينا مُتلازمين دائمًا. وفي شهر تشرين الأول انتقلنا لنعيش معًا في الشّقّة الصغيرة في "كرينغشْو". ومرّت علينا أحيانٌ شعرنا فيها أن زملاءنا من الطَّلبة في الجامعة ينظرون إلينا بعين الحسد. كنّا شيئًا متفرّدًا كلّ التفرّد. كنّا سعيدين جدًا!

كان من البَديهي أن أبكي وأنا على مَتن القطار. بكيتُ على امتداد طريق عودتي إلى البيت في "بيرغن". عجزتُ بأيِ حال من الأحوال عن استيعاب ما جرى. عرفتُ أن أفكارنا تعارضَت فجأة، أما ما استغلَق عليَ فهمه فهو لماذا لا نستطيعُ أن نتابعَ حياتنا مع هذا التعارُض. فنحن في نهاية المَطاف لم نكن الرّفيقين الوحيدين في العالَم اللذيْن لا تتوافَق مُعتقَداتهما. أم تراكَ مِنَ الناس الذين يرون أن شخصًا مؤمِنًا وآخر غير مؤمِن لا يمكنهما الإبقاء على علاقتهما ولا الاستمرار معًا تحت سقف واحد؟

لَكَم كرِهْتَ تلك الكتب يا ستاين. خصوصًا أحدها. لكم ازدريتَه، ولكَم ازدريتني لأنني أقرأه. أم تراكَ ما اتّخذتَ ذلك الموقف إلا لشعورِكَ بالغيرة؟ أوليتُكَ اهتمامي كلّه على مدى خمس سنوات. ما فكّرتُ خلالها في أي شيء سواكَ وسوانا. وبعد لقائنا مع مَرأة العِنَبية، وبعد أن شرعتُ أقرأ الكتاب الذي أخذتُه معي، واعتبرْتُ أنني استعرتُهُ من الفندق، بدأتُ في تطوير معتقَدٍ يَنْحُو إلى التّسليم بوجودِ حياة أخرى قادِمة. أما كان في وسْعكَ على الأقلّ أن تدعَني أحتفظُ بذلك الإيمان؟

مَنْ أنتَ حقًا؟ أعني من أنتَ اليوم. سألتكَ عمّا تَعتَنقه من مُعتقَدات، فزوّدتني بتفسير عِلْمي مُسهب، مِثالي في تناغمه مع أخلاقيات الكُليّة التي تعمل فيها. فأنتَ لستَ مُنْشَقًّا عنها كما يبدو من مجيئكَ على ذِكْرِ الزواحِف الشبيهة

بالثّدييات (ثيرابْسيدس) والأُسترالوبيثُكس إلخ.. إلخ. ثم عُدتُ وطرحتُ السؤال مرّةً أخرى، والجواب الوحيد الذي حصلتُ عليه كان عن كلّ ما *ليس مِن مُعتَقداتِكَ*. ومع ذلك لن أستسلِمَ يا ستاين. تعرف ما أنا عليه من عِناد، وما أريده هو العودة بكَ إلى النقطة التي بدأنا منها معًا.

قبل أن أقولَ المزيد عمّا أؤمِن به أنا نفسي، أريدُ الرجوع بكَ إلى ذلك الشعور الجَذِل تجاه الحياة الذي ما انفكّ يعتَمِل فينا آنذاك، والذي في الوقت نفسه لم يستطع أي منّا ربطَه ولا بِشَرارة أملٍ واحدة. إنني أسألُكَ يا ستاين، ما العالَم؟ ما الإنسان؟ وما فحوى الأسطورة الكَوْنية هذه التي نطفُو في أرجائها مثل لآلئ سحرية صغيرة من الوَعي؟ من النَّفْس والعقل والرُّوح. ألا ترى أن في وسْعك استشفاف شعاع أمل واحد للأرواح التي على شاكِلَتنا؟

مرحبًا بكِ مُجدَّدًا يا سولرن!

آلَمَني بلا شكّ ما قرأْتُه عن رحلة عودتكِ إلى "بيرغن".

وتراودني رغبةٌ قوية أيضًا في أن أصيحَ أصبتِ في النقطة الأخيرة التي وضعتِ إصبعكِ عليها. لربما *أعطيتُكِ* أجوبةً رَكيكة للأسئلة الجسيمة التي طَرَحْتِ. ستلاحظين أنني على مرِّ السنين طوّرتُ قَدْرًا معيّنًا من النَّظر المحدود أو ما يُسمى الرؤية النَفَقِية بسبب كلّ ما قمتُ به من بحوث ودراسات. على المرء أن يلتزمَ الحقائقَ. لا مانِع من تقديم النَّظريات والفَرَضيات، إنما حتى هذه ينبغي لها أن تُبنَى على شيء نعتقِدُ أننا نعرف عنه.

لعلّ كلمة "المُعتَقَد" بحدِّ ذاتها هي التي تجعلني أنحرفُ عن مساري. إنها ليست من مُفردات قاموسي. وأجدُ أن الأسهلَ لي التحدّث عن *الحَدْس*. فما لدي من حَدْس هو أكثر مما لدي من مُعتَقَدات، خصوصًا ربما عندما نتكلّم على الوَعي.

اكتُب عن هذا يا ستاين. أرى أن كلمة الحَدْس جيّدةٌ أيضًا. يمكنكَ على سبيل المثال أن تروي لي الحُلْمَ الذي راودكَ الليلة السابقة على لقائنا ثانية. ألم تُخبرني بأنه كان حلْمًا كونيًا؟

صحيحٌ ما تقولينه، وهو ما زال حَيًا في داخلي. بل أشعر كما لو أنني اختبرتُ حقًا ما أخذَ مجراه في ذلك الحُلْم. نعم، يتهَيأ لي أنني كنتُ في تلك السفينة الفضائية بالفعل..

طَيِّب يا ستاين، لِنَسْمَع تفاصيله إذًا.

لكن اليوم السابق على الحُلْم دُمِغَ كلّه في ذاكِرتي، اليوم السابق على لقائي بكِ. ولا أستطيع أن أفصِلَ ذلك اليوم فصلاً تامًا عن الحُلْم الذي راوَدني بسببه، مع أني لم أفعل شيئًا أكثر من أنني جلستُ في القطارات والحافِلات وجُبْتُ آفاق الأرض. لذا أرى أنه يجدُر بي حقًا البَدء من هناك.

لا أمانِعُ أن تبدأ مِن حيث تشاء يا ستاين، شَرْط ألا تهمِل الحُلْم. تأنَّى وخُذ ما تحتاج إليه من وقت، فأنا لن تُتاح لي العودة إليكَ قبل مساء الغَد لعدّة أسباب. وأهمّها عدم شعوري بالارتياح للجلوس هنا والانْكِباب على الكتابة ونيلز بيتر في البيت. ولا أعني بهذا أنه لا يستطيع تحمّل الأمر، بل لأنني لا أتقبّلُ فكرة أنه قابع هنا يسمعُني أنقُرُ على لوحة مفاتيح الحاسوب. أنا بنفسي لا يروقني سماع نَقْر الناس على لوحات المفاتيح هذه. ينتابني النُفور عَينه الذي أشعر به كلّما اضطررتُ إلى سماع مُكالمات الناس الهاتفية في الحافِلات

والقطارات على سبيل المثال، أو عند دربٍ في الغابة. إنه شيء مسبّبٌ للإحباط والإحراج. ثم إن الغَد هو يوم إعداد خُطَط المعلمين، وأنا في الحقيقة أتطلّع بشوقٍ كبير إليه، فالبدء ثانيةً أمر جيّد.

هذا حَسَن، وما تقترحينه يناسبني، لأنني سأحتاج إلى بعض الوقت. ولا أستطيع أن أحدِّدَ لكِ متى يمكنني العودة إليكِ.

خُذ وقتكَ يا ستاين، فأنا باقية هنا.

أسمعُهُ الآن يتنَحنح، لذلك سأسجّل خروجي من البريد الإلكتروني فورًا. أظنُّ أني سأقترحُ تناول قَدح نبيذ. سأدعوه قَلَنْسُوة النوم، وَفْق مصطلحاتنا العائلية الخاصّة.

أشعلَ نار المدفأة للمرّة الأولى في هذه السنة، ولا ريب في أن جوَّ البيت سيكون مُريحًا.

٥

يوم الثلاثاء ١٧ تموز ٢٠٠٧. استيقظتُ مع انبلاج الفجر على هدير عاصفةٍ رعدية قويّة. كان يومًا رماديًا: الغيومُ الرّصاصية الثقيلة تُجَلِّل "أوسلو". وكان عليَّ أن أركبَ القطار إلى "غول"، ثم الحافلة من هناك إلى "ليردال" و "فيارْلاند"، وهي رحلة تستغرق تقريبًا تسع ساعات. لم أحبِّذ يومًا السفر وحدي بسيارتي، وغالبًا ما فضّلتُ اللجوءَ إلى النَّقل العام حيث تُتاح لي فرصة الجلوس والقراءة والاسترخاء كما يحلُو لي.

أوصلتني بيريت إلى محطة "ليساكَر" ذلك الصباح، لأن عليها في جميع الأحوال الذّهاب إلى أبيها ببعض الملابس النظيفة. بقيتُ بضع دقائق على الرصيف بانتظارِ قدوم قطار "بيرغن" في الساعة ٨,٢١. هناك أيضًا عاد الرعد يقصِف قصفًا متقطّعًا: كان حقًّا صباحًا صيفيًا كئيبًا. لم يتزل المطر، وأثارت الغيوم الفَحمية في النَّفس انطِباعًا بحلولِ الليل، وعلى الرغم من تقدُّمِ فترة النَّهار في ذلك الوقت من السنة لمحتُ البرقَ كلّما خرَقَ صفحة السماء. وأخيرًا أقبلَ قطار "بيرغن" إلى المحطّة، وما لبثتُ أن عثرتُ على مقعدي – تحقّقتُ كالعادة وأنا أحجزه من مجاورتِه للنافذة – كان المقعد رقم ٣٠ في العَربة ٥.

سرعان ما أصبحنا في "درامين"، وواصلَت الرحلة مسيرتَها إلى الشمال متتبّعةً خطَّ نهر "درامِنسألفا" باتجاه "فيكرسونْد" و "هونيفوس". بَقِيَت مُلاءة الغَمام منخفِضة، ولفَّ السَّديم مُعظَم قمم الأشجار، ولكن مجال الرؤية بدا جيدًا تحت مترين أو ثلاثة من السُّحب الواطِئة. كان النهر يفيض، والماء يحجُب جذوع الأشجار عند حافة خليج "تيري" أيضًا، وغمر الماءُ كذلك بعض محطّات السفُن. هكذا حدثَ عدّة مرّات في هذا الصيف، صيف لا ريب في أن الكثير من المزارعين يعتبره فاجِعًا، لأن أضرار

الفيضانات شمَلَت مناطق واسعة من البلاد، خصوصًا على امتداد نهر "درامِنسألفا"، ما أدّى إلى تَلَفِ مجموعات كبيرة من المحاصيل.

منذ اللحظة الأولى التي جلستُ فيها هناك وجدتُني في حالةِ تركيز عميق، ولا أعرف إن كان لهذا علاقة بالمناخ السائِد. شعرتُ فجأة بأنني أكثر تنبُّهًا من المعتاد، وتقريبًا أَحَدُّ بَصيرةً من أي وقت مضى. شعرتُ بأنني حاضِر بقوّةٍ في العربة المطلية بالأصفر فيما القطار يسارع إلى شقٍّ طريقه وسط الأرض التي حطّ عليها السَّدِيم. وسألتُ نفسي، ما الوَعي؟ ما الذاكِرة، وما التدبُّر؟ ما ماهية أن 'نتذكّر' أو 'ننسَى' شيئًا؟ ما معنى أن أجلسَ هنا هكذا وأفكِّر، وأفكِّر في ما معنى أن *أفكِّر*؟ والأهمّ من ذلك كلّه، هل الوَعي صُدفة كَونية؟ هل هو من قَبيل الصُّدفة الخالِصة فَحَسْب أن يمتلكَ الكَون حاليًا وَعيًا بذاته وبتطوّرِه؟ أم أن الوَعي خاصِّية أصيلة لطبيعة هذا الكَون؟

إنها ليسَت المرّة الأولى التي أنساقُ فيها إلى التأمُّل مليًا في هذا السؤال الجَوهري والفطري. بل أحيانًا طرَحْتُ السؤال نفسه على علماء الأحياء وعلماء الفيزياء الفلكية. وعادةً، يظهر ردُّ فعلهم الأوَّلي في مواجهتي برفضِ مَنطقية السؤال أو التحفُّظ تجاهه. وغالبًا ما بدوا مُحْرَجين نيابةً عني، بل لطالما اعتبَرَ العديد منهم أن طرحيَ أسئلة من هذا النوع – حتى بصفتي عالِمًا – إنما هي سذاجة لا تُغْتَفر. وفي حال ألححتُ في السؤال مشدِّدًا على أنني لا أسعَى إلا إلى إجابة حَدْسية، أتاني الجواب مؤيِّدًا عمومًا. نعم، يقولون مؤكّدين، الوَعي بوصفِهِ ظاهِرة ليسَ أكثر من صُدفة كَونية.

ليس لدَى الكون نيَّة كامِنة ولا هدف ولا جوهر، وهذا عمومًا يُنْظَر إليه على أنه من الافتراضات البديهية أو المُسلّمات. أما نشوء الحياة هنا، وتطوير المُحيط الحَيوي بعدئذٍ لِما تُسمّينه 'لآلئ سحرية من الوَعي'، فلا يتعدّى كَونه نتيجة صُدفةٍ خالِصة. أو كما عبَّرَ عنه البيولوجي الفرنسي

الحائِز على جائزة نوبل "جاك مونو" بقوله: ‘لم يكن الكَون يَنْبضُ بالحياة، ولا المُحيطُ الحَيوي بالبشرية. نحن مُجرّد رَقْم جاء صُدفةً، مثل أَي رقم على مائدة قِمار في مونتِي كارلو.’

يرفضُ "مونو" تصنيفَ الحياة باعتبارها ظاهرة كَونية مُهمّة أو ضرورية في الكلمات التالية: ‘أشَدِّدُ على أن المُحيط الحَيوي لا يشتَمل على فِئة موجودات أو فِئة ظواهر يمكن التنبُّؤ بها واستخلاصها من المبادئ الأوَّلية، لكنه يشكّل في مجموعه حادثة خاصة، حادثة مع أنها متوافِقة حُكمًا مع هذه المبادئ ويمكن تفسيرها من خلالها، يتعذّر استنباطها منها، وبالتالي لا يمكن التنبُّؤ بها إجمالاً.’

هذه إفاضة مفيدة. وللمرء بلا شكّ أن يأخذَ جَزْم "مونو" القاطِع بمَدلوله الظّاهري – مع أنه سيكَون من الصعب أن نشيرَ إلى أي مثال يُثبتُ دِقّته. ولا بدّ من أن عِبارة ‘لا يمكن التنبُّؤ بها’ في هذا السِّياق تعنيَ أن الظواهر التي نشير إليها فردية جدًا - وبالتالي مَحَليّة جدًا – بحيث إنها تقفُ إلى حدٍّ كبير على تُخوم القوانين الطبيعية.

وهذا ليس نَهجي الفِكري في الحقيقة. فأنا، حتى منذ أيامنا معًا يا سولرن لطالما تملَّكني شعور حَدْسي بأن *الخاصّية* الأقرب إلى طبيعة العالَم هي القول بنشوءِ الحياة والوَعي هنا. أي ربما هناك مُنْشَقٌّ في داخلي على الرغم من كلّ شَيء، إن لم يكن بصفتي واحدًا من الذين يشغَلون هذا العالَم، فعلى الأقلّ بصفتي باحثًا في كُليّة الرياضيات وعلوم الطبيعة. أغلب الفلكيين والفيزيائيين والبيولوجيين الذين قابلتُ يُصرّون في الواقع على شيء مناقِض: لا يمكن تعقُّب الحياة ولا الوَعي باعتبارهما ناتجًا ‘أساسيًا’ أو ‘ضروريًا’ في الحالة البِدائية الهامِدة.

يبدو في الحقيقة أن النَّموذجَ المعْرفي للعِلْم الحديث بحدٍّ ذاته يفترض أن الذرَّات والجُسَيمات دون الذرّية - أي النجوم والمَجرّات - والمادّة المُظلِمة

والثقوب السوداء هي سِمات أساسية دالّة على واقِعية الكَون أكثر من الحياة والوَعي، اللذيْن، وفْقًا لهذا النوع من العِلْم الاختزالي، لا يمثّلان أي شيء أكثر من صُدفة عشوائية مَحْض، وهما بالتالي *ليسا مظاهِر مهمّة* للطبيعة. ما يعني أن ظهور النُّجوم والكواكب هو النتيجة المباشرة والضرورية للانفجار العظيم. أما ظهور الحياة والوَعي التكميلي فهو لم يحصل بمُقْتضى أي شيء آخر، ولا يتعدَّى أن يكون ناجِمًا عن صُدفة خالِصة، حادث عَرَضي مُرَوّع، شُذوذ كَوْني.

كنتُ مُبْحِرًا في هذا النوع من الأفكار عندما دخلَ القطار محطة "هونيفوس". ظهَرَت رسالة على شاشةٍ صغيرة فوق الباب عند نهاية العربة تقول: *هونيفوس ٩٦ مترًا فوق مستوى البحر*. وفي المحطّة اندفَعَ مسافِران إلى الخارج وأشعلا سيجارتيهما.

لم تكنِ الدنيا تُمطِر، غير أن السماء رخَمَت متثاقِلةً على مشارف الأرض مُهدّدةً بالانفجار في أي لحظة. ثم تصاعَد صوت صَفّارة، وتحرّكَ القطار مارًّا بحقولٍ صفراء وخضراء من جهة، وبسفوح تِلال مُشَجَّرة من الجهة الأخرى. وفوق أشجار الصنوبر تدافَعَت نُدَفٌ داكنة من السُّحب.

حاولتُ أن أستحضرَ في ذهني كيف بدأ كلّ شيء. *حاولتُ أن أستحضر في ذهني تاريخ الكَون.*

وَلَّدَت الكواركات (الكوارك هو أصغَر جسم مَعروف في بِناء المادّة، وأحد المُكوّنين الأساسيين فيها) البروتونات والنِّيوترونات بعد بَضع مَيكروثوانٍ من الانفجار الكبير. وتلاها في غُضون فترة لا تكاد تُذْكَر ظهور نَوَى الهَيدروجين ونَوَى الهليوم. أما الذرّات الصحيحة ذات التوزيع الإلكتروني المُكْتَمِل فلم تتطوَّر إلا بعد مئات آلاف السنوات، وبقيت مُقتصِرةً تقريبًا على الهَيدروجين والهِليوم، وهذه الذرّات الأثقَل 'خُبِزَت' على الأرجح أو

'طُهِيت معًا' في جِيل النجوم الأول، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا انتَشَرت لتُخصِّب الكون. نعم 'تخصّب'، واختياري المُتَعَمَّد لهذه الكلمة يُنْبِئ عن انحيازي الصريح. مع الذرّات الأثقَل نبدأ طبعًا في الاقتراب من ينبوعِ كل من الحياة وأنفسنا، لأننا مُؤلَّفون من تلك الذرّات، مثلنا مِثل الكَوكب الذي نعيش فيه.

لا يوجد أي شيء محلّي أو خصوصي يتعلّق بـــكُتَل 'ذرّاتِنا' أو بقُدْرتها على الانصهار. فالذرّات التي نتألّفُ منها موجودة في جميع أرجاء الكَون. ولذا ينبغي حتمًا القول إنها من أساسيات طبيعة هذا الكَون. وبقدر ما مكّنتنا فيزياء الجسيْمات - وتُدعَى أيضًا فيزياء الطاقة العالية - مؤخَّرًا من تشكيل فكرة عن دقائِق الكَوْن الأولى، لا ريب في أنها قادرة أيضًا على أن تفسِّر لنا بدقّة لماذا يتحتَّم أن تكون هذه الذرّات جُزءًا من المُرَكّبات الكيميائية التي نُسمّيها جُزَيئات.

أما الأشياء التي تتألَّف منها الحياة كلّها والتي نسمّيها الجُزيئات العِملاقة، فهي أكثر تعقيدًا، ولكنها بالمقاييس الكَونية أندَر بكثير. فالجُزَيئات العِملاقة جَذرية لجميع الكائِنات الحَيَّة على كَوكبنا، وذلك مثل البروتينات والأحماض النووية ذاتية التكاثر "الدي إن إي" و "الأر إن إي"، وهي الأحماض التي تضبِطُ تشَكُّل البروتينات وتوجد في المادّة الوراثية لكلّ كائِن حَيّ. والعامِل المشترك بين جميع أشكال الحياة على الأرض هو أنها مكوّنَة من مُرَكّبات الكربون وتلك الطاقة (الشمس)، من غير أن نغفلَ ما للماءِ الجاري من دوْر حاسم.

ما عاد التساؤل عن كيفية تكوّن جُزَيئات الحياة العِملاقة على الأرض قبل ما يفوق أربعة بلايين سنة مُحاطًا بكثير من الغموض. وعلى الرغم من بقاء بعض الألغاز الصغيرة، استطاعت الكيمياء الحَيوية أن تُرينا نظريًا وعن طريق التجربة العملية أيضًا كيف يمكن أن تكون أُسُس الحياة الأوَّلية قد

تشكّلت على كَوكبنا الفَتِيّ في جو خال تمامًا من الأوكسجين. وأنه فقط، بعد عملية التَّمثيل الضَّوئي في النباًت، اكتسب هذا الكَوكبُ غلافًا جويًا غنيًا بالأوكسجين، إضافة إلى طبقة الأوزون التي حمَت الحياة عليه من الطاقة الكَونية المُشِعَّة.

بِقَدْر ما يرى العِلْم أنه مؤهَّل ليفسّرَ كيف بدأت الحياة على الأرض - من خَلْطة جُزَيئات عِملاقة بدائية على سبيل المثال، أي من موادّ الحياة الأوّلية - يعترف في الوقت نَفسه بأن تطوّرَ الحياة في خَلْطة بدائية كتلك مُمكِن. فكلّ ما يحدث في الطبيعة يحدث لسبب ما. وما دام الأمر كذلك، فلماذا لا يكون هذا هو الحال أيضا مع خَلْق الحيًاة؟

نعرفُ اليوم أن الكثير من لَبنات أو أُسُس الحياة الأوَّلية يمكن إنتاجها صناعيًا من مُركّبات كيميائية غير معقَّدة. فالتمييز الصارِم بين ما كان يُسمّى كيمياء عُضوية وكيمياء غير عُضوية ما عاد له وجود. ثم إن الجُزَيئات التي تُشكِّل الحياة اكتُشِفت في الفضاء أيضًا. وفي فترة قريبة جدًا تبيَّن أن المُرَكّبات العُضوية مثل الكحول و حَمْض النَّمليك موجودة في السَّديم البَيْنَجمي (بين النجوم). ومؤخرًا أيضًا، ثَبَت وجود حَمْض الغليسين الأميني في الفضاء، حيث اكتُشِفَت هذه الجُزَيئات في ذيول المُذنَّبات وفي المَجرّات التي تبعد بلايين السنوات الضوئية عن دَرب التَّبانة. ونحن نعلَم أن الكيمياء الفلكية هي من فروع العلم التي ما زالت في مراحلها الأولى.

قد لا تكون الحياة - أو جُزَيئات الحياة على كوكبنا - قد تشكّلتا هنا بالضرورة. وربما جاءتا كلتاهما من الفضاء الخارجي إلى هنا بوساطة مُذنَّب على سبيل المثال. بل في الحقيقة ثمّة ما يرجِّحُ أن يكون مُعظم ماء كَوكبنا قد جُلِب إليه عن طريق أحد المُذنَّبات. وماء كذاك لم يكن بالضرورة 'نقيًا'، ناهَيْكِ عن كَوْنه مُعقّمًا.

كنتُ جالسًا في عالَم الواقع ألخِّصُ تاريخ الكَون. الأمورُ التي أخذَت مجراها فيه مميّزة، ومميّز أيضًا أن يتاحَ لي الجلوس حيث أنا وأقومَ مؤقّتًا بأداء

دَوْر ذاكِرة هذه الحكاية الاستثنائية. كنتُ لِحُسن حظّي أجلس مع اتجاه الرحلة - أنا عادةً أطلبُ هذا عندما أحجزُ مقعدًا - ولبرهة سرّحتُ نظري في بحيرة "كروديرين" عن يساري. فوق تلك البحيرة تدلّت قِطع الغَمام الصوفية كأنها مناطيد "زبلن" الهائلة، ومن فوق تلك المناطيد انعكسَت في المياه السماءُ المُكْفَهِرَّة المظلِمة جاعلةً "كروديرين" مُوحشة ومُعتمة مثل حالِها في الخريف. ولم يسقط المطر.

إن عالَمَنا في جميع الأحوال، هو المكان الوحيد في الكون بأسرِهِ الذي نعرف منه على وجه اليقين أن الحياة كائِنة. وأوّل دليلٍ على وجود كواكب خارج نظامِنا الشَّمسي لم يظهر إلا قبل بضع سنواتٍ فقط. ويعود سبب تأخُّر هذا الاكتشاف إلى عَجز التِّقنيات السابقة عن رَصْد الكواكب الواقعة خارج المجموعة الشَّمسية. ثم في غُضون سنوات قلائل استطعنا تحديد مواقِع بضع مئات الكواكب في الفضاء، ويُقَدِّر العلماء الآن أن هناك كواكب تدور على أقلّ تقدير حول رُبع النجوم التي تشبه الشمس في مَجَرّة درب التّبّانة.

إذا سُئِل الفلكيون اليوم ما إذا كانوا يؤمِنون بوجود الحياة على الكواكب الأخرى في الكَون، ستجيب غالبيتهم بنعم. فاتّساع الكَون الشاسِع الذي يفوق التصوُّر يحتّم أن يكون ما حدث هنا في باحَتنا الصغيرة قد استُنسِخ في أماكن أخرى كثيرة. أو هكذا سيقولون. أما ما يُحيّر في هذا السياق فيتجلّى في أن الكثيرَ من هؤلاء الفلكيين أنفسهم، ما زالوا بلا أي تردّد راغبين في أن يُدرجوا أنفسهم في مَذهب "مونو" المعروف الذي ينصُّ على أن الكَون لم يكن "يَنْبِضُ" بالحياة. ولو صحَّ هذا، لو لم يكن الكَون يَنبِضُ بالحياة، فما هي العلاقة التي ربطَت هذا الكونَ بأكثر منتجاته تميُّزًا؟

في حين تقاذَفتنا قبل عقودٍ قليلة أفكارٌ خيالية عن وجود حياة خارج

كَوكب الأرض، يركّزُ علماء الأحياء الفلَكية حاليًا على البحث عن الماء. ففرَضية الكيمياء الحيوية القائِلة إنه حيث يوجد ماء حَيّ، يمكن أيضًا توقُّع العثور على الحياة، تُؤخَذ الآن بعين الاعتبار أكثر فأكثر. في الحقيقة، قد يبدو من المذهِل أكثر أن نعثرَ في يومٍ على كَوكب صغير خِصْب فيه بُحيرات جميلة وماء جارٍ، ونكتشِف، على العكس من الفرَضية السابقة، أنه لم تنشأ فيه حياة.

ما نستنتجه من هذا هو أن الموادَّ الأساسية شموليةٌ، ويمكن استنباطها مباشرةً من 'المبادئ الأوَّلية'. أما الجُزيئات المُعَقَّدة أو الجُزَيئات العِملاقة فهي أندَر بكثير. إلا أن نُدْرَتَها لا تعني أنها بأي حال *أقلّ* شمولية.

هكذا تدافَعَت أفكاري. ومع أن سلسلة الأفكار التي خُضْتُها تميّزت بامتداد طولي كليًا، كانت أيضًا منطقية جدًا. وربما كنتُ الإنسان الوحيد في أنحاء كَوكبنا كافّة الذي قعد يقلّبُ النَّظَر في وَعْيه أو تنويره آنذاك. ومن يدري، ربما كنتُ الوحيد الذي فعلَ هذا في الكَوْن بأسره آنذاك. وإن صحَّ ذلك فلا ريب في أنني كنتُ جالسًا في عربة القطار الصفراء أستمتع بامتيازٍ هائل.

بدأ المطرُ ينهمِرُ قبل دخولنا "نيسبين". وفوق الباب الرابط بين العربات كُتِب بحروفٍ بيضاء على الشاشة الزرقاء: *: نيسبين الرَّصيف إلى اليسار، ١٦٨ مترًا فوق مستوى البحر.* وبعد أن تلقَّينا إشارة الخروج من المحطة: *أهلًا بكم معنا في رحلتنا إلى بيرغن.* تبعتها رسالة أخرى مَرِحة: *نرحّبُ بكم في المقهى. قائِمة طعام ممتازة. وجَبات خفيفة وعَشاء وحلوى.*

ترامَت أطرافُ الغابة على جانبي القطار ما بين "نيسبين" و "غول". جلستُ أتأمّل النهر عن يميني. وبين حين وآخر وقَعَت عيني على بعض المزارع. في هذه الأثناء كانت السُّحب الضَّبابية مستقرّة في قعر الوادي، وبدا المشهد كما لو أن مَناطيد "زبلن" تستعدُّ للهبوط.

هناك شيء في عِلْم الكَوْن الفيزيائي أو الكُوزمولوجيا يُسمَّى المبدأ الكُوزمولوجي، وينصُّ على أن الكَون يَعرِض الخصائص نفسها أينما ذهب المرء. وهذا يؤدي إلى القول إن الكون موَّحَد الخواصّ أو مُتجانس ومتماثِل، ما دام المقياس أو النِّطاق واسعًا كفاية.

ما المانِع إذًا من أن يُطبَّق هذا المبدأ على سؤالنا أيضًا: هل يمكن أن نترقَّبَ اكتشاف حياة مُنتشرة عبر الكون مثلما نكتشف الكَواكب والنُّجوم والمَجَرّات؟ أم لا يمكن ذلك، لأن الوجود الذي نُطْلَق عليه مُصطلح الحياة هو شيء تصادف حدوثه هنا فحسب؟

يحتوي الكون على شيء في حدود بضع مئات بلايين المجرّات، وفي نطاق كلّ واحدة منها مئات بلايين النجوم. وبعبارة أقلّ تعقيدًا، هذا يعني أن لدينا وفرةً من المصانِع الكيميائية. ما أقصدهُ هنا، هو أن الفرصة قد أُتيحت لنا لنضعَ عددًا لا يُحصى من الرقائِق على مائدة قمار مونتي كارلو تلك! وهذا يُقَوِّضُ جانبًا من أساس القاعدة التي تُقول إن أي حَظّ سعيد مُحتَمَل الحدوث هو 'وليد الصُّدفة'.

لا جدال في أن فَوْزَ مُقامِر كبير بمبلغ مالي ضخم أحيانًا ليس وليد الصُّدفة. بل إن فوزَه من حين لآخر يعتَبر نموذجيًا وفْق نظرية الاحتمالات. وإذا حدث أن التقينا عَرَضًا أشخاصًا يتَبَجّحون بفوزهم المنتظِم في اليانصيب أو في حَلَبات السباق، قد نسأل أحيانًا عن مجموع عدد المرّات التي راهن فيها أولئك الفائزون المَحظوظون. وهنا سنَجِد أن السؤال لا يُقابَل دائمًا بالتّرحاب.

بالرّجوع في الحديث إلى الوَعي، إذا ألقينا نظرةً على مُحيطنا الحَيوي، لا مَجالَ لأن نُنكِرَ أن الأنْظِمة العَصبية للكائِنات العُضوية وأجهزتها الحِسّية كانت تتفاعَل مع المُحيطِ الحَيوي. فالبَصَرُ، على سبيل المثال، تطوَّرَ عشرات وعشرات المرّات في كوكبنا من غير وجود وصلة وراثية ما هناك. وبناءً على هذا، من المُمكن أن نتوقّعَ شيئًا مثل أن تكون الكائِنات الحيّة

الأرقى في كواكب أخرى قد طوّرَت هي أيضًا حاسّة بصر من نوع ما. والسبب واضح: في أي مُحيط حَيوي لا بدّ من توافُر مِيزة تطوّيرية ليتاح للكائِن الحَيّ التأقلُم مع بيئته، سواء هي تضاريس قاسية أو أعداء أو فرائِس. وحيث يوجدُ تكاثُر جنسي، لا بدّ أيضًا من أن يحظَى بالحُرّية التي تُؤهّله لاختيار الشريك المناسب. وكذلك ستكون حواسّ أخرى تكميلية فعّالة في الصراع من أجل البقاء في الكواكب الأخرى، مثل السَّمْع وتحرّي مواقِع الصدى، والقُدرة على الشعور بالألم، والتّذوُّق، والشَّمّ، وربما أيضًا بعض الحواسّ العجيبة التي ليست مألوفة لنا هنا.

وسيحتاجُ كلّ فرد من الكائِنات الحيّة الأكثر رقيًا إلى مركَز قيادةٍ فعّال أو 'دِماغ' لينسّقَ مَداركه الحِسّية. مرّةً أخرى، لدينا هنا في كَوكبنا أمثلة تبيّن كيف طوّرَت أنواعٌ مختلفة من الحيوانات، مستقلّة كلّ منها عن الأخرى، أجهزةً عصبيةً ذات طبيعة أكثر أو أقلّ تعقيدًا وتشابكًا. ما يثير الاهتمام في هذا المَقام الإشارة إلى أن الباحثين في طِبِّ الجهاز العَصبي درسوا نسيج الأَخْطَبوط العصبي من أجل أن يتوسَّعوا أكثر في فهم نظام الإنسان العصبي.

وهكذا، تَماشِيًا مع نظريتنا القائلة إن الحياة ظاهِرة كَوْنية الانتشار، في وسْعنا قول الأمر نفسه عن تطوّر الجِهاز العَصبي والدِّماغ.

غول، ٢٠٧ *أمتار فوق مستوى البحر*. لملَمْتُ أشيائي المؤلّفة من سُترةٍ وحقيبة ظهر صغيرة. *المحطّة القادمة غول، الرَّصيف عن اليمين.*

لم يمضِ وقت طويل إلا ووجدتُ نفسي أقِفُ تحت رذاذ المطر الخفيف في الخارج. وحالما ركبتُ حافلةً مَحليّةً إلى محطّة حافِلات "غول" شغّلتُ "الجي بي إس" (نظام تحديد المواقِع عالميًا) وأجريتُ اتصالاً بأحد الأقمار الصناعية. أشار الوقت إلى ١١,١٩ وكان موقعي ٦٠ درجة، ٤٢ دقيقة، ٦ ثواني شمالاً؛ و ٠٨ درجات، ٥٦ دقيقة، ٣١ ثانية شرقًا؛ احتمال الخطأ +/- ٢٠ قدمًا. شروق الشمس ٠٤,٢١، الغروب ٢٢,٣٨، لكن الجوّ كان غائمًا

وثمّة مطر خفيف. طلوع القمر ٨,١١٠، أفول القمر ٢٣,٢٣، إنما حتى لو كان يومًا صيفيًا صافيًا، لما استطعتُ إلا بصعوبةٍ رؤية القمر في السماء. وأعطاني "الجي بي إس" توقّعات صَيد السمك والقَنْص التالية: يوم ضمن المعَدَّل. أوه.. لا بأس...

جلستُ في محطّةِ الحافِلات بعد أن طلبتُ فنجان قهوة وشطيرةً بالجُبْنة والفلفل الأحمر. كنتُ على حالي السابِق من الاستغراق في التفكير، التفكير الكَوْني، وبالكاد شعرتُ بوجودي هناك، مع أن الزِّمام أفلتَ مني فتشتَّت أفكاري لبضع لحظات حينما تبادلتُ أنا وامرأة تصغُرني بسنوات نظرات إعجاب مثيرة للدَّهشة. وراودتني فكرة سخيفة مُفادها أنها ربما ظنّتني أصغر بعشر سنوات مما أنا عليه في الواقع.

في "غول"، على الطريق الرئيسي الوحيد عبر مركز البلدة، هَطَل المطر بغزارة. هذا وَضَعني، إذا صَحَّ القول، في إطار أجواء فِكرية أعمق من السابق. أخذتُ استراحة قصيرة من استفساراتي الفِكريّة عن الأساسيات وكتبتُ رؤوس أقلام المُحاضَرة التي سألقيها على الغَداء بعد أيام قلائِل. ولم تُخالِجني حتمًا أي فكرة في أنني أنا وأنتِ سنلتقي مجددًا قبل تلك المحاضَرة، مع أنه لا داعي إلى الإشارة إلى أن ذاكِرتي عادَت في "غول" تِلقائيًا إلى زمن مرورنا بهذا الريف بسيارة الفولكسفاغن الحمراء ونحن في طريقنا إلى جبل الجليد في الغرب.

حَظيتُ باستراحة غَداء طويلة، لأن حافِلة "غول" لم تغادر إلا في ١٣,٢٠. ولم نلبث أن اخترقنا السَّديم بعد وقت قصير في طريق صعودنا إلى "هيمْسيدال". تضَمّنَت تلك الحافِلة أيضًا شاشة عَرض. كانت الحرارة في الخارج ١٤ درجة، وآنذاك بدأ السَّديم ينقَشِع قليلاً.

وفقًا لِما يشهَدُ عليه كَوكبنا نعلَمُ أن امتلاكَ دِماغ وجهاز عصبي بعيدٌ كلّ البُعد عما نُسمّيه 'الوَعي'، بل هو أكثر بُعدًا فيما لو عَنينا بهذا أي شيء

يُضاهي بأهميته أهمية قُدْرة المرء على التفكُّر مليًا في حَيِّزه من الوجود، لا بالنسبة إلى مَوضِع سُكناه ولكن بالنسبة إلى الكَوْن، ناهَيْكِ عن وجوده في عالَم الواقع. من ناحية أخرى نعرف أنه حالما وقفَت الفَقاريّات على ساقين وحرَّرَت أوصالها الأمامية – لصناعة الأدوات مثلاً – ظهَرَت لديها مِيزة حاسمة تجلّت في قابليتها على تعلُّم بعض الخُدَع المفيدة، والتَّحلّي بالقُدرة على مُشاركة 'تقنيات البَقاء' مع أعضاء آخرين في المجموعة، كالأحفاد وغيرهم. لقد عَرَضَت الحياةُ نفسَها على العائلة البشرية مع ما نسمّيه الوَعي على هَيئة مِحراب شاغِر. ولو لم نكن أوّلَ من شَغَله، لانتهى بعض مُمَثّلي النظام الفَقاري الآخرين عاجلاً أو آجلاً إلى احتلاله وإلى التمعُّن مَليًا في كيفية ظهور هذا الكَوْن إلى حيّز الوجود بما في ذلك الحياة والوَعي.

لعلّها نقطةٌ تفتَقِر إلى الجُودة، وعلى الرغم من ذلك أرى أنه ما زال يتعيّنُ علينا التفكير بعمقٍ في الحقيقة المؤكّدَة إلى الآن مئة في المئة بالنسبة إلى جميع الأجرام السَّماوية، وذلك أن الجِرْمَ الذي نعلم يقينًا أن الحياةَ قائِمة فيه قد عزّز الوَعي، وهذا الوعي مَصحُوب بأُفقٍ ضِمني ربما هو يمتدُّ عائِدًا على طول الطريق تقريبًا إلى الانفجار العظيم.

إنّ تَنامِيَ الكَوْن مَعْني بقدْر لا يُستهان به بتكوين العمليات المادّية المستمرّ أبدًا، سواء العمليات المُتمايزة أو المُتكامِلة. وإلى حدّ الآن يُعتَبر دِماغ الإنسان أعقَد الأنظمة التي نعرف وأكثرها تشابُكًا. والوَعي المُودَع في داخل هذا العضو هو ما يُمْعِن النظر باستمرار في هذا العالَم، سائلاً نيابة عن الكَون بأسره، من نحن؟ ومن أين جئنا؟

تُعتَبَر هذه الجمل المُقتَضبة سهلة جدًا وأساسية وفْق معايير عِلْم الدَّلالة اللُّغويّة، بحيث إنه لن يكون من المفاجئ سماعها تتردّد أيضًا في الحَيِّز الفراغي من زوايا أخرى في الفضاء تبعد سنوات ضوئية عديدة عن باحة مجرّتنا. قد تختلف تلك الجُمَل المرَدَّدة في تركيبها عن لُغتِنا، وقد يصعبُ علينا أن نميّز في صَوتياتها أي لسان لُغوي على الإطلاق. ولكن يمكن أيضًا أن تكون

تلك الحضارات تفكّر كما نفكّر إلى حدٍّ ما، وتمتَلِك طبعًا تاريخًا عِلميًا ليس فيه اختلاف كبير عن تاريخنا. وهناك، مثلنا أيضًا، لا بدّ من أن يكون أرقى القاطِنين فيها قد جاهدوا لِشَقّ طريقهم على طول الدرب الطويلة المتعرِّجة في سَعيهم نحو فَهْم أعظم لطبيعة عالَمهم، ولولِادة الكَوْن،ونِظام العناصِر الدَّوري.

تنفقُ مؤسسةُ "سيتي SETI"، أو مشروعِ البحث عن كائِنات ذَكية خارِج الأرض، مبالِغ طائِلة لرَصْد إشارات تدلّ على الحياة في الفضاء – على حياة ذكية بحُكْم تعريفها – إلا أنه من الصعب أن نَعْزُوَ البحثَ عن شيء غير قابل للتصديق إلى ما تقوم به، كالبحث عن صُدفة كَوْنية ثانية مثل صُدفتنا، لاَ تبعُد عن كوكبنا إلا بضع سنوات ضوئية فقط. ولا بدَّ من أن السبب يعود إلى أن الإشارات التي نَنْشُدُها، هي الإشارات التي تدعَم اعتقادنا بأن العِرْقَ البشري يمثّل شيئًا جَوهريًا أو أساسيًا للكَون كَكُلّ.

إلى جانب هذا، هناك ذلك الجِدال القائِمٌ حول الزَّعم أنه لا يوجد إلا هنا مخلوقات لديها وَعي كَوْني. على أساس أنه حتى لو كانت أشكالُ الحياة البدائية قد نشأت في أجرام سماوية أخرى أيضًا، علينا ألا ننسى أن العائِلة البَشرية استغرقَت تقريبًا أُربعة بلايين سنة لترى ضوء النهار منذ وقت نشوء الحياة هنا. وأربعة بلايين سنة ليست بالمدّة التي يُستهان بها بالنسبة إلى كَوكب. ففي غُضون بليون سنة فقط ستكون شروط الحياة على كَوكبنا قد كَفّت عن العمل، وستفقِدُ الأرض غِلافها الجَوي، وسيتبخّرُ الماء.

ربما نحن وحدنا في النهاية. وفي الوقت الحاضر ليس في وسْعنا الجَزْم جزمًا قاطعًا بأن هذا الكون ليس نبعَ ماءٍ حارّ من نفوس وأرواح جِدُّ متنوِّعة في مظهرها الخارجي.

تذكّرتُ للتوّ أنني غالبًا ما فكّرت في طفولتي في هذا الموضوع بالتحديد. لعلّ الكَون هناك يَدِبُّ بالحياة، درَجْتُ على أن أقول لنفسي. وتلك كانت

فكرة مُحفِّزة. ثم فجأة تُراوِدني فكرة مناقِضة. لعلّ الحياة لا وجود لها في *أي مكان آخر* في الكَون بأسره إلا هنا. هذه أيضًا كانت فكرة مُثيرة للاهتمام. فكِلا الاحتمالين شدَّدَ على مُعجِزة وجودي الاستثنائية.

اندفَعَت الحافِلةُ قُدمًا عبر "هيمْسيدال". أدركتُ مُسْبَقًا بالتأكيد أنني سأمرُّ *بذلك* المكان لا مَحالة. حاولتُ تحضير نفسي. ولعلّ جميع الأفكار التي راودتني عن الكَوْن كانت جزءًا من هذا التحضير. تتذكّرين بلا ريب رصيف ميناء العبارات في "ريفسنيس". لجأنا يومها إلى التحدُّث عن شيء جسيم للغاية، بحيث تلاشَت أهمية حادثةٍ تافهةٍ جرَت في كَوكبنا أمام نظامٍ أعلى وسياقٍ يكاد يكون لا نِهائيًا في اتّساعه.

بَقِيَت مُلاءة الغيوم منخفضةً، إنما كيف للمرءِ أن يُمَيِّـــز ما بين بحرٍ من السَّديم وطبقةٍ من الغَمام؟ فتلك الغيوم طفَت على ارتفاع ثلاثة أمتارٍ من الأرض فقط.

أعْلَمَتنا لوحةٌ أن الطريق الرئيسي ٥٢ عبر الجبال في "هيمْسيدال" مفتوح. طبعًا لا بدّ من أن يكون مفتوحًا، فالصيف ما زال في منتصفه.

مضَت الدربُ إلى الأمام لفترة طويلة بإزاء ضفّة النهر اليمنى، النهر الذي جرى مُتدفِقًا باندفاع غير عادي نظرًا إلى الرقم القياسي الذي سجَّله نزول المطر حديثًا، وكذلك بسبب ذوبان الثلج المتأخِّر في هذا الصيف. مررنا بسدٍّ مياه – كان خزانه طافحًا والماء يفيضُ منه. ذاك على ما بدا ما سبَّبَ فيضان نهر "هيمْسل" في أسفل الوادي. فهذا المشهد انسجم مع مشهد الماء الذي يحجُب أرصِفةَ الموانئ في خليج "تاري" – جميعها تعود إلى مجرى مائي واحد.

راحت كُتَلُ سديم مُتراصّة وغير متناسقة تتأرجَح فوق أرض الوادي، وبدَت للعين كأنها قابلة للّمس. كلّ هذا جعل الجوّ في ذلك اليوم أشبه بطُرْفَة أرصادٍ جَوية. ثم عاد الضباب إلى التجمُّع ثانيةً: بقي قاعُ الوادي

فقط مَرئيًا، أما سفحا الجبل فتكفّنا بالسَّديم.

تشرّبْتُ تلك المناظر كلّها بينما ركّزتُ انتباهي على الغموض الكامِن في قُدرتي على الجلوس حيث أنا وفي ذهني أفكارٌ واضحة مُحدّدة عن تاريخ الكون وجغرافيته. بل حتى أطلقتُ العِنان لنفسي وتركتُها تنغمِسُ في تصوّرات مُتنوعة تتعلّق بكيف ولماذا تطوّرَت أشياء مثلي.

'لم يكن الكَوْن يَنْبض بالحياة، ولا المُحيط الحَيوي بالبشرية. نحن مُجرّد رَقْم جاء صُدفةً، مثل أيِ رَقْم على مائدة قِمار في مونتي كارلو.'

حسنًا، بدا لي أن هناك شيئًا مُغريًا في أن نحاولَ عَزْف مقطوعة "جاك مونو" الاختزالية هذه في الاتجاه المعاكس – لِنرى فقط هلِ لها أو ليس لها أي وَقْع موسيقي رنَّان: *كان الكون ينبض بالحياة، والحياة تنبض بوعي الكون بذاته.*

لم أشعر أن للجملة وَقْعًا سيئًا جدًا، و لم يتعارض وَقْعها بأي حال من الأحوال مع أي حَدْس قد أمتلكه، سواء كان لذلك أهمية ما أم لا. إن هذا الكون واعٍ بذاته، أو هو *يمتلِك* وَعيًا بذاته. وهذه الحقيقة الواضحة والمذهِلة أيضًا ليس من الصواب التخلّي عنها كلّها لصالح الحركات الباطنية وتأويلاتها.

وفيما نحن نقتربُ من مسقَط المياه فكّرتُ، لا يمكن التخلّي عنها لأن هناك شيئًا على مستوى أعلى، أو بالأحرى هو أعلى مستوى يمكن مناقشته عِلميًا. ربما لم يكن 'ينبغي' على الوَعي أن يتطوَّر، وربما لم يكن 'ينبغي' على الحياة أن تتطوَّر كما جادلَ "مونو"، ولكن من ناحية أخرى، ربما لم يكن 'ينبغي' على الكون أيضًا أن يتطوَّر.

لو اختلف في كَوْننا من اللحظة الأولى فصاعِدًا تكوينٌ واحد بالِغ الصِّغر، لانهارَ بعد بضعة أجزاء من مليون من الثانية من لحظة ظُهوره إلى الوجود. بل حتى لو كانت هناك أي اختلافات مِجْهَرية في ما دعاه "مونو"

'المبدأ الأوَّلي' لأدّى ذلك لا مَحالة إلى لا كون على الإطلاق. يُستَحسَن أن أُورِدَ هنا مثالاً أو مثالين. لو أن الكَون، إبّان تشكُّلِه، لم يحتو إلا على مِثقال ذَرَّةٍ فقط من الكُتلة الإيجابية أكثر من الكُتلة السلبية لدمَّرَ نفسه بالكامل في غُضون لحظة بعد الانفجار الكبير. ولو أن الطّاقات الذّرّية الهائِلة كانت أضعف *بقليل* فقط، لتألّفَ الكَوْن بأكمله من الهَيدروجين. ولو كانت أقوى *قليلاً* لما توافَر لدينا هنا أي هيدروجين على الإطلاق. القائِمة أطول بكثير. وقد قال الفيزيائي "ستيفن هوكنغ" مرّةً: 'هناك مؤشرات هائِلة تتعارضُ مع احتمال ظهور كَون مثل كَوننا من شيء يشبه الانفجار العظيم.'

تنصُّ الحقيقة على أن ظهورَ كَون *قابِلٍ للنموّ* أصلاً، ليس إلا وليد صُدفة تُماثِل صُدفة انبثاق الحياة والوَعي. وهذا يعني بالتالي أنّ مبادئ "مونو" الأوَّلية هي أيضًا وليدة صُدفةٍ لا تختلف عن أي صُدفة تتحقّق على مائِدة قِمار في مونتي كارلو. فهل نأخذ بهذا القول، أو هل يمكننا على الرغم من كل شيء أن نسمحَ لأنفسنا بالتفكير في أنه ربما كان هناك 'شيء' في الأعلى، في 'ما وراء' أو 'ما قَبْل' الزَّمان والمكان اللذيْن وَلَّدهما الانفجار العظيم؟ خصوصًا أنه ليس لدينا دليل عِلْمي يستطيع أن يُقْصي تمامًا فكرة أن 'شيئًا' ربما كان 'يعْتمِل' في هذا الكَون.

لأنه كي يستَحْضِرَ الكَون وَعيًا بذاته وبجماله الخاصّ ونظامه، ينبغي استيفاء شروط لائِحة طويلة من المعايير – حتى *قبل* الميكروثواني الأولى بعد الانفجار العظيم. نعم، إن هذا الكَون هو واحد من نوعه. إنها حقيقة ينبغي أن نُحيطَ بها علمًا.

على هذا النحو جَرَت أفكاري. أفكار قد يصفها كثيرٌ من زملائي المتَمَرّسين بأنها نوع من الهَرْطَقة. فما كنتُ منغمسًا فيه هو حتمًا خارج نطاق التفكير الشائِع بقدرِ ما يتعلّق الأمر بالعِلْم. وهو في الواقع ما عنيتُ به الحَدْس.

تتبّعَ الطريقُ ضفّة النهر اليُسرى. ومررنا لفترة من الوقت عبر أرض مزروعة ومروج وخمائل متفرّقة، قبل أن نعود إلى النهر ثانية. ثم بدأ بعد ذلك صعودنا نحو نُزُل جبل "بيوبيرغ". لفَتَ نظري جسر شُيِّدَ بجسارة فوق النهر. بلغ ارتفاعنا آنذاك حوالي ٧٠٠ مترًا. وعلى جانبي النهر نَمَت أيائِكُ كثّة من البتولا.

كان السَّديم أكثف هناك، مع ذلك استطعتُ أن أرى الثلج على سفوح الجبال عن يساري، وبعض الأكواخ عن يميني، هي الأخيرة على الأرجح قبل أن تبلغَ الحافِلة تُخومَ البلدة الجبلية حيث يُمْنَع البُنْيان.

اقتربنا من بحيرة "إِلْدَرفاتْنت" عند حدود البلدة ومَسْقَط الماء. إنها المرّة الأولى التي أعود فيها إلى هناك منذ أيامنا معًا يا سولرن. لكنني كنتُ قد حضَّرتُ نفسي لتلك اللحظة وحَصَّنتُها مُسبقًا، وفي الوقت نفسه سَرَّني أنني لم آتِ بسيارتي. تحاشيتُ النَّظرَ إلى البحيرة ونحن نمرّ بها، وركّزتُ عيني على ساعتي. أشار الوقت إلى ١٤,٢٠. ومع أنني لم أُبيِّت النِّيَّة على شيء، تذكّرتُ أنني أحملُ في حقيبتي نصف قِنينة "فودكا". تحَسَّستُها خِلسةً وأخرجتُها، نزعتُ غطاءها خِفيةً وتناولتُ جَرْعة كبيرة منها. لا أظنُّ أن أيًا من المسافرين الآخرين لاحظ شيئًا. مضى ما يزيد عن ثلاثين سنة، وما زال ذلك الحدث يبدو قريبَ العهد جدًا. كانت لُغزًا يا سولرن. أعني المرأة ذات الشَّال.

بعدئذٍ، مَضينا قُدمًا نحو غرب البلدة. كان الوقت يشير إلى ١٤,٢٩ حينما تجاوزنا أوّل التواء حادٍّ عند الجُرُف. عَبَبْتُ جَرْعة "فودكا" أخرى. وراودني شعور بأن كلّ ما اصطخَبَ في ذهني من أفكار له علاقة بما وقعَ هناك في الماضي. حاولتُ أنا وأنتِ آنذاكَ التزوُّدَ بسُوَيعات من النوم في "ريفسْنيس"، إلا أنه استعصَى علينا، فاتكأنا فقط مُغمضي الأعين، نتكلَّم.

يَمَّمَت الحافلةُ "ليردال" ماضيةً لفترة قصيرةٍ على طريق النهر الهائِج. وبعد كنيسة القضبان العائِدة إلى القرون الوسطى قادَتنا الدربُ إلى الأنفاق.

وفوق أرض الوادي، رفرَفَت ما بين بقعة وأخرى قطعٌ كثيفةٌ من الغَمام كأنها حُمْلان عديمة الوزن. يمَّمْنا وسطَ "ليردال" حيث قرّرنا في الماضي ألا نَبيتَ ليلتنا. أتتذكّرين؟ ثم ركبَ معنا مزيد من المسافرين وغُصْنا بعدها في النَّفق الطويل قاصدين "فودْنيس". شعرتُ بالامتنان لوجود النَّفق الجديد، وبالامتنان لأنني تجنَّبتُ زيارة أخرى إلى "ريفسنيس" المرْهِقة للأعصاب.

أجريتُ في الرحلة القصيرة على العبّارة إلى "ماهيلر" ما يشبه الملخَّص لما قلّبتُه في ذهني من أفكار على طول الطريق من "أوسلو" تقريبًا.

إذا نَحَّينا جانبًا عددًا كبيرًا من التفاصيل، نرى أن العِلْم المعاصِر يواجه لُغزيْن عِملاقيْن: ماذا حدثَ حقًا في الكَوْن في كَسْر الميكروثانية الأوَّل من لحظة ظُهوره، وكذلك ما هي طبيعة الوَعي. ربما ليس هناك سبب يدعو إلى الاعتقاد بوجود أي علاقة بين هذين اللغزيْن العظيمين الفريدين المتعلّقين بالإنسان والعلم. وفي الوقت نفسه لا نستطيع استبعاد وجود علاقة ما. ولو طُلب مني أن أراهن، لراهنتُ على وجودها.

بالنسبة لي أعتقد أنه يجب أن يكون هناك تفسير أعمق – أو *أصل* وسبب– يقف وراء القوانين الطبيعية التي شكّلَت كَوْننا. وهذا تكونين قد عَرَفتِ يا سولرن ما تنطوي عليه عقيدتي الأساسية. في رأيي إذا كان هناك شيء 'ربّاني' فيجب أن يكون موجودًا وراء الانفجار العظيم. أما بعدَه، فأرى أن قوانين الطبيعة، وأعني قوانين الطبيعة فقط، هي التي فَرَضَت سيطرتها، وأن كلّ ما يحدث له حتمًا أسباب طبيعية.

إذا أردتِ البحثَ عن 'براهين ربّانية'، فإن أفضل أماكن تَلَمُّسها هي في الثَّوابت الكَوْنية. أو في ما سمّاه "جاك مونو" الملْحِد 'المبادئ الأوَّلية'. لأن الأشياء الوحيدة التي لا أعتَقِد بوجودها، كما قلتُ سابقًا، هي 'تجلّيات' القُوى الخارِقة للطبيعة.

وصَلَت سلسلةُ أفكاري إلى نهايتها، وفي تلك الأثناء كادت رحلتي في

الحافِلة عبر البلاد تقترَب من نهايتها هي أيضًا. النقطة الوحيدة التي سأضيفها هي ظَنّي أنكِ ستضطرين إلى البحث طويلاً قبل أن تعثري على عالِم طبيعيات مُستعدّ للمُضي بقدر ما مَضَيتُ في لَفْتِ الانتباه إلى أن الحياة والوعي ربما هما من خصائِص كَوْننا الأساسية فعلاً. وحُجّتي لا تقوم على أي تجَلِّيَات أو مُعتَقَدات؛ بل تَنْبع مباشرةً من استقرائي للطبيعة نفسها.

نفقٌ آخر في "ماهيلر"، وبعدَه مباشرة إلى اليسار في الأسفل أشرَفنا على "كاوبانغر" التي ترَجّلتُ فيها أنا وأنتِ من العبّارة في يوم ما من تلك الأيام. ثم من هناك صعودًا إلى بحرٍ جديد من الضباب، قبل المُضِي عبر "سوغندال"، والتقدُّم نحو تقاطُعٍ جبلي آخر.

عندما اندفعنا خارج النَّفق الطويل في الأعالي عند سفوح الجبال فوق خليج "فيارْلاند"، لم أرَ شيئًا سوى السَّديم في الأسفل. ومع أنني لم أسلُك هذا الطريق من قبل، عرفتُ جيدًا أن المنطقة التي أعْهَد تمتدُّ تحت السَّديم بانتظاري. ثمّ تدرَّجنا نحو نفق آخر. ولما طلعنا منه وجدتُ نفسي تحت مُلاءة الغَمام وتسنَّت لي رؤية "سوبرهيلْدال" و "بُويادال" و "مُنْدالسدال".

في تلك اللحظة لمعَتَ في رأسي الفكرة فجأةً: هل هي هناك؟ هل تأتي؟ كان ذاك مجرّد ردّ فِعلٍ خالِص. أدركتُ ضِمْنًا ما تنطوي عليه عَفْويتي من لا عقلانية.

ترجّلتُ من الحافلة عند متحف الجليد، اتصلْتُ بالفندق هاتفيًا وفي غُضون دقائق قليلة جاءت سيارة لِتُقلّني. وما لبثتُ أن وجدتُ نفسي في البناء الخشبي التَّليدِ مُجدَّدًا، بعد ما يزيد عن ثلاثين سنة. كانت الغرفة ٢٣٥ تتميّز بإطلالةٍ جميلة على الزُّقاق البحري والمتحَر والمكتبات، وتشرفُ أيضًا على كُتلة الجليد والجبال. وبما أن السَّديم تحوّلَ ثانيةً إلى نُدَفٍ صغيرة مُنفصِلة راحت تحوم على ارتفاع منخفِض فوق الخليج، انكشفَ لي الفضاءُ من فوق تلك النُدَفِ من نافذة غرفتي.

كانت صالة الطعام مُكْتَظَّةً بالناس. وراقَني أن أرى ذلك المكان القديم مُزدَهِرًا، مع أن جزءًا من هذا قد يعود إلى مناسبة افتتاح مَعرض المناخ الجديد. طلبتُ ربعيةً من نبيذ الفندق الأحمر بتسعين "كرونة". كان نبيذًا جيدًا وإن لم أستطع تمييز نَوعية العنب أو بلد المنشأ، ربما هو "كابرنت سوفينون". ثم قُدِّمَت لي وجبة عشاء رُباعية: سَلَطة الساحِل الغربي، وحَساء قرنبيط، وشريحة لحم عِجْل وفراولة بالقشدة.

صعدتُ إلى غرفتي بعد تناول الطعام وأفرغتُ أمتعتي. تناولتُ جَرعة من "الفودكا" وحدّقتُ خارجًا إلى الليلة الصيفية. كان المطر يهطِل بغزارة بالِغة. و لم تنفكّ النوارس تزعَق فوق الخليج ومن على سطح التعاونية. قبل أن آوي إلى الفراش كَرَعتُ جَرعة أخرى من قِنينتي.

ثم التقيتُكُما أنتِ وزوجكِ على الشُّرفة في الصباح التالي. وصلتُما بعد العَشاء في الليلة السابقة بينما أنا في غرفتي مع قِنينة "الفودكا". فكَّرتُ فينا، أنا وأنتِ طبعًا. بيد أنكِ في تلك الأثناء كنتِ هناك في الفندق. وتسنّى لكِ ولزوجكِ أن تحصلا على وجبةٍ لائِقة في المقهى بعد فترةٍ طويلة من إخراج عربة القهوة مِن منطقة خدمة الزبائن، وخُلوّ صالة الطعام من رُوَّادِها الراغبين في العشاء.

استلقيتُ في فراشي صاحيًا لفترة طويلة أستمِعُ إلى النوارس تزعَق. ولما أرحتُ رأسي على الوسادة وأغمضتُ عيني فكّرتُ، هنا في داخلي، وجودي هنا في داخلي حَميم ومُطَمْئِن. إنه شيء مُطَمْئِنٌ ومريحٌ جدًا أن أكون أنا.

ثمّ جرَفني حلمٌ مذهِل. هُيأ لي أنه دام طَوال تلك الليلة، أو على الأصحّ دام أكثر من ذلك بكثير، وحتى في هذه اللحظة أشعر كأنني واجهتُ أحداثَه حقيقة.

لا *بل* أكادُ أقولُ إني فعَلتُ.

وهنا، عند هذا الحدّ، أتركُ بين يديكِ مَلْحَمَتي الصغيرة. واصلتُ الكتابةَ طَوال النهار، من غير أن أتوقّفَ حتى لآكُل. طبعًا شربتُ القهوة والشاي، ولمرّات قلائِل قصدتُ خزانة الزاوية وكَرَعْتُ بضع جَرعات.

وأنتِ، ماذا عنكِ؟ هل عدتِ إلى البيت بعد اجتماع إعداد الخُطط؟

نعم، عُدتُ يا ستاين، وأرى أن عليكَ السيطرة على نفسكِ لتبقى بعيدًا عن خزانة الزاوية تلك. الساعة لم تتجاوز الخامسة بَعد. أليس في مقدورِكَ أن تتّخِذَ قرارًا يشترِط عليكَ ألا تفتحَ تلك الخزانة قبل الثامنة أو التاسعة ليلاً؟ لطالما ناقشنا هذا في الماضي. كنتُ في باكُورَةِ المساء أدخل إلى مطعم الشِّواء لأتفقّدكَ، فأراكَ جالسًا هناك تتناول الجِعَة!

أتريْن يا سولرن، حتى آنذاك كنتُ أتصارع مع أفكار هائلة. ألا تشعرين ولو بقليلٍ من الدُّوار من فكرة أنكِ *جزء من هذا الكون*؟ كتبتُ أقول إن في وسعي استشفاف وميض ترابُط بين وَعيي وبين الانفجار العظيم قبل ١٣,٧ بلايين سنة. وبدلاً من التركيز على هذا، تشرعين في التحدُّث عن إجراء بعض التّدابير المتعلّقة بخزانة زاوية صغيرة متآكِلة في "كونغليفيين". إن هذا يثير مشاعري بطريقة ما، أن أعلمَ أنكِ ما زلتِ... ما زلتِ تقلقين عليّ..

نعم، أعرِف يا ستاين. أعرفُ أن هذا قد يثيرُ المشاعِر.

إنما هل لكِ أن تجيبي؟ ما رأيكِ في تأمُّلاتي وأنا أسافر عَبر البلاد من "ليساكر" إلى "فيارْلاند"؟

لا أدري حقًا ما أقول يا ستاين.. على نحوٍ ما ربما أقول ما قد تقوله تلميذتكَ الشابّة: إنها تأمُّلات مُشوِّقة! ولستُ أسخر في هذه المرّة، بل أعني ما أقوله فعلاً. وكذلك يبعثُ في نفسي البهجة أن أقرأ جُملاً كتَبْتَها مثل: 'في الوقت الحاضر ليس في وسعنا الجزم جزمًا قاطعًا بأن هذا الكون ليس نبعَ ماءٍ حارّ من نفوس وأرواح جدّ متنوِّعة في مظهرها الخارجي.' وهذه الجملة ليسَت سيئة أيضًا: 'أعتقد أنه يجب أن يكون هناك تفسير أعمق - أو *أصل وسبب* - يقف وراء القوانين الطبيعية التي شكَّلَت كَوْننا.' ولعلّ هذه الكلمات تتضمَّن فعلاً ما تدعوه عقيدة أساسية، ما يعني أنكَ حاولتَ في أدنى الأحوال أن تعطيني جوابًا لسؤالي الذي طرحتُه عليكَ بخصوص ما تَعْتَنِقه من *مُعتقدات*.

إلى جانب هذا السؤال طلبتُ منكَ شيئًا آخر. أردتُ أن ترويَ لي حُلْمكَ. وفي المقابل زوّدتَني مُجدّدًا بأطروحة مادّية الأبعاد. لا أُنْكِر أبدًا أنها عمل عِلْمي بارع، أو حتى قطعة مدهشة من كتابات السفر، ومع ذلك لا أراكَ تتكلّم إلا على القشرة الخارجية لطبيعتنا الروحية. بالنسبة لي يشبه هذا الدوران حول المَحارة أكثر من الدوران حول اللؤلؤة المُزدهِرة في داخلها. هناك آلاف من المَحارات الفارغة إزاء كلّ محارة تحتوي على لؤلؤة.

إنكَ لا تتوقّف أبدًا عن إدهاشي!

أراني في كَبْسولة فضاء تحومُ حول مَدار الأرض. أشعرُ بأنني عديم الوزن. أشعرُ كما لو أنني بلا جَسد. أنا وَعي مَحْض فَحَسْب.

الأرضُ من تحتي مُجَلّلة بالغبار والسُّخام. كَوْكبنا بأسرهِ أسود. لا أرى المحيطات، ولا أرى اليابسة. حتى جبال الهملايا لا تخترق أي من قِمَمها الهَرَمية الشتاء النَّوَوي المُظلِم. أنادي، "هيوسْتن! هيوسْتن!" مُدرِكًا في

الوقت نفسه أن لا فائدة. جهاز الإرسال ميت. والكُوَيْكب السَّيّار الذي كان عليّ أن أَصُدَّه قد أباد على الأرجح البشرية جَمعاء، وربما الفَقَاريات كلّها، أو على الأقلّ ما عاش منها على اليابسة.

أواصِلُ الدَّوران حول مَدار الأرض مُستعيدًا ذِكرى ما حدثَ من جديد. ومرّة أخرى، أرى كُوَيْكبًا سَيَّارًا يطمِس معالِم الحياة كلّها تقريبًا، تمامًا كالكُوَيْكب الذي دمَّر الحياة بين الفترة الطَّباشيرية والفترة الجُيولوجية الثالثة، أو ذاك الذي بين العصر البَرمي والعصر التّرياسي. في تلك المرّة الثانية أُبيدَت جميع الدِّيناصورات. أما الآن في هذه المرّة فربما لن يبقى ولا فرد واحد من الثّدييات. والذنبُ ذنبي! أنا وحدي من يقعُ عليه اللوْم في ما حدث.

كان الكُوَيْكب الجبّار بقُطْره الذي يبلغ عدّة كيلومترات على مَسار الاصطدام بالأرض منذ زمن طويل. ولذلك شَكّلَت الأمم المتَّحدة لجنةَ أزمات، ولأوّل مرّة في التاريخ تآزرَت جميع الأُمم لتنقِذَ كَوْكبنا من الدمار.

وُضِعَت خطط مُتناهية الدِّقة لإطلاق سفينة فضاء مأهولة تحمل صاروخًا نَوَويًا ضخمًا. لم يَخْفَ على أحد أنها ستكون مهمَّة انتحارية. تطوَّعتُ للذهاب، أنا وكلٌّ من حسّان وجيف. ونصَّت الخطّةُ على أن تُطلَق القنبلة لتفجير الكُوَيْكب حالما ندنو منه، مع التزامِنا في الوقت نفسه مسافةً مناسبةً بعيدًا عنه للحَؤول دون تناثره إلى شظايا. مهمّتنا اقتصَرَت على دفعه قليلاً خارج مساره، حتى ينحرف عن حافة الأرض بهامِشٍ جيد.

في المؤتَمر الخِتامي قبل انطلاقنا عَلِمْنا أن نسبة اصطدام الكُوَيْكب بالأرض تعادِل ٩٩ بالمئة. لم يكن علينا طبعًا القيام بأي شيء بأنفسنا لتفجيرِ القنبلة، فالكومبيوترات تولَّت كلّ ذلك. انحصَرَت مُهمّتنا في الحِفاظ على مَسارٍ ثابت ونحن نسعى وراء الجسم العِدائي، وعندئذٍ ستُقذَف القنبلة من المسافة

الصحيحة بالضّبط. كانت المهمّة سهلة.

كنّا ثلاثة من بين عدّة مئات من المتطوّعين للذهاب إلى الفضاء. وخضَعَ الجميع إلى برنامج واسع النِّطاق من الاختبارات الجسدية والنفسية، إلا أن الانتقاء النهائي أُجرِي بالقُرعة. وهذا ضَمِنَ حصولَ كلّ واحد من الأفراد المُختارين على فرصة عادِلة للتملُّص من المُهمّة. كان ذلك بأكمله طَوْعيًا. الجولة الأخيرة فقط جرَت على نسق الرُّوليت الرُّوسي. وحالما وقعَ الاختيار علينا – نحن الفائزون أو الخاسرون، وَفْق الطريقة التي ينظر المرء بها إلى الأمر – أصبحنا في عِداد الأبطال. فقد كنّا الذين سنختَرِقُ الفضاء لننقذَ كَوْكبنا من الإبادة. كنّا رُوّادًا. وتملَّكَنا فخرٌ عظيم لوقوع القُرعة علينا.

اقتضَت الخطّة أن نتحرّى الكُوَيْكب بين المرّيخ والمُشتَري. كانت البشرية جَمعاء، وربما غِلاف الأرض الحَيوي بأسره وَقْفًا علينا، على انضباطِنا واتّزانِنا العقلي.

أنا مَنْ أَخفَقَ في المهمَّة. ذُعِرتُ فجأة. لم يكن قد تبقّى لنا إلا دقائق معدودات قبل أن نموت. وجاءَت الرسالة الأخيرة التي بثّها جهاز الإرسال تقول: 'حَظًا سعيدًا يا شباب! تناولوا شرابًا الآن. و *شكرًا لكم*!'

لكنني لم أَرِد أن أموت. أردتُ أن أعيشَ بعد، وهكذا، حوّلتُ المركبةَ عن مسارها بضع درجات في اللحظة الحاسِمة، وجعلتُ المهمّة مستحيلة الإنجاز. أتذكّرُ كيف احتجّ حسّان وجيف، لولا أن احتجاجهما جاء بعد فوات الأوان. إن الذين أشرفوا على تدريبي لم يُدرِّبوني جيدًا، ولم يُعرِّضوني لاختبارات كافية.

رأينا في ضوء الشمس الكُوَيْكب يتجاوزنا. كان اصطدامه بالأرض حتميًا وفْقًا للتكهُّن الأخير، وحالما يحدث ذلك، ستصلُ نسبة هلاك جميع البشرية إلى ٩٩ بالمئة.

كان الجسم العِدائي ضخمًا، ذا شكل مُبْتَذَل وغير مُنْتَظِم. استوْحَيتُ مَعالِمه، كما يبدو، من إحدى لوحات "ماغرِت" المتَرسِّبة في ذاكرتي. عرفنا أن نقطة اصطدامِه بالأرض تقع في آسيا الوسطى، مع العِلْم أن الموضعَ لا أهمية له على الإطلاق؛ مجرّد اصطدامه بالأرض يعني الهلاك للكَوكب بأسرِه.

أطوفُ حول كَوْكب مُتَفَحِّم، وأعجَزُ عن اجتلاء القارّات. يتصاعدُ الغبار والسُّخام عاليًا في الغلاف الجوي؛ غلاف من الواضح أنه دُمِّر تدميرًا هائلاً. أعود بذهني إلى الوراء مسترجِعًا ما جرى في الكَبْسولة.

أتذكَّرُ الآن أنني شعرتُ بالخجل. قبعَ حسّان وجيف في مكانهما يحدِّقان. رفع جيف كفّيه كما يفعل المرء عندما تسوء الأمور، ورجع بظهره إلى الوراء مُستسلِمًا. أما حسّان فأجهش بالبكاء. استشعرتُ الازدراء من جيف وأسىً لا نهائيًا من حسّان. كان حسّان مُسلِمًا مُلتزِمًا ووَقَرَ في قلبه اليقين أنه سيذهب إلى الجنَّة مباشرة إذا نجحَت مهمّته. استصعبتُ فهم هذا اليقين لأنه في الوقت نفسه كان مقتنعًا بالقَدْر نفسه بأن قرار نجاحه أو فشله بيدِ الله. ما يعني بالتأكيد أن الله قد فرض إرادته. لم يعُد في مقدوري تحمُّل هذا الخزي كلّه. فتدبّرتُ بعد بضع مُناورات ماهرة أمر قطْع تجهيزات الأوكسجين عنهما. هذا عنى أنني أطلتُ مدّة حياتي في المركبة، لأن فرصة بقائي على قَيد الحياة زادت ثلاث مرّات عن الفرصة التي كانت لدي قبل دقائق. حوّلتُ مسار السفينة نحو الأرض. أردتُ أن أرى ما انتهى إليه كَوْكبي. فما بدا واضحًا جدًا لي أن الأمور بلَغَت حدَّها النِّهائي من السُّوء. والوقود الذي لديَ يكفيني لأحومَ بالسفينة حول الكوكب الأسود، ومؤونتي من الأوكسجين تَفي بعددٍ لا بأس به من الدَّورات.

أريدُ توظيفَ الساعات الأخيرة التي بقيَت لي في إمعان التفكير في ما عناه

كلّ ذلك. إنه وقت مُكرَّس للتدبُّر. ماذا عَنَت الحياة؟ وماذا عَنى الوَعي؟ فأنا الآن أصبحتُ متأكّدًا بما لا يقبل الشكّ من حقيقة أن العقل والفِكْر لم يتطوَّرا في أي موضِع آخر من الكَون إلا في الكَوْكب المحروق الذي أدورُ حوله في هذه اللحظة. وأنا الوحيد المتبقّي من وَعي الكون بذاته.

أشعر فجأةً بحزن يائسٍ رهيب نيابة عن الكَوْن بأسره من فكرة أن هذا العالم سينتقل إلى مرحلةِ الانكماش. كَوْنٌ واعٍ وآخر بلا وَعي هما شيئان مختلفان اختلافًا كاملاً. وأنا أيضًا حزينٌ من أجل نفسي. فما بقي لي من وقت لأكونَ أنا قليل جدًا. ولو لم أعْمِد إلى سرقة وقت جيف وحسّان، لكُنّا ثلاثتنا في عِداد الأموات الآن، ولَبَاتَ وَعي الكَوْن صفحة مَطويّة. أشعر بأهمية إقدامي على تمديد وَعي الكون بذاته.

فجأةً، أنغمسُ في التفكير في شريط حياتي. أو بالأحرى لا أفكّر، أراني قد عُدتُ ببساطة إلى السبعينيات وأراكِ أمامي في "كرينغْشو": أنتِ في قمّة السعادة، على وجهكِ ابتسامةٌ لَعُوب، ونحن نقوم بكلّ الأشياء التي لطالما قُمنا بها. نُعِدُّ وجبة العشاء، ونمشي إلى المقهى في غابة " أوليفولسيتير"، نمضي بدرّاجتينا إلى الجامعة ونجلس متقابلين على طرفي الأريكة نراجع دروسنا. نتجوّل في "نورماندي" بالسيارة، ونقصِدُ الجزيرة الصغيرة التي من السَّهل أن نسيرَ إليها عندما ينحسِر الماء في أوقات الجَزْر – أراكِ تلتقطين نجمة بحرٍ زرقاء من قاع البحر! – ثم نذهب في رحلة على درّاجتينا إلى "ستوكهولم". نُشيعُ الفوضى في الطَّوْف القديم الذي استعَرناه من مُزارِع مُسنّ في "توتن". اِعتَقَدَ ذلك الرَّجل أننا مخبولان، وهذا هو السبب الوحيد الذي جعله يعيرنا الطَّوْف. تعاطَفَ معنا لأنه رأى أننا مُضطرِبان عقليًا.

أُطرِقُ إلى الأسفل ناظِرًا إلى كَوْكب محروق. إنه مَهْدي، مَهْد الوَعي. إنه محروق، ومع ذلك أستطيع أن أكون فيه، في أي وقت أشاء وأينما أريد

على امتداد الزمن الذي قضيتُه على الأرض. مثلِ قارعة الطريق في "السُّويد" حيث اضطررنا إلى التوقُّف لأن عجلة درّاجتي ثُقِبَت. غضبْتُ كثيرًا يومها، ووبَّختِني على غضبي. والآن، من الأعلى هنا في مَداري، بعد فنائِكِ وفناء العالم بأسره، أُدركُ أنكِ كنتِ مُحِقّة في ذلك الصباح. لا يَصِحُّ أن يتعكّرَ مزاجُكَ لأن عليكَ ترقيع أنبوب عجَلة داخلي، قلْتِ يومها. نحن في الصيف يا مُغَفَّل. ونحن أحياء!

أنا هناك في الأسفل الآن أُعيد اكتشاف كلّ ذلك من جديد. استعَرنا سيارة والديكِ وها نحن نقودها من "بيرغن" إلى "روتْلِدال". نقف على سطح العبّارة ونستشِفُّ المدى على امتداد خليج "سوغْني"، ثم نَلِجُ ميناء "كراكْهيلا" في المضيق الحادّ بين "لوزْنا" و "سولا". نقود سيارتنا في الجُزر ونركب العبّارة الصغيرة إلى "نورا". يبدو الأَرْخَبيل الذي حَتَّته عوامِل الطبيعة مثل عالَم قائِم بذاته بكلّ خلجانه الصغيرة ورؤوسه البحرية وقنواته وبحيراته. نقطع الكيلومترات الأخيرة إلى "كُولغْروف"، تستمهلينني، وتطلبين منّي أن أوقِفَ السيارة أولاً في بقعة مُعيّنة لتريني أروعَ منظر يُشرِف على البحر. تجرفكِ البهجة لأنكِ تُطلعينني على جنّة طفولتكِ، أنتِ منبهِرة أيّما انبهار. نُوقِف السيارة أمام بيت جدتكِ، وعندما أُقابِلُ راندي أشعر بأنني أعرفها منذ الأزل، وذلك طبعًا لأنني أرى فيها الكثيرَ منكِ. نحن كالأطفال هناك. نذهب إلى حانوت إيدي ونشتري الحلوى والمُثلّجات. في المساء نستلقي في سريرنا في الغرفة الزرقاء نتهامس عمّا رأيناه واستكشفناه في يومنا الصَّيفي الطويل.

يَتمَحور ذلك كلّه حول حكايتين؛ تاريخي وتاريخ الكَون. لكن التاريخين يتمازجان، لأنه لو لم يكن للكَون تاريخ لما كان لي تاريخ، ثم إنني صرفتُ نصف عمري أدرُس ذلك التاريخ، ولولاي الآن، لما عاد في مقدور الكَون أن يَعِي مميزاته، فلا ذاكرة أخرى متبقّية إلا ذاكرتي.

أجلس فترات طويلة في كَبْسولتي أراقِب تاريخ كَوْكبنا، حيث يمرُّ العالَم أمامي في مَوْكب استعراضي كأنه مَسيرة كَوْنية، قبل أن ينتهي إلى الأبد في بَحْر ساعات عصر الذاكرة والوَعي. وعندما تعتريني هذه الأفكار نيابة عن كِيان يَفوقني بكثير، أكون طَوال الوقت في المركبة، كما لو أنه المكان الذي يتعيَّنُ علي أن *أكون* فيه وأبقى كلّما تملّكتني تلك الأفكار. لا أختبرُ ولا مرّة واحدة صَحْوًا جزئيًا، مثلما يحدثُ للمرء غالبًا في الأحلام، عندما يدرِك أنه يحلم، ثم يعود ويواصل حلمه بلا مبالاة. *أنا* في تلك المركبة الفضائية بعد أن ارتطمَ كُوَيْكب سَيّار بالأرض في الأسفل. أتذكّرُ تفاصيل لوحة أجهزة القياس وجميع الشاشات وواجهات العَرض، وفي إمكاني أن أرى جيف وحسّان بوضوح – أنا أعرفهما حقَّ المعرفة أكثر مما أعرف أي أحد آخر، تقاسيم وجهيهما وخطوطها، وقد أمضينا معًا ساعات وساعات في تلك المركبة الضيّقة، والآن هما في مقعديهما هامدان.

تأخذُ طريقةُ اختباري لكلّ ما أواجهه مَنحى ثنائيًا، لأنني في الوقت نفسه قادر على الخروج من المركبة لأرافقكِ في جميع الأماكن التي زُرناها من قبل، إنه كما لو أنني أعيش تجربة خروج من الجسد قوية. الأمر بأكمله مفكّك وغير منطقي، ومع ذلك أجدني قادرًا إلى حدٍّ ما على اختيار المكان والزمان اللذين أريد أن أعيشهما على الأرض، مثلما يفعل الكُهَّان في رحلاتهم الروحية. عندما أكون وإياكِ في "نورماندي"، نحن هناك فعلاً. وعندما نجلس على صخرة نأكل السمك المشوي عند هضبة "هاردانييرفيدا" نحن نفعل ذلك حقًا، لأنني أستطيع حتى استدعاء رائحة السمك المطبوخ. ليس هناك حياة بين حدث وآخر، ولا ترتيب في الزمن. لا شي سوى الاستمرارية، سوى الخلود؛ مثل طَبَق هائل يمكن اقتِلاع قِطَع فُسَيْفِساء صغيرة منه – لا، بل هي قِطع فُسيْفِساء من زجاج ملوَّن مصفوفة في مِشْكَال أُمعِنُ النظر فيه وأنا جالس في مركبتي الفضائية، ولي حرية اختيار قِطعة الذاكرة التي أريد التركيز عليها واختبارها ثانية.

فجأةً يخالجني شعورٌ بأنكِ ما زلتِ حيّة في الأسفل تحت سجّادة السُّخام والغبار والفحم السميكة. بل يُومِض ذهني بفكرة أنكِ قد تكونين المخلوق الوحيد الذي نجا من الموت. هذا مَنْطِق الأحلام، أو على الأصحّ مَنْطِق افتقار الأحلام إلى أي مَنْطِق. ومنه نبعَ اقتناعي بأنكِ نجَوتِ لأنكِ سعيتِ إلى اللجوء إلى أحد الأنفاق العميقة في غرب البلاد، وأن مساعدتي على الترول مهمّتكِ. لا أحد سواكِ يستطيع مساعدتي على الترول. قريبًا سأسقط في اللسان البحري تحت جليد "يوستدالسبرين"، وأنتِ من سيفتح المركبة المتخبِّطة في وسط الخليج. يبدو هذا في الحلم سهلاً جدًا، لأن ما عليكِ فعله لا يتعدّى التجديف في مركب وانتشالي.

أعيش ثانيةً رحلة التجديف البحرية التي قُمنا بها عبر الخليج آنذاك. افترشنا العشبَ عند مخزن التِّبن على الشاطئ البعيد وأخذنا حمّامًا شمسيًا. ذهبنا إلى هناك لأنكِ لم تستلطفي فكرة الاستلقاء تحت الشمس عارية الصدر في المرج المواجه للفندق. أرانا مُستلقيين هناك. الجوّ حار، ودرجته لا تقلّ عن عشرين. وذلك لا يهمّنا لأننا نعرف أننا تركنا زجاجة شراب فوّار عند ضفّة الماء لتبرد. بعد فترة قصيرة نُجدّف عائدين، ونلمح في رحلة عودتنا بعض خنازير الماء تسبح من "باليسْتراند" موغلةً في الخليج. ينتابنا القلق عندما تدنو منّا وتحومُ حول قاربنا عدّة مرات، إلا أنها سرعان ما تُقلِع مبتعدةً.

أدور وأدور حول الكوكب الأسود. مؤلمٌ إلى حدٍّ يفوق الوصف إدراكي أنه لم يتبقَّ هناك إلا ساعات قلائل قبل أن يُجرِّد الكَوْن من الحياة الرُّوحية. أَشْبِكُ يديّ وأصلي لإله لا أُصَدِّقُ به: *رجاءً، رجاءً، أعِد عقارب الساعة إلى الوراء! امنحني فرصة واحدة أخيرة رجاءً! ألا يستحقّ العالَم بأسره أن يحظى ولا بفرصةٍ واحدةٍ أخيرة؟*

ثمّ يحدث شيء غريب، شيء ما أمكن حدوثه ولا في الأفلام، وهذا طبعًا

نوع مختلف كلّ الاختلاف عن الأفلام، هذا حُلْم. يشرع جيف وحسّان على حين غرّة في التحرُّكِ ويفتحان أعينهما. وعندئذ؟ عندئذٍ يضْمَحِلّ كلّ ما يلفُّ الكوكب من سُخام وغبار، وأرى الأطلسي الداكِن الزرقة في الأسفل. ونحن الآن نطير في الأعالي متَّجهين إلى ساحل إفريقية الغربي...

وهنا استيقظتُ. لم أصدِّق أنه ليس إلا حُلْمًا. وحسّان وجيف هما أغرب الأشياء على الإطلاق في هذا الحُلْم. كانا مُفْعمين بالحياة وواقعيين جدًّا، ولم يشبها أي شخص قابلتُهُ في عالَمنا الحقيقي. ومنذ ذلك الحين لازمني شعور آسِرٌ بأن أنماط الواقِع المُوازي موجودة حتمًا، وأن مثل هذه الرحلات الرُّوحية مُمكنة الحدوث.

في الخارج كانت بعض قُصاصات السَّديم ما زالت تطفو فوق سفوح الجبال. إلا أن مجال الرؤية تجاه الخليج بدا جيدًا.

نزلتُ إلى صالة الطعام وتناولتُ الفطور، مستغرقًا استغراقًا تامًا في حُلْمي. ثم حملتُ فنجانًا طافِحًا بالقهوة وخرجتُ إلى الشرفة.

وهناك كنتِ!!!

نعم، هناك كنتُ يا ستاين. ولعلكَ أدركتَ وأنتَ تراني أمامكَ أنكَ أبصرتَ حُلْمًا استشْرافيًا؟

في الحقيقة...

هل أنتَ مشغولٌ بشيء مُعَيَّن؟

لا. لماذا؟

أتساءلُ ما إذا كان لديكَ ما يشغلكَ هذا المساء.

لا، أبدًا. ذهَبَت زَوجتي بيريت إلى المسرح مع أختها وأنا وحدي هنا.

في هذه الحالة أرى أنه يجدرُ بنا متابعة حوارنا. نيلز بيتر خارج البيت يلعبُ "البريدج" مع بعض الأصدقاء. والمساء كلّه بتصرُّفِنا. إنني في الحقيقة أشعرُ بالتوتُّر، على الرغم من أن الجلوسَ هنا وتأمُّل المدينة من النافذة ممتعٌ جدًا...

ماذا عنكَ؟ أين أنتَ في هذه اللحظة؟

أنا في مكتب مُتواضِع في الطابق الأوَّل من البيت. ومكتبي، مثل مكتبكِ، أمام نافذةٍ تُطِلُّ علي البلدة. بدأ الظلامُ الآن يهبطُ على "أوسلو"، ومع هبوطِه غَدَت أضواءُ المدينة أكثر سُطوعًا. وهذا يُتيح لي أن أَستَشِفَّ "إيكبرغ" و "نيسودين".

أما أنا فأرنُو في هذه اللحظةِ إلى الميناء وكنيسة "كورسكينكن" و "يوهانس كيركن" التي تقعُ في الخَلف مباشرةً. وكذلك يمكنني أن أرى محطَّة الإطفاء وقاعة البلدية أمام بِركَة "ليله لونغه غوردسفان".

هناك كنتِ، كتبتَ تقول يا ستاين، وربما أدركتَ عند ذاك أن حُلْمَكَ كان تَنَبُّؤيًا...

لا تَنْسي أنني عندما وصلتُ إلى الفندق المعهودِ في المساء السابق، تهيأ لي أنني قد أصطدمُ بكِ في أي لحظة، في الرَّدْهَة أو في صالة الطَّعام. كلّ درجةٍ صعدتُها إلى غرفتي ذكَّرتني بكِ، وكلّ صورة، وكلّ لوحة حائطٍ مَنسوجة. وكُشْك الهاتف القديم، هل تتذكَّرينه؟ أو لأضعَ لكِ هذا بطريقةٍ مختلفة، ما لاحظتُه بقوَّةٍ عندما انتهيتُ إلى فندق "مندال" أنكِ لستِ هناك. كنتِ في الواقع – غيرَ حاضِرة – في جميع الأمكنة. ولذا لا أجدُ ما يَستدعي الدهشة في أن أَحلمَ بالزَّمن الذي قضيناه معًا. الغريبُ في ذلك كلّه أن أراكِ فجأةً واقفةً هناك على الشُّرفة. وهذا ما وصفتُهُ بأنه حَظّ ميمونٌ استثنائي. إلا أن وجودكِ الفِعلي في ذلك المكان، لم يكن *السبب* الذي جعلني أحلمُ بكِ.

أحقًّا؟ مع العِلْم بأنني كنتُ طَوال تلك الليلة، وبينما أنتَ تدورُ حول كَوكبكِ المُتَفحِّم، أضطجعُ على سريرٍ في الجِوار، ومستغرقة في النوم مِثلكَ. ألا ترى يا ستاين، إذا أخذنا كلَّ ما أبصرتَه في حُلْمكَ بعيْن الاعتبار، أن هناك احتمالاً قويًا يُرَجِّح حدوث شيء من قبيل المُناصَحةِ الفِكْرية بيننا؟ هل تَعلَم أن المرءَ أكثر عُرْضة لاختبار توارُد الخواطِر والاستبْصار وهو يحلم؟ وذلك في فترة تُدعى *الرِّيم* أو نَوْم حركات العَين السريعة؟ وهي ظاهرةٌ مُتعارَف عليها وتُسمَّى *الأحلام الخارِقة للطبيعة* أو أحلامًا خارِج القَنوات الحِسّية الطبيعية. هناك كَمٌّ لا يُستَهانُ به من الأبحاث المخْبَرية المُتعلِّقة بها، ولدينا أيضًا دراسات أَنْثروبولوجيَّة (عِلْم الإنسان) تُظهِر الشيء نفسه بالضبط. هل قرأتَ في يومٍ المَلْحمة "الأيسلَندية" "غونلو أورستيون"؟ أو اطَّلَعْتَ على أحلام النَّبي يوسف في سِفْر التَّكوين بما أنها أكثر شهرة. تلك كلّها أحلام تنبُّوية أو استبْصارية نموذجية.

قَرَأَت لي أُمّي مَلْحمةَ "هيلجا وغونلو وهرفان" وأنا صغير. لعلّكِ ما زلتِ تَذْكُرين يا سولرن أنني وُلِدتُ في "أيسْلندا"؟ والسؤال الذي يطرحُ نفسه في هذا المقام هو ما مَدى صحَّة هذه الأحلام المَلْحَمية حَرْفيًا. من ناحية أخرى أُوافِقكِ على أن تأويلَ الأحلام عالَمي تقريبًا، أعني تأويلها على أساس أنها تُعبِّر عن شيء يخصُّ المستقبل.

تضمَّنَ حُلْمكَ يا ستاين جميع العلامات المميّزة لما يَصِحُّ أن أدعوه حُلْمًا *شفّافا*. كان على ما أرى من الأحلام الإلهامية المِثالية. ألستَ مَعي في أنه جِدُّ عميقٍ ومُعَبِّر؟

أنا معكِ في هذا. ولقد أخبرتُكِ ونحن هناك عند كوخ الراعي بأنني أبصرتُ حُلْمًا غيرَ عادي في قوَّته وحَيويته. وأنني شُدِهْتُ وأنا أراني أمشي معكِ بعد بضع ساعات من استيقاظي. أو هل ينبغي لي أن أقولَ بعد بضع ساعات من إنزالِكِ لي من الفضاء؟ بقدر ما يتعلّق الأمر بي، كشفَ الحُلْم الشيء الكثير عن حقيقةِ أن تلك السَّنوات التي قضيناها معًا ما زالت تواصل حياتها في داخلي وما زالت تؤثّر فيّ، وربما أيضًا يعتمِل في داخلي شعور بأنني منذ أن أبصرتُ هذا الحُلْم عُدْتُ قليلاً إلى 'الْمَدار'، وأن الحياة التي عِشْتُ من بعدكِ كانت على نحوٍ ما خارج ذلك المَدار. ولا يخفَى عليكِ أن مُعظم الأحلام غالبًا ما تتعززُ بشيء جرى مع المرءِ في اليوم السابق. وقد قضيتُ ذلك اليوم وأنا أسافرُ عَبْر أرضٍ يُغَشّيها السَّدم.

كان حُلْمكَ إلى جانب شفافيته مُفزِعًا وأقرَب إلى الكابوس، ويكادُ يوحي بأنكَ مُتَعطِّشٌ إلى شيء تُؤمِن به. ففكرةُ أنكَ وَعي الكَون الوحيد تستجديكَ لِتُفَنِّدها. أعني أنكَ تستجدي نفسكَ لِتَنْبُذَ هذه الفكرة غير الصائبة. لا تنسَ يا ستاين أن هناك الكثير مِنّا، أعني الكثيرَ من الأرواح في هذا الكَون. وأنا أعتقدُ أننا أرواحٌ تفوق العدَّ والحَصْر. لا أعرفُ عَددنا طبعًا، غير أنني أظنُّ أنه لا مُتَنَاهٍ، لا متناهٍ مثل لألاء الشَّمس على وَجنةِ البحر في يومٍ صَيفي.

على رِسْلِكِ يا سولرن، يُؤسِفني أنني لا أستطيعُ مجاراتكِ في هذا، فهَلاَّ عَذرتِني؟

أعذركَ وزيادة. وأسامِحكَ من صميم قلبي. فأنتَ كما هو واضح تؤمِن بأن المادّة ستُعَمِّر بعد الروح، وهذا ظهر جليًا أيضًا في حُلْمكَ. وذلك أنه في يومٍ

ما، سيُكْتَبُ الاستمرار لهذا الكون العِملاق بأكمله بعدَ أن يتخلّص مِنّا كما لو أننا مجرَّد نُفايات سطحية. ما أؤمِن به هو النقيضُ تمامًا. فأنا أكادُ أجْزِم بأن أرواحنا ستصمُدُ في وجه هذه الأوحال المادّية. وإذا كان ثمّة أمر نتّفقُ عليه يا ستاين فهو أن كلّ الأشياء الطبيعية ستَضمَحِلُّ في نهاية المَطاف.

نعم أنتِ مُحِقّة. هذا، لسوءِ الحَظّ، من النتائِج الحَتْمية لقانون الدّيناميكا الحرارية الثاني.

وفي المقابِل يا ستاين، ليس هناك مَبدأ مُكافِئ يقول إن الاضمْحلال المَرهون بوَيْلات الزَّمن يمكن أن يَطالَ ما هو روحي بأدنَى أثر.

تَعْنين لأن لدينا روحًا حُرّة قادِرة على النجاة بعد مَوْت الجسَد. أظنّني أُدرِكُ ما تَرمين إليه.

تَخَيّل يا ستاين أنّكَ ذاهبٌ لتتمشّى في الغابة، فَتَسلُك دربًا لم تطرُقْها منذ بضعة أسابيع، فجأة تُشرِف على كوخٍ خشبي لم تَرَه من قبلُ قطّ. ومُجرّد وقوعكَ على ذلك الكوخ المُشيَّدِ هناك غريب بما فيه الكفاية بالنسبة إليكَ، ثم، بينما تقفُ أمامه تتأمّلُه، يُفْتَح بابُه ويُطِلُّ منه رجل باسِم المُحيّا، عيناه زرقاوان لامِعتان، وأسنانه ناصِعة البياض. يبدو ذلك الرجل أنه خُلِق وفْقَ أدَقّ المَقاييس. ولا يلبثُ أن ينحنيَ لكَ باحترامٍ ويهتفُ، صباح الخير، صباح الخير! الإطار سُرْيالي، مُحاط بالإبهام.

وعندئذٍ ينبثِقُ السؤال؛ ماذا جرَى بالتّحديد؟ هل شيّدَ الكوخَ نفسَه

أولاً من بعض أشجار الغابة ثم لِتَشيعَ في أنحائه الحياةُ خَلَقَ الرجلَ؟ أم أن ما جرى هو عكس ذلك: هل بَنى الرجلُ الكوخَ ثم سكَنَه؟

أتساءلُ أيّهما أقربُ إلى التصديق في نظَرِكَ؛ أن ما ظهَرَ في البداية كان شيئًا روحيًا أم شيئًا ماديًا؟ في وصفكَ لرحلتكَ انتهيتَ إلى ما لخّصتَه بقولِكَ إنكَ تستطيع استشفاف علاقةٍ بين الوَعي وبين ما حدَثَ 'في الكَون في كَسْرِ الميكروثانية الأولّ'. الآن أسألكَ أيّهما في رأيكَ ظهرَ أوّلاً: الوَعي أم تَفريغ الطاقة الهائل الذي وقعَ في تلك الثانيةِ الأولى؟

بل أَلَمْ تَزْعُم أنه قد يكون 'هناك شيء في الأعلى، في ما وراءَ أو ما قبلَ الزّمان والمكان اللذيْن ولّدَهما الانفجارُ العظيم'؟ إنها كلماتُكَ أنتَ. وبالتالي، ألا ترى أن اعتبارَ الانفجار العظيم *بداية* كلّ شيء يَنْطوي على التّحريف؟ إن ما نعرِف أنه لُغز العالَم الأكبر قد لا يكون إلا مُجَرّد استمراريةٍ صارِمة مِن حالةٍ إلى أخرى.

لا أدري يا سولرن. لا، ما عُدتُ أدري حقًا. إننا لا نعرف شيئًا.

كنتَ أسيرَ اليأسِ في حُلمِكَ. شعرتَ بحاجةٍ كبيرةٍ إلى أن تُنْقَذَ من نظرتِكَ الماديّة للعالَم. لا بَل بلغَ بِكَ الأمرُ حدَّ الصلاة لإلهٍ لم تؤمِن به. هذا بلا ريب مُنْتَهى العَجْز.

تُرى، ألا تَستَشِفّ أي بارِقة أملٍ في إمكانية تَلاقينا فِكريًا؟ ولا حتّى بعدَ حُلْم *كذاك*؟ حلْم جاء كأنه إعلانٌ عظيمٌ نيِّر عن تَحلّيكَ بِبُعْد روحي عميق. وقد استُجيبَت صلاتكَ. لا بدّ من أن هذا يعني، أنكَ لا شعوريًا على الأقلّ، تَشُكُّ في مِصداقية علْمانيتكَ.

أَلَمْ تَمُرّ قطّ بأي *تجارب* يا ستاين؟ أَلَم تختَبِر في يومٍ شيئًا يمكنكَ تأويله أنه تلميحٌ روحي أو تجاوُزِي؟

تعلَم أن الساعة لم تتجاوز العاشرة بَعد، وليس في نِيَّتي اللجوء إلى السرير في وقتٍ قريب.

بَلَى، واجهتُ شيئًا – أخذَ مجراه خلال سنة ١٩٧٠. كنتُ قد عزَمتُ على إخبارِكِ به في ذلك اليوم من تَمّوز، عندما جلسنا بين أطلال كوخ الراعي المَهْجور، وما عَوَّقني إلا رغبتي في إخراج ذلك الحُلْم المسيطِر عَليَ من نظامي. ثم ظهَرَت العُجول، وتعرفين ماذا حالَ دون أن نتبادلَ حِوارًا يُذْكَر وَنحن نهرعُ عائدين. أعتقدُ أن المَوْقِف تحدَّث عنّا بما فيه الكفاية، والإقرار بهذا ونحن في هذه السِّنِّ مُؤلِمٌ. كان هناك شيء ما، كما تعلَمين، جعلَنا فجأة مُحْرَجين قليلاً من بعضِنا. وعلى الفَوْر ما عادَ لدينا ما يُقال. ولذا اقترحتُ أن نبدأ على الأقلّ في استخدام البريد الإلكتروني العجيب لِنتراسل. تتذكَّرين أنني أشَرْتُ إلى هذا ونحن في الأسفل عند مَيْدان الرِّماية ومخزَن الحبوب الأحمر. وحالما عثَرْنا على زوجكِ في المكتبة، انقطعَت جميعُ سُبُل الحديثِ بيننا. وكنتُ قد فكَّرتُ في أنه يمكننا نحن الثلاثة الانتهاء إلى تناولِ القهوة معًا، وذاك لم يُقَدَّر له الحدوث.

كانت قد مَضَت سنة على رحيلكِ عني قبل أن يَصِلني خبرٌ منكِ. طلبتِ مني أن أَحْزِم أغراضَكِ وأُرسلها إلى "بيرغن". لم تكن مهمّةً سهلةً، كما أَلْمَحْتِ في رسالتكِ الأخيرة، لأن مُعظَم ما اقتنيناه، اشتريناه معًا. عشنا في الشَّقَّة نفسها منذ أن كنّا في التاسعة عشرة، لذا صَعُبَ علي أن أرسمَ بعد خمس سنوات خطًا فاصِلاً بين ما هو لكِ وما هو لي. وأظنُّ أنني بَسَطتُ يدي بما يكفي بحيث لم تَخرجي خالية الوِفاض. كانت القيمةُ العاطفية تحتلُّ مركزَ الصدارةِ، وكنتُ أعرفُ الأشياء التي تعزّينها أكثر من غيرها، مع أنه

ليس هناك أي قاعدة تنصّ على أن ما يُقَدِّره المرءُ أكثر من غيره هو بالضرورة أقلّ أهمية للشخص الآخر، والأمرُ هو غالبًا على النقيضِ من هذا. تتذكّرين بلا ريب ذلك الجَرس الزُّجاجي الذي اشتريناه من "سمولانْد" بعد أن قَصَدنا "سكيين". على الرغم من أنني أنا أيضًا كنتُ مُتعَلّقًا به، حَرِصتُ على لفّه بعنايةٍ بمناديل ورقية وأرسلتهُ لكِ. عَساهُ وصلكَ سليمًا، وعَساهُ ما زال قطعةً واحدة.

سمعتُ مرّةً حكايةً عن زوجين أرادا الانفصال. أجْمَعا على أن الانفصالَ هو أفضل خطوة يُقْدِمان عليها، وبروحٍ تعاونية أخَذا يقتسمان كلّ ما لديهما من كُتُب. وسرعان ما تَبَيَّنا أن أي كتاب يريد أحدهما الاحتفاظَ به، هو الكتاب الذي يرغبُ الآخَر بشدّةٍ في الحصول عليه. تكرَّرَت هذه الحالة مع المزيد من الكُتب التي حاولا اقتِسامها، ثم إذا بهما ينغَمِسان في مُناقشة بعض الأعمال الواردة في تلك الكتب، واكتشَفا أنهما أكثر تناغُمًا من أن يفترقا. ما زالا إلى اليوم معًا، وهما ينظُران إلى ما وَقَف وراء تَخطيطهما للفراق أنه مرحلةٌ ثانوية لا قيمة لها أبدًا.

في حالتِنا قامَت الكتبُ بدورٍ كبير ولكن بتأثيرٍ مُعاكِس. ما يدور في خَلْدي الآن مكتبتكِ الخاصّة، وعلى وجه التحديد كتاب مُعيَّن فيها. وأنت تعرفين أي كتاب أعني. أحيانًا يتضمّن كتابٌ واحد قوّةً مُدمِّرة أكثر من أي "مَرحلة ثانَوية".

ما كدْتُ أحزِم أغراضَكِ وأرسلها لكِ، إلا وشعرتُ بأن فِراقنا قد وُسِم بخَتْم المُصادَقة. لم نحتَج إلى وثائِق عندما عِشنا معًا، ولم نحتَج إلى أي منها في فراقِنا.

من بعدِ ما ذهبتُ إلى مكتب البريد وشحنتُ لكِ الصناديق الثلاثة في ذلك الصباحِ لم أَعُد إلى البيت. ركبتُ الفولكسفاغن وقُدتُها على الطريق السريع حولَ المدينة ثم انحدرتُ إلى "درامينسفين" كما قد أفعلُ أنا وأنتِ في أي وقت، لأنني لم أكُن على بَيِّنة من وجهتي إلا بعد أن خلّفتُ "ساندفيكا"

ورائي في طريقي إلى "سوليهوغدا" و "هونيفوس".

بعد خمس ساعات تجاوزتُ "هاوغاسْت أوول". ثم أوغلتُ في التقدُّم جنوبًا، وصعدتُ إلى هضبة "هاردانيرفيدا"، حيث أوقفتُ السيارة وتلمَّسْتُ طريقي إلى مخيّمنا إياه. تسَكَّعْتُ في تلك الأنحاء، ثم جلستُ لفترةٍ ليسَت بالقصيرة، قبل أن أعودَ إلى السيارة وأنطلِق مبتعدًا.

بدا المكان كما لو أننا لم نغادرْه إلا في اليوم السابق. زحفتُ إلى قَلْب 'كهفِنا' ووجدت فيه أريكتنا إلى جانب فِراء الحَمَل الذي تركناه على طبيعته. ففي تلك الأيام رأيتِ أن المُزارعَ قد يعتَبره تعويضًا في حالِ عثر شخصٌ ما عليه وهو يجمع قطيع الخِراف. أردتِ دائمًا أن تَفي ديونكِ. إلا أن ذلك الفِراء بقي في مكانه من غير أن يمسَّهُ أحد.

لا أستطيعُ القولَ إن الدُّخان كان ما زال يتصاعَد من مَوقِد النار، لكنني وقعتُ على بقايا أغصان العَرعَر وأفنان البتولا المتفَحِّمة مُتناثرةً حيث تركناها بين أكوامِ الحجارة. عثرتُ على آثارٍ أخرى كثيرة لنا هناك. ووجدتني أنْخرِطُ على نحو شبه مَنْهَجي في مُهِمّة أقرَب إلى تَعقُّب آثار مُتَلَهِّفٍ. اكتشفتُ أنكِ خَلّفتِ وراءكِ فردةً من قُفّازكِ الأخضر، وقطعةً نقديةً من فِئة خمسة "كرونر"، وكذلك دبُّوس شَعْر من المعْدَن الخفيف. إنما ألا يَخرِق دبُّوس الشَّعْر قوانين العصر الحَجري؟ لا أتذكّر أنكِ استخدمتِهِ، وأرجِّحُ أنه سقطَ من جيبكِ ليس إلا. فشَعْرُنا أصبحَ بعد فترة أشعَثَ ومُنْتَفِشًا. اعتبرنا مُستَحضرات التنظيف والشامبو من الممنوعات، واستَعَضْنا عن الصابون بأوراق البتولا القَزَمة والأشْنَة والطحالب. عثرتُ أيضًا على بعض خُطّافات الصَّيد التي صنعناها، ووخَزَني شيء من الخِزي من كثرة الحَسَك المتَبَعثِر خارج كهفنا، إلا أنني واثقٌ من أنهم فعلوا الشيء عَينه في الكهف "الكرومانيوني" المشهور. بل أظنُّ أن هذا ما قالَه أحدنا للآخر. يحقُّ لنا أن نتصرّفَ بشيء من الفَوضى، قُلنا. كان مُهمًّا لنا أن نعيش تجربة أصيلة قَدْر الإمكان. نظرنا إلى أنفسنا على أننا مجرّد بَشَر، بَشَر فقط. وأننا

ما تَخَطينا عتبةَ الحيوانية إلا توًا، ما عنَى أنه ينبغي علينا عَدم التَّحَلّي بكثيرٍ من اللباقة، بل علينا أن نكون فَطِّين ومُتَحفِّزين نوعًا ما.

ثمّ، مِن غير أي تمهيد – لأن ذلك طَرَأ فجأة – شعرتُ أن زِمَام نفسي قد أَفْلَتَ مني، وأنني ذُبْتُ في الطبيعة المُحِيطة بي. حدوث هذا هناك في ذلك المكان والزمان بدا وَلِيدَ الصُّدْفةِ، لأنني لم أفعَل شيئًا يَستَدعيه. كنتُ ببساطةٍ مَغْمورًا بفكرةِ أن ما دَرَجْتُ على اعتبارِه 'أنا' أو 'لي' ما عاد ساريَ المفعول؛ وأنه لم يكن إلا وَهْمًا.

سَلّمتُ نفسي، وهذا لم يولِّد فيَّ أي شعور بالخَسارة، بل مَنحني شُعورًا بالعِتْقِ والخُصُوبة، لأنه تَزَامَن مع امتلائي بفكرةِ أنني أكثَر بكثير من الأنا البائِسة التي ما بَرِحتُ أقلَقُ عليها من قبل. لم أكُن أنا فقط لا غَيْر. نعَم هذا ما أدركتُه بكلِّ بساطةٍ. كنتُ أنا، وكنتُ أيضًا الهضبةَ التي من حولي بأسرها، البلاد بأكملِها، لا بل كلّ ما هو موجود، من أدَقِّ يَرَقَة صغيرة إلى المَجَرَّات في الأعلى. كان كلّ ذاكَ أنا، وكنتُ أنا كلّ ذاك.

تلك الحالة من الوَعي التي وجدتُ نفسي فيها يتعذّرُ وصفُها. شعرتُ وأدركتُ في وقت واحد أنني الصخرة التي أقْتَعِد – وتلك التي هناك، وتلك وتلك، وكذلك كنتُ نبات الخلنج، وثِمار "الكروبيري" والبتولا القَزَمة التي تُجَلْبِبُني. ثم تناهَى إليّ تَغريدُ الزَّقزاق الذّهبي الحزين، وذاك كان أنا أيضًا: أنا من غَرّدتُ، وأنا من استَرعَيْتُ انتباهي إلى ذلك التَّغريد.

ابتسمتُ. إذ لطالما كانت لدي تحتَ سَطحٍ مُكَدَّر من الانطباعات الحِسّية، ومن الإرادة والرغبة، هُوِّية أعمَق؛ شيء ساكِن وهادئ مرتبطٌ بكلّ ما في الوجود، والآن، أصبح ظاهرًا لي في اللحظة المَعْيوشَة، وغَدَا سطحي الهائِج رائقًا. أدركتُ أنني كنتُ ضحيةَ أكبر خُدْعَة في العالَم، خُدْعة افتراض أنني شيءٌ منفصل انفصالاً تامًا عن أي شيء آخر. لم أكُن بالتأكيد أختبرُ أي شيء يَمُتُّ إلى عالم الغيبِ بصِلة. بل على النقيض، كانت صِلته بهذا العالم جَذْرِيةً.

سيطرَ عليَ شعورٌ بغياب الزَّمن. لا يَسَعني القول إنني شعرتُ كما لو أنني انفصلتُ عن الزَّمن، بل شعرتُ تقريبًا أنني نُسجتُ فيه، ولم أُنْسَج فقط في اللحظة الراهِنة العابرة التي عِشتُ، إنما في الزَّمَنِ كلّه. لم أكُن أعيشُ حياتِي وحدي فقط. لمَ أكُن فقط الـ هُناك والـ آنذاك، كنت الـ قَبْلَ والآنَ والـ بَعْدَ. كنتُ أنمو في جميع الاتجاهات، وهذا ما سأواصلُ فِعلَه دائمًا، لأن الكلّ واحِدٌ، والواحِد والكلّ أنا.

ثمّ بدأت الأشياءُ كلّها تتلاشى، التجربةُ التي أصِفُ كانت تجربة عَرَضية. أُتيح لي في أثنائها أن ألقيَ نظرةً سريعةً قَريرة على الخُلود، على ما وُجد من قبلي وما سيوجَدُ من بعدي، مع أن الحالةَ نفسها لم تستغرِق إلا ثوانٍ فقط. إلا أن تجربة خروجي من الجسد هذه أكسَبَتني بصيرةً جديدةً كلّ الجدة، بُعْدًا عرفتُ أنني سأحمله معي طَوال حياتي.

أظنُّني أَفَضتُ كفاية في الحديثِ عن تجربة أو حالة الوَعي تلك. وعلى الرغم من أن ما حاولتُ استرجاعَه كان أصيلاً تمامًا، أعتقدُ الآن باستيعاب متأخِّرٍ أنه من الممكن أيضًا إلى درجةٍ مُعَيَّنة بلوغ هذا الإدراك من خلال الفِكْرٍ النَّقي.

نقول غالبًا إننا من العالَم، *في* الكَون أو *على* الكَوكب. جيّد. إنما، ألا ترَين أنها قد تكون لعبةً مُغْرية، عدا عن كَوْنها تدريبًا على التَّحَرُّر، أن نُسْقِط حروف الجرِّ المزعجة هذه؟ *أنا* العالَم. *أنا* الكَون.

وصلتُ إلى حالة وَعي يتعَذّر التعبير عنها وأنا هناك عند الهضبة. أما ما اختبرتُه فهو حقيقي. نعم، هذه حقيقة — أنا العالَم – هي الحقيقة فعلاً.

ما رأيكِ الآن؟ أتَستَشفّين أي أمل لتسوية ما بيننا من خِلاف على طول الخطوط التي رسمتُها هنا؟ هل أنت قادرةٌ على الاستمتاع بفكرة أنه سيكون هناك أرانب بَريّة وطيور طَيْهُوج وغِزْلان رَنَّة تندفع مُفْعمةً بالحيوية في أرجاء هضبة "هاردانييرفيدا" على امتداد مِئة سنة أو ألف سنة أو مليون

سنة؟ وهل يمكنكِ إلى جانب ذلك أن تشعري بطريقة ما بأنكِ *أنت* تلك الوَفْرَة التي ستَفيضُ من بعدكِ؟ هل يمنحكِ وَعي كهذا ولو ذرَّة هدوءَ بال، بقدر ما يمنحكِ إياه تصوّركِ الأثيري لـ 'أناكِ' الصغيرة وهي تُعمِّر بعد وجودها الدُّنْيَوي لتصبحَ 'روحًا' في جنّة الرُّوح؟

تَخيَّلي معي المُعْضِلة التالية؛ على الطاولة أمامكِ زرّان تستطيعين الضغطَ عليهما. إذا ضغطتِ أحدهما، ستموتين فورًا، ولن يكون هناك حياة فردية لكِ بعدَ هذه الحياة، إلا أنكِ في الوقت نفسه ستضمنين استمرار كلٍّ من البشرية وجميع أشكال الحياة على كَوكبنا في أزْمِنة قادِمة. وعلى امتداد أجيالٍ تفوق العدَّ والحَصْر ستجري الفتيات الصغيرات على شاطئ البحر الصخْري كما فعلتِ تمامًا في أواخِر الخمسينات. إنني قادر على رؤيتهن الآن بعَيْن خيالي، وأكاد أسمعُ حشود الناس المتَجَمْهِرة عند مُنعطف الحياة التالي ذاك. بيد أن هناك زرًا آخر على الطاولة أمامَكِ، وإذا ضغطتِهِ بدلاً من الأوَّل، ستعيشين بصِحَّة وعافِية إلى أن تتجاوزي المِئة. إلا أن البشرية جَمعاء وكلّ الحياة على الأرض، وهنا تكْمُنُ المعْضِلة، ستموت معكِ حالما يأتي أَجَلُكِ.

فأي الزرّين تختارين؟

بالنسبة لي أعتقدُ أنني لن أتردّدَ في اختيار الأوَّل. لا أحاول هنا ادّعاء الوَرَع أو الإيثار، لكنني أدركُ أنني لستُ مجرّد أنا، ولستُ أعيش حياتي وحدي فحسب. وإذا تمعّنتُ في العُمْق أكثر، فأنا الجنس البَشري أيضًا، *الجنس البشري* الذي يَحْدوني الأمل في أن يستمرَّ في الازدهار بعد رحيلي؛ لا بل أرى أنه ينبغي عليه الاستمرار بدافِعٍ من رغبة أنانية، لأن مَراسيَ الكثير مما أعتَبرُه يُمَثّلني مُلقاةٌ في مكان خارِج جسدي. ونحن شبه مُتَّفِقان على هذه النقطة. أنا لستُ هذا الجسد الذي لي فقط، وليسَت كلُّ الأشياء مرهونة به إن انطلَقَ أو وَقَعَ.

لا ننفكُّ في وقتنا الحاضِر نقع في حبائل خُدْعَة أن الأنا هي وحدها مَرْكَز الكَون. ألا ترين أن هذا النَّهج الحياتي مُرْهِق جدًا؟ أعني إذا أخَذنا بعين الاعتبار حقيقة أن فُرَصَ دَوام مِحْوَر الكَون هذا لا تتعدَّى بضع سنوات أو عُقود.

اختبرتُ تحريرًا للرُّوحِ هناك عند الهَضبة. شعرتُ كما لو أن سَراحي أُطْلِق من عُبودية الأنانية. كان ذلك أشبه بتقطُّع بعض القيود التي ما بَرِحَت تُضَيِّق عليَ الخِناق، قيود الأنا أو الذّات.

لَدَيَ بَعْدُ ما أقولُه، فهذا ليس كلّ شيء.

على الرغم من أن الوقتَ كان في حدودِ الرابعة عندما عدتُ إلى السيارة، رأيتُ أنه يجدُر بي التوغّل غربًا قليلاً بدلاً من العودة مباشرةً إلى البيت في "أوسلو". وما لبثتُ أن تجاوزتُ "هاردانييرفيدا"، وبدا لي أن لا مانِع من متابَعة الطريق إلى "مابودال" أيضًا، ثم ركبتُ عبَّارةً لأقطع الخليج من "شينسارفيك"، وبعدها قُدْتُ السيارة إلى "نوردْهايمسوند" ثم الدرب كلّها إلى "آرنا" عبر "كفامْسكوغن". حينما أصبحتُ هناك فكّرتُ في الرجوع، لأن الوقت أشرَفَ على المساء، ومسافة العودة إلى "كرينغشو" أكثر من ٤٠٠ كم.

لم أستطِع العودة وقد غدوتُ قريبًا جدًا منكِ، فتابعتُ التقدُّمَ إلى وَسَط "بيرغن" وأوقفتُ الفولكسفاغن الحمراء في "نوردنيس". مضيتُ بعدئِذٍ أجولُ في الشوارع. بدا تَصرُّفي مُنافِيًا للمنطِق، أدركتُ هذا حتى وأنا أقطعُ خليج "هاردانجر": إنه لَتصرُّف أحمَق، فقد كان في وسْعي أن آتيكِ بأغراضكِ بدلاً من إرسالها بالبريد، ولو أنها معي لوجدتُ عُذرًا مقبولاً للبحثِ عنكِ.

كنتُ متأكّدًا من أنني لن ألبثَ إلا وألتقيكِ في الشارع بعد أن قدتُ السيارة كلّ تلك المسافة. انعطفتُ عند إحدى الزوايا، وعندما لم أجدكِ هناك أقنعتُ نفسي بأنني سأصطدمُ بكِ عند الزاوية التالية. أخيرًا، شققتُ

طريقي صعودًا إلى "سكانسن" وطفقتُ أذرعُ ذلك المكان جيئة وذهابًا لفترة. ومع أنه سبق لي أن زرتُ شَقّة والديكِ في "سوندره بليكفيين" مرّتين تقريبًا، لم تَرُقْني فِكرة الوقوف في الخارج أمام البيت، فهذا يمكن أن يبدوَ مُغرقًا في إثارة الأشجانِ. و لم أُحَبِّذ أيضًا فكرة قَرع الجرس. خشيتُ أن أُقْحِم والديكِ بيننا وأسبّبَ لهما البلبلَة.

ثم فكّرتُ، أنتِ حتمًا ستقومين بنزهةٍ مسائية، أنتِ التي لطالما تَميّزتِ بضبطكِ لإيقاع تحرّكاتي وعرفتِ دائمًا أين أنا ومتى سآتي. تيقّنتُ من أنكِ ستستخدمين حاسّتكِ السادِسة وتخرجين للقائي. لكنكِ *لم تمتلكي* حاسَّةً سادِسة يا سولرن، أو لم تمتلكيها في ذلك المساء على الأقلّ. لم تمتلكيها في حال كنتِ في البيت آنذاك، إذ بقَدْرِ ما أستطيع التَّكهُّن ربما كنتِ في روما أو باريس. بدأ المطر ينهمِر. فمشَيتُ عائِدًا إلى "نوردنيس"، لأنني لم أحمِل مالاً يكفيني للمَبيتِ في فندق، مَشيتُ يلازمني الشعور بأنني سألتقيكِ قبل أن أصِلَ إلى السيارة. وفي النهاية اضطررتُ إلى ركوب الفولكسفاغن الحمراء وحدي، مُجعَّد الملابس والماء يقطُرُ مني. واضطررتُ إلى تشغيل المُحَرِّك والانطلاق. أَبيْتُ مع ذلك الاعتراف بخسارة المعركة، وتابعتُ البحث عنكِ بينما يمّمتُ خارج المدينة متسائِلاً ما إذا كنتِ في طريقك إلى البيت بعد زيارة أحد الأصدقاء. بل حتى وأنا في "نوردْهايْمسوند" لمحتُ قَوامًا فيه شبه عابرٌ منكِ. لم يكُن أنتِ. نجحتُ في عبور الخليج في الوقت المناسب، وعُدتُ إلى البيت في "كرينغشو" في الصباح التالي. انطويتُ على نفسي وبكيتُ. عاقرتُ المشروبَ ونمتُ.

لقد بُتِرَ واحِدنا عن الآخَر بعملية جِراحية، و لم يتوافَر هناك أي مُخَدِّر.

حسنًا يا ستاين...

بعد أن كتبتُ تلك الرسالة إليكِ داعبَني أملٌ ضئيلٌ ولكن متلَهِّف في أن تضعَ أغراضي في السيارةِ وتعبرَ بها الجبال، بدلاً من أن تشحنَها لي. كانت

فرصتنا *الوحيدة* والأخيرة. طبعًا فكّرتُ فيك كثيرًا في الأيام التي تلَت، وفي ذات مساء خطرَ لي أنكَ تجوبُ شوارع "بيرغن" حزينًا. تصورّتُ أنكَ جلَبتَ لي أغراضي في الفولكسفاغن الحمراء ولا تملكُ الجرأة لتأتي وتُسلّمها لي شخصيًا. لذلك خرجتُ. وفي تلك اللحظة بدأت السماءُ تمطِر، فهرعتُ إلى البيت لأحضِرَ مِظلّة وفِيَّ يعتَمِل شعورٌ مُلِّح بأنه لا بدَّ لي من العثور عليكَ في أسرع وقت. نزلتُ إلى سوق السَّمك وصعدتُ إلى "تورغالمينينغن"، ثم إلى "إنغن"، وعرّجتُ على "توستيت" و "نوردْنيس" أيضًا. ولم أجدكَ في أي مكان. بعد ذلك ساوَرَني الشكُّ في أنكَ قد جئتَ إلى "بيرغن" أصلاً، إلا أنني في أدنى الأحوالِ شعرتُ شعورًا أكيدًا بأنكَ في ذلك المساء كنتَ تُفكِّر فِيَّ بعمق. وأدركتُ أن كلاًّ مِنّا ما زال مُولَعًا بالآخر.

ثم توالَى مرور السنين. ووفْق ما أتذكَّر أظنُّ أنني أرسلتُ لكَ من أجل الشَّكليات بضعة سطور لأخبركَ بأنني انتقلتُ لأعيشَ مع نيلز بيتر، ولاحِقًا بعد فترة، سمعتُ إشاعات من "أوسلو" تقول إنكَ التقيتَ بيريت. والغريب في الأمر هو أنني لم أُسرّ بما سمعتُ، لا بل ثارَت بِيَ الغَيرةُ...

ما أدهَشني أكثر من أي شيء آخر قولكَ إنكَ ذهبتَ إلى كهفِنا مرّةً أخرى. أنا واثقة من أنني لم أستعمِل أي دبُوس شَعْر آنذاك؛ لا ريب في أنه سقط من جَيْب مِعطفي الواقي من المطر، وأغلب ظَنّي أن قطعة الخمسة "كرونر" تعود لكَ.

ولكن، أتُراك عثرتَ على أعقاب سجائر هناك؟ ألا تتذكَّر؟ لم يكن من المُفترض بالتأكيد أن نحملَ معنا السجائر إلى العَصر الحجري. ولذلك تحتّمَ علينا أن نتوقّفَ عن التدخين، أو في أدنى الأحوال أن نحاولَ مُقاومة الإغراء ونحن هناك في الأعلى. وفي يومٍ، عُدتَ من مُهمّة صيدٍ، وشممتُ بوضوح رائحة السجائر تفوحُ منكَ، لأنكَ لم تستطع التَّهرُّب من تقبيلي. اعترفتَ حالاً بفعلتكَ خَجِلاً أشدّ الخجل مما أقدَمتَ عليه. انزعجتَ كثيرًا يا ستاين. وسارعتَ إلى مناولتي العُلبةَ التي أصبحَت طعامًا لنار مُخيَّمنا في ذلك المساء.

إنما ما انطباعكِ عن التجربةِ التي اختبرتُها عند الهضبة؟

٦

نعم، أظنّني أفهمُ ما وصفتَه يا ستاين، وربما ليس هناك كثير من التنافرِ بين ما اختبرتَه وبين ما أؤمِن به أنا شخصيًا. بمُقْتَضى معاييركَ الماديّة، الكلُّ واحد بلا جِدال - مع جذورٍ متأصّلة في انفجاركَ العظيم طبعًا. لكن ألسنا أوّلاً وقبلَ كلّ شيء أفرادًا منقطعي النظير؟ ألسنا بشرًا فريدين من نوعنا؟ هذا ما دَأبْنا على قوله يا ستاين. واليوم أودُّ أن أضيفَ عليه أننا كائِنات روحية.

من الطَّريف بلا شَكّ التفكير في أن الذّرّات والجُزَيئات التي يُخَلِّفها جسدي من بعدي يمكن أن تصبحَ في المستقبلِ جُزءًا من أرنبٍ بَرّي أو ثعلب جَبلي. بالنسبة لي هي فكرة مُسَلية، فكرة مُسلية فقط، ولا شيء أكثر. لأنني في تلك الحالة سأكون مَيتة يا ستاين! ألا تَرى ما أعني؟ هذا ما عجزتُ عن تَقَبُّل التفكير فيه في الأيام الخوالي؛ أنني لن أكون أنا إلا لفترةٍ قصيرةٍ قادِمة. أردتُ أن أدوم! واليوم لدي أملٌ أكثر روعة مما لديكَ، إيمانٌ أكثر روعة.

لن أحاولَ التّقليلَ من أهمية التجربة الجميلة التي اختبرتَها عند الهضبة في السنة التاليةِ على رحيلي. فقط أشكّكُ في مدَى انسجامكَ فعلاً مع المَنْظور الحُلولي أو الوجودي الذي رسمتَ خطوطَه، وكذلك لستُ متأكّدةً تمامًا من درجة نَزاهتكَ في وصفكَ المتعلّق بالاختيار بين الزّرّيْن. فأنتَ في النهاية فعلتَ نقيضه في حُلْمكَ. ضحيتَ بمستقبلِ البشرية جَمْعاء ليتسنّى لكَ أن تعيشَ بضع ثواني بائِسة أكثر. وفوق كلّ شيء أثبَتَّ أنكَ تمتلكُ القُدْرة على قتل رفيقَي رحلتكَ للحصول على مؤونتهما من الأوكسجين، حتى يُقَيَّض لكَ فقط أن تجلسَ في مركبتكَ الفضائية وتتفرّجَ على نفسكَ في مِرآة وَعيكَ لفترةٍ وجيزة.

ذاك لم يكن إلا مجرّد حُلْم. ألم تفعلي في الأحلامِ أي شيء لن تُقدِمي على فِعله في عالَم الواقِع؟

صحيح طبعًا، وأعرف أنكَ شخصٌ يُراعي حقوقَ الآخرين. كانت طريقتكَ المُتأنّية في تَوْضيبِ أغراضي وإرسالها إلي مؤثِّرة للغاية. لم تتصرّف بلؤمٍ قطّ، وكنتَ كريمًا. آنذاك واسيتُ نفسي بقولي إنكَ على الأقلّ احتفظت بالفولكسفاغن. وهي في جميع الأحوال لم تقِف حَجَر عَثْرةٍ بيننا، لأنني لم أكُن في تلك الأيام أمتلكُ رُخْصة قيادة. وأنتَ مَنْ دَفَع ثمن تبديل الزُجاج الأمامي وتركيب مصابيح أمامية جديدة.

أما الجَرَس الزُجاجي فها هو على حافة النافذة أمامي، وها أنا أحمله اللحظةَ وأقْرَعُه. هل بلغكَ وَقْعُ رنينه؟

نعم سمعته! وما زالت "سمولانْد" حيّةً في ذاكرتي. كانت هناك بجعتان من سُلالة البجع الصامِت تسبحان مُتَجاورتين في البحيرة الصغيرة كثيرة القَصَب تلك. أشرتِ إليهما وقلتِ إنهما أنا وأنتِ، إنهما رُوحانا نَراهما على سطح الماء الساكِن كالبَلّور. هل تتذكّرين؟ عندئذٍ، طوّقْتُكِ بذراعيّ وطرحتُ رؤيةً أخرى، رؤية تعادِل فكرتكِ في حماسَتها واتّقادِها. قلتُ، هما روح العالَم. إنهما لا تعرفان هذه الحقيقة، ومع ذلك هما روح العالَم تسبحُ هناك.

لطالما كنتُ رومانسيًا في ما يتعلّق بالطبيعة. وأنتِ أيضًا لم تختلفي عني في ذلك. إلا أنكِ شعرتِ إلى جانب ذلك أنها تُشَكّلُ لكِ *تهديدًا*.

بيريت نائمة. هل في نيّتكِ كتابة المزيد الليلة؟

أتذكّرُ البجعتين. وأتذكّرُ أننا لم نتوصّل إلى اتفاق بِخُصوص ما ترمزان إليه.

سأكْمِل الكتابة وأبعثُ برسالةِ الليلة، ولا داعي لأن تُكابر وتبقَى مستيقظًا. قُم ونَم يا ستاين، وفي وسْعكَ أن تقرأ خواطِري في الصباح.

حتمًا لا. لا شيء يحولُ دون أن نُبْحِرَ في لُجَّةِ هذه الليلة معًا.

ماذا قلتَ؟ لعلّكَ لستَ جالسًا هناك تحتسي المَشروب!؟!

على رِسْلكِ يا سولرن، لا أظنُّ أنني قلتُ شيئًا وَقِحًا؟ تابعي الكتابة فقط. أنا متأكِّد من أنني سأكون صاحيًا.

لا بأس. سأحاولُ الاختصار قَدْر المُستطاع، لأنكَ تعرف الكثير ممّا أنوي قوله.

منذ زمن طويلٍ، وأنا بعْدُ في العاشرةِ أو الحادية عشرة من عمري، حدثَ أن قضيتُ إجازتي الصَّيفية عند جدَّتي في "إيتر سُولا". في أحد تلك الأيام اصطدَم طائر سنونو بنافذة غرفة جلوس جدَّتي. ورأت جدَّتي أن علينا التَّريُّثَ قبل أن نفعلَ أي شيء بالطائر، لأنه في بعض الأحيان، كما قالت، عندما تصطدِم الطيورُ بألواح النوافذ على ذلك النَّحو تُصْعَق فقط، ومن المُحتمل أن تفيقَ بعد ربع أو نصف ساعة وتعودَ إلى الانطلاق. قالت إن بعض الطيور تُكْتَب لها حياة جديدة، حياة بعد الموت، لأننا نعتقِد أن الطائرَ ميت حقًا، ثم فجأة نراه ينتفِض ويندفِع مُحلّقًا في الهواء من جديد. مضى النهارُ ومضت الليلةُ ولمِ يقُم السنونو؛ في الصباح التالي وجدناه مطروحًا

حيث هو مثل فَضَلات مَنسيَّة، وكان عليَّ أن أدفنَهُ. كان علي أن أفعلَ ذلك وحدي، فوالداي في "بيرغن"، وجدَّتي التي خطرَ لي أنها تستطيع مَدّ يَد المساعدة لي، قالت إن دفنَ الطيور من مَهَامٍّ الأطفال؛ تحدّثتُ أنا وأنتَ عن هذه التجربة مرّات كثيرة ونحن نناقِش ارتباطها بنوباتي الانفعالية.

منذ ذلك الحين، من الزّمن الذي كنتُ لا أتجاوزُ فيه العاشرة أو الحادية عشرة، كَبُرتُ وكَبُرَ معي شعور مرير بأنني لستُ إلا طائرًا مُعَفَّرًا بالوحل، بأنني أنا *الطبيعة*. فارقتُ من حينها عهدَ الطفولة. خَلّفتُ من حينها عُمْر البراءة الهَنيء ورائي.

نعم يا ستاين، *إنه* من المُدهشِ التفكيرُ في أن الأطفالَ الذين يأتون إلى هذه الدنيا، يبقون، إلى فترة طويلة نوعًا ما، قادرين على أن يعيشوا من أجلِ اللحظة فقط، بلا خَوف من الموت، بلا أسى ولا أحزان. بالنسبة لي، انتهى فصلٌ من حياتي وأنا ما زلتُ في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر؛ ولا شكَّ في أن هذه الحياة أخذَت بعد ذلك منحىً جديدًا مختلفًا. كنتُ، حتى قبل أن أنضجَ جنسيًا بوقتِ طويل، مذعورةً دائمًا، وكنتُ بمعنى ما شِبهَ مُنفَصِلة عن هذا العالَم - غالبًا ما وجدتُ نفسي أرتحلُ بعيدًا عنه مهما اختلفت الأحوال.

ثمّ جئتُ إلى "أوسلو" وقابلتكَ. لم تكُن فترة ما بين طفولتي ولقائِكَ مُهِمَّة. ولا يكاد ذِهني يسترجِع منها إلا دَوْرات لا نِهائية من دروس البيانو والتّنس والفروض المنزلية، وفي مرحلتها النهائية تجارِب سطحية في الغَزَل والثَّمَل. إلا أننا اجتمعنا في صميم ألمي نفسه، فقد كان فيكَ شيء مجروح، أو ربما هو جانب أقرب إلى الاتّسام بالجدّية. أدركتَ مثلي أنه لا أملَ لأمثالنا، بصرف النَّظر عن العالَم القائِم من حولنا. كنّا في مُنتهى العُرِيّ، واحدنا مُستسلم بلا مقاومة للآخر ولكلٍّ الأشياء الطبيعية والباعثة على النشوة التي نستطيع تحفيز بعضنا بعضًا بها - على الرغم من أن هذه، على الأقلّ لبعض الوقت، كَبَحت فينا جِماحَ تلك الأفكار عن النّهاية الأخيرة التي كنّا نتَّجه إليها.

إلا أن نَظرتي إلى الوجود كانت ثُنائية دائمًا، نَظرة لازَمتني منذ ذلك الصَّيف مع جدَّتي. رأيتُ أننا أرواحٌ في المقَام الأول، وأن الرَّغبات الجسدية التي تدفَّقت فينا باستمرار، كانت مع سهولة إشباعها شيئًا مختلفًا جدًا، شيئًا عَرضيًّا في ذُكُورتنا أو أنُوثتنا. ومع أنها شيء لطالما أبهَجنا في لحظات الفَوران الجنسي، اعتبرناها في أغْوار أعماقِنا سَطحية ومُتَقلِّبة. ألم تنظر إليها هكذا أيضًا؟

كنتُ أستمتعُ بنشوةٍ أعمق من أعمق محيط عندما تأتي أحيانًا من وراء ظهري، تضع يدكَ على جبيني وتتنفّسُ في رقبتي، ثم تُنَحّي شَعري برفقٍ وتهمس في أذني، مرحبًا يا روح! تلك مناسبات سعيتَ فيها وراء شيء آخر غير الجنس، ولم تكن مناسبات نادرة. آنذاك، كنتَ من غير ريب تخاطبُ روحي الأصيلة. تفتح بابًا على خانةٍ مُختلفة كلّ الاختلاف، على خانَة الروح، وكانت روحي هي التي تجيب. غالبًا ما قلتُ، أنتَ... وهذا كان كافيًا. وأي شيء آخر غيره يصلُحُ في مثل ذلك المقَام؟ يصلُحُ لأن تقوله روحٌ لِروح؟ ما كان اقترابي منك ليبلغَ أكثر من ذاك.

ثمّ بدأت تُخالِجني تلك الرُّؤى المُسبَقَة عنكَ يا ستاين. من المهمّ جدًا أن أذكّركَ بها في هذه المرحلة. كنتَ في معظم الأحيان تعودُ إلى شقّتنا في "كرينغشو" قبل نصف ساعة من عودتكَ الفعلية. عندما سمعتكَ في بعض المَرّات الأولى تُقْبِل، بلغ بي تيقّني من قدومكَ حدَّ الجري نحو الباب لأستقبلكَ، وأحيانًا لأغويكَ أيضًا، حتى تلحقَني فورًا إلى غرفة النوم. وفي مرّات أخرى أكون قد خطّطتُ من قبل لكلّ شيء. بيد أنني عرفتُ طَوال الوقت أن ذلك ليس إلا شعورًا مُسبَقًا، وأنكَ في طريقكَ إلى البيت فَحَسْب. وهكذا عملتُ على الاستفادة من تلك المشاعر المُلهِمة. توافَر لي الوقت دائمًا لأحضّرَ الطاولة وأعدَّ وَجبة طعام شهية، أو لأتجمّلَ قبل محاولة القيام بإغرائكَ – تكلَّلَت تلك المساعي بالنجاح في أي مرّة بذلتُ جهودًا جادّة. أنا متأكِّدة من أنكَ تتذكّرُ عودتكَ إلى البيت على أضواء الشموع وغرفة نومٍ

دافئة في أمسيات شتوية معيّنة. ولطالما عرفتَ ما ينتظرك: أسْمَيْته حمَّام الحبِّ البُخاري، ولطالما انبريتَ تضحكُ ضحكةَ ترقُّب. إنني لا أكتب عن هذا يا ستاين إلا لأذكِّركَ بما تَميّزتُ به من 'قابلية' لما تدعوه الآن المسائِل الباطنية. كان ذلك واقعًا حيًا بالنسبة لي طَوال الفترة التي قضيناها معًا على الأقلّ.

وهذا ليس كلّ شيء. ففي صباح يومٍ من أيار سنة ١٩٧٦، قبل فترة قصيرة من ذهابنا إلى الجبال لنتنزّه في أرجاء جبل الجليد "يوستدالسبرين"، التفتُّ نحوكَ بعد استيقاظنا، مذهولةً من حُلْم أبصرتُه. وإذ رأيتَني أحدّقُ فيكَ بتركيز عميق تَوَجّستَ شرًا في الحال.

أكانت نوبةُ انفعالٍ جديدة في طريقها إلى الظهور؟

'ما الحكاية؟' سألتَني.

'حلمتُ أن "بيورنبو" ميت،' أجبتُ.

'هُراء،' قلتَ. فأنتَ رأيتَ دائمًا أن هذه الهواجِس هُراء.

'لا، أنا أعرفُ أن "يَنس بيورنبو" ميت،' كرّرتُ. 'فهو ما عاد يستطيع الاحتمال أكثر يا ستاين.'

ثم انفجرتُ بالبكاء. كنّا قد قرأنا للتوّ كتاب "الحُلْم والدولاب" عن الكاتب "رانغهيلد يولسن". كُنّا في الواقِع قد قرأنا تقريبًا جميع الروايات التي ألّفها "يَنس بيورنبو". غضِبتَ. مَضيَتَ إلى المطبخ وشغّلتَ المِذياع، وبعد برهة يسيرةٍ بُثّت نشرة الأخبار. كان الخبرُ الأوّل عن موت "ينس بيورنبو". عُدتَ إلى السرير ومعالِم القلق بادية عليكَ، واستلقيتَ ثانية بقربي.

'ماذا *تفعلين* يا سولرن. توقّفي عن هذا! أنت تخيفينني.' قلتَ.

نعم، كنتُ أختبِر تلك الرؤى المُسبقة، وبتكرارٍ أكثر من الآن. ومع إحساسي بروحكَ أو طيفكَ في البيت قبل نصف ساعة من قدومكَ، ومع أحلامي التّحذيرية التي كنّا نلمسُ برهانها الواضح في اليوم التالي، انتهى بي المَطاف شيئًا فشيئًا إلى قبول فكرة أننا نحن البشر نمتلكُ روحًا حُرَّة بالفِعل، أعني

روحًا مُستَقِلّةً عن الجسد الذي تسكنه في اللحظة الراهنة.

هذا وحده لم يكفِ ليوفِّقَ بيني وبين قَدَري بوَصْفي 'ضَيفة في عالَم الواقع'. كنتُ أبكي، وكنتَ شُجاعًا، وتحمّلتني يا ستاين. في أحد أيام أيلول جاءتني إحدى هذه النوبات. لعلّكَ تتذكّر أنه كان يُفترضُ بي أن أقابلكَ خارج قاعة العالِم اللغَوي "سوفوس بوغّي"، بعد محاضرة "إدوارد باير" عن "فيرغلاند". هدّأتني يومها بقدر ما استطَعْتَ، ثم قُلتَ، 'ستكونين في هذا المساء حسناءَ المسرح المفتوح.'

كان ذلك المسرح المفتوح مكانًا باهِظ التكاليف بالنسبة إلينا، إلا أننا كنّا قد حَصلنا على القَرْض الطُّلابي منذ فترة وجيزة، وسرعان ما جعلنا منه أُمسيةً خاصّة بنا. تناولتُ *نوعين* من الحلوى! عاملتَني دائمًا بِمُنتهى اللطفِ يا ستاين، لولا أنكَ مع مرور الوقت غدوتَ أكثر فأكثر نزوعًا إلى الشُكوكيّة. شعرتُ بكَ تفقِد اتّقادكَ العاطفي. لم تعامِلني بفظاظة يومًا، إلا أنكَ تحوّلت إلى شخص متهكّم- أعني من ناحية الحِسّ المَعْرفي. سلَكَت مرارتُكَ تلك الدرب، أما مرارتي فاتبعَت، كما تعلم، دربًا أخرى؛ درب الأمل.

توارُد الخواطِر والإدراك المتجاوز للحسّ والاستبصار كانت ظواهِر أصيلة بالنسبة لي منذ أن أرهفتُ السمع لأوّل شعور مُسْبَق يتعلّقُ بكَ. أسمعُكَ تأتي، ولا تأتي في الواقع، ثم تأتي لاحقًا!

وعندما عثرنا على ذلك الكتاب، كانت الأسُسُ قد وُطِّدَت قبله. ولذلك لم أجد نفسي غير مُهَيّأة تمامًا لمّا واجَهنا مَرأة العنبية بعد بضع ساعات فقط من عثورنا عليه. كنتُ في نهاية الرحلة، وعرفتُ أنه لا بدّ من وجود جواب في مكان ما، لا بدّ من وجود مَنْفَذ فَرَج...

ما الإنسان يا ستاين؟ كم مرّة تحاول التفكُّر في أنه تحت الطبقة النسيجية الرقيقة من بشرة فخذكَ الحسّاسة أو ساعدِكَ هي *لحم ودم*؟ هل حاولتَ مرّة أن تتخيّل كيف تبدو أمعاؤكَ وأجهزتكَ الداخلية؟ أعني من الداخل! وهل ذاك

أنتَ؟ أين يمكنكَ العثور على مركز ذاتكَ؟ ذلك الشيء الذي يعبّر عن *الأنا* ويفكِّرُ بوساطتها ويحلمُ عن طريقها؟ في مرارتكَ أو في طِحالكَ؟ في قلبكَ أو في أعصابكَ؟ أو ربما في أمعائكَ الدقيقة؟ أم هل يجدر بنا أن نبحث عن ذلك الجوهر في النفَّسِ وفي الرُّوح، في ما هو *كائن*، لأن البقية كلّها ليسَت إلا دقّات ساعة وحُبَيْبات رَمل في ساعةٍ رَملية. تلك البقية هي لا شيء إلا الكثير جدًا من القشور، إذا سألتني رأيي.

سأقفزُ الآن عائدة إلى مسائِنا قبل الأخير في الفندق القديم، المساء السابق على الصباح الذي طلبَت فيه مِنّا ابنة أصحاب الفندق الاعتناء ببناتها الصغيرات لنصف ساعةٍ بينما تقصِد المَصْرَف.

كنّا قد انتهينا من احتساء "براندي التفاح" وقرّرنا الصعودَ إلى غرفتنا لننام. عَرّجنا في طريقنا على صالة البليارد ولعبنا دَورةً. يدهشني التفكير الآن في أن تلك الكُرات العاجيّة الثلاث ما زالت في مكانها هناك على الجوخ الأخضر. وأتساءل عن عدد المرّات التي قعقَعَت فيها تلك الكُرات.

كانت صالة البليارد تضمُّ مكتبة الفندق وحانتَه، وبعد أن أحرزتُ عشر نقاط في اللعب في حين لم تُحرز أنتَ إلا ثماني، قصَدْنا رفوف الكُتب كما نفعل عادةً عصرًا أو مساءً. كانت الرُّفوف تحتوي على مجموعةٍ ضيّقة النِّطاق ومحدودة من الكُتب، كلّها قديمة جدًا، ومعظمها عن الجغرافيا وعِلْم طبقات الأرض وعِلْم طبقات الجليد. ثم – كما لو أنه لحنٌ غير دُنْيوي في وسط تلك المجموعة – وقعَت يدي فجأة على *كتاب الأرواح*، المنشور في "كريستيانيا" سنة ١٨٩٣، أي بعد سنتين فقط من تَشييد ذلك الفندق العَريق. كان الكتابُ منقولاً عن الفرنسية، طُبِع في باريس سنة ١٨٥٧ وعنوانه الأصلي:"Le Livre des Esprits"

حدثَ هذا في المساء السابق على لقائنا بمَرأة العنبية. وحتى قبل أن نغادرَ صالة البليارد بدأنا نقلِّبُ صفحاته – ولا أستَبْعِد أن أكونَ قد قرأتُ لكَ بعض

الجُمَل منه قبل أن نأخذَه إلى غرفتنا. هناك، تسلّينا في البداية بتبادُل القراءة جَهْرًا. وعلى الرغمِ من أن الكتاب قد حرَّرَه شخص حَي، كان في الواقع بيانًا متتابِعًا عن تجلّيات من عالَم الأرواح. وتضمَّنَ مجموعة تصريحات من أرواح موتى، تواصلوا مع الأحياء في أثناء جَلَسات تحضير الأرواح. في نهاية تلك الليلة أتذكَّرُ كيف وضعْتَ الكتاب على طاولة السرير الجانبية وقلتَ لي، 'أفضّل احتِواء امرأة واحدة حَيَّة بين ذراعيّ على عشرة أرواح في الغابة.' وراقَني الإطراء. أعترفُ بهذا صراحةً، فقد كُنّا في الليل.

من تلك اللحظة، بُذِرَ شيء ما في داخلي. وفي غُضون أسابيع قليلة تحولتُ إلى إنسانة رُوحانية، أو روحانية مُتَدَيِّنة. غدَا ذلك مُعتَقَدِي، وغدَا عَزَائي، وغدَا سلْواي.

في عَصر اليوم التالي التقينا مَرأة العنبية. خطرَت لي الآن فِكرة، وهي فكرة غريبة نوعًا ما، ولكن ألا ترى أنكَ حالما تبدأ في فَتْح ذهنكَ لِشيء، يبدأ ذلك الشيء في فَتْح نفسه لكَ؟

على أي حال، لا طائِر يمكنه الدُّخول إلى بيتٍ مُغْلَق النوافِذ. هو فقط سيصطدمُ بالزُّجاج.

ما إن تختَبِر أمورًا مثل الشعور المُسْبَق وتوارُد الخواطِر والاستبصار أو الأحلام التّنَبّؤية، يتّضحُ لكَ أننا، من وراء الأجساد التي نسكنها مُؤَقّتًا، أرواحٌ أيضًا، أرواح تنتَمي إلى *نظام* مختلفٍ كلّ الاختلاف عن النظام المادّي. وبِقَدْرِ ما يتعلّقُ الأمر بي، كانت الدرب من هناك إلى الإيمان بخلود الرُّوح قصيرةً جدًا.

والآن، ماذا عنكَ، كيف هي الأحوال في "أوسلو"؟ هل نِمتَ يا ستاين؟

لا، أنا أقرأ. إنها تُقارِب الثانية بعد منتصف الليل، أما زلتِ أمام حاسوبكِ؟

نعم.

إن هذا لا يكادُ يُصَدَّقُ يا سولرن. لقد وجدتِ حقًا خَلاصًا. وجدتِ مَنْفَذ حُرّيّةٍ لروحكِ المذعورة... وما تقولينه يجعلني تقريبًا أَغْبِطكِ، لأنني أقفُ وحدي في العَراء أرتعشُ بَردًا خارج إيمانكِ الجديد هذا.

لم أيأس بَعْدُ نهائيًا من جلْبِكَ إلى الداخل. *سأعطيكَ* دليلاً يا ستاين. أعِدكَ بهذا. سأقنِعكَ في يوم ما.

ولن أمنعَكِ من المحاولة. لعلّي لستُ على قناعةٍ تامّة من وَحْدَة وجودي. أما الآن فربما يجدُر بنا الذّهاب إلى النوم...

نعم، يُستَحسَن أن نأوي إلى الفِراش الآن. تَخَيّل أنكَ لِمَرّةٍ واحدة سَبَقْتَنـي إلى قَوْل هذا.

تُصبحين على خَير يا سولرن!

تصبِح على خَير!

آه، شيء أخير. خَصّصتُ الغَد بأكمله لأحاول أن أعيدَ سَرْد ما جرى بالضبط في تلك الحادِثة قبل ما يزيد عن ثلاثين سنة. سأنالُ قِسْطًا من النوم

أوّلاً، ثم سأستقرُّ وأتفرّغُ لهذه المُهمّة في أبكَر وقت ممكن من صباح الغد. سأحاول أن أرسلَ ما أكتُبه أوّلاً بأوّل على مَدار اليوم. إذا كان في وسْعكَ أن تتجولَ في جميع آفاق تاريخ الكَون في رأسكَ، فغيركَ أيضًا قادر على تذكُّرِ كلّ ما مررنا به في تلك الآونة. هل يناسبكَ هذا؟ هل نحن مُستعدّان أخيرًا لنُترجمَ تلك الأحداث إلى كلمات؟

سنُغامر. تعاهَدنا مرّةً على ألا نتطرَّقَ إلى ذلك ثانية، وربما نستطيع الآن أن نتحرَّرَ من عِبءِ التزامِنا الصَّمت.

خمِّني ما كنتُ أحتَسي طَوال المساء؟

"كالفادوس"! أشمُّ الرائحةَ من هنا. تُفّاح مُقَطَّر...

أفْحَمتِني! أرى أنكِ تملكين *بالفعل* نوعًا من الحاسَّة السادسة على الرغم من كلّ شيء. أتمنّى لكِ نومًا هنيئًا، وسنلتقي مُجدَّدًا في الصباح.

نومًا هنيئًا يا ستاين!

٧

عَصر يومٍ قُرابة أواخر شهر أيَّار سنة ١٩٧٦ صدفَ أن كنتُ أقفُ أمام نافذة غرفة نومنا في "كرينغشو". كانت النافذة مُشرعَة والجوُّ في الخارج معتدلاً وأنا هناك أتنشّقُ شَذا الربيع. لم أعرف أهو عِطر السنة الجديدة ما عَبَقتُه، أم هي الرائحة النفَّاذة لتُربة السنة الماضية. استبعدتُ أن يكون مصدرها البراعم الغَضَّة على الأشجار، ورجَّحتُ أنها تفوح من الأرض الرطبة – ثَرَى السنة الماضية الخَصْب الذي غذَّى الفَسائل الجديدة. رأيتُ عَقعَقًا مُهتاجًا بين شجيرات وهِرَّة تحاول تَخويفه. أعاد العَقْعَق ذاكرتي إلى الطائر الذي اضطررتُ إلى دفنه في "سولَند"، ومن جديد هَيمَن علَيَّ ذلك الشعور الحادُّ بسُرعة الزوال – كانت تُعاوِدني، كنتُ أتعرَّض إلى واحدة من نوباتي. في البدء، ترقرقت عيناي بالدموع، وصَدَّع رأسي ألمٌ فظيع، ثم بكيتُ – أظنّ أن بكائي استُهِلَّ بأنَّةِ جَزَع. تنبَّهْتَ إلى ما كان يجري لأنني سمعتُكَ تدخل الغرفة. تجاوزتَ لوحة *القلعة في البيرينيه*، وقبل أن تَصِل إلي وتلمسني استدرتُ بسرعة ووقفتُ أحملق فيكَ. ‘سنصبح في عِدادِ الموتى يومًا!’ نشجتُ، أو بالأحرى عَويتُ. ثم عُدتُ إلى البكاء مستسلمةً لكَ لتهدئَ من رَوْعي. ويبدو أن أفكاركَ تدافعت محمومةً، وربما فَطِنتَ إلى أن اقتراح القيام بدورةٍ تافهة أو دورتين في بحيرة "سوغنسفان" لن يفي بالغرض في هذه المرَّة. ويتهيأ لي أنني أتذكَّرُ كلماتكَ عينها التي قلتَها بعد لحظة من تطويقي بذراعيكَ – درجتَ على لفِّ شعري بيدٍ، وضَغْط أسفل ظهري باليد الأخرى. هناك أساليب متعدِّدة لاحتضان المرأة، وكانت لديكَ أساليبكَ.

‘هيا، جففي دموعكِ،’ قلتَ. ‘سنذهب لنتزلّج على جليد "يوستدالسبرين"’.

بعد نصف ساعةٍ كُنّا في السيارة؛ زَلاَّجتانا على سطحها وحقيبةُ ظَهر كلّ مِنّا في صندوقها. كانت آخر مرّة قُمنا فيها بعمل جنوني هي مشروع ساكِني الكهوف على هضبة "هاردانييرفيدا" في الصيف الماضي. وكانت عودة الشمس إلى التربُّع على عرش السماء من جديد إيذانًا لنا بحلول موسم مُجازفات آخر. كم أحببتُها يا ستاين! كم أحببتُ مُجازافاتنا!

كان لا بُدَّ من أن يتغيَّر مِزاجي. وما كدنا نُخلِّف "أوسلو" وراءنا حتى انبسطَت أساريري، وأساريركَ أيضًا. كُنّا في غاية *السعادة* يا ستاين! قلتُ لا اثنان في هذا العالم بأسرِه يعرفان بعضهما بعضًا كما يعرف أحدنا الآخر. فقد عشنا معًا منذ أن كنّا في التاسعة عشرة، وسنواتنا الخمس تلك بدَت أقرب إلى أبدية، وعلى الرغم من إهابِنا الغَضّ كُنّا قد تسارَرنا من قبل عن شعورنا بالتقدُّم في السِّن. يُحزِنني التفكير في هذا الآن، ففي تلك الآونة، قبل واحد وثلاثين سنة، كنّا في مُقْتَبَل الشَّباب بَعْد، وحياتنا كلّها مُمتدّة أمامنا.

مَضينا قُدمًا بالفولكسفاغن الحمراء، وفيما نحن ننحدر صوب "سونذفولن" قُلنا عابثين إننا لسنا رجلاً وامرأة فَحَسْب، بل أيضًا سنونوتين ترفرِفان فوق رؤوس الأشجار الصنوبرية وتراقبان الخنفساء الحمراء بعيون الطيور. هل تتذكَّر؟ وهكذا تخيّلنا أننا مَضينا نلتقِطُ دربَنا في وسط الطبيعة وزَلاَّجتانا على سطح السيارة قبل أيامٍ فقط من مَطلَعِ شهر حزيران. وعرفنا أنه في تلك اللحظة عينها لن يُعثَر على أنقى تناغُم في العالم إلا في داخل الفولكسفاغن الحمراء؛ السيارة التي اشتغلنا لِصَيفيْن حتى ندفع ثمنها.

ارتوى تلهُّفنا إلى الكلام على طول بحيرة " كروديرين" وطريق "هالينغدال" – تحدّثنا عن كلّ شيء! – وبعد أن تخطّينا "بروما" أمكَننا أن نبقى دقيقة أو حتى دقيقتين من غير أن نقول شيئًا. كُنّا في الحقيقة ننظر إلى الأشياء نفسها، ولذا لم نجد داعيًا إلى التعليق على كلّ ما رأيناه. وفي فترة ما جلسنا هناك من غير أن ينبِس أي منّا بكلمة لأربع أو خمس دقائق كاملة، ثم انفجر أحدنا ضاحكًا، وسرعان ما تبِعه الآخر، وهذا أعادنا إلى الدردشة ثانية.

ومع أننا انطلقنا وانطلقنا، بقيت "هيمسيدال" وغرب النرويج على مسافات أمامنا. وعند قمّة "هيمسيدال" شاهدنا، إلى جانب الطريق الأيمن في فُسحة

مُخصّصة للوقوف المؤقّت، قاطِرةً ضخمة تحملُ لوْحَة أجنبية. وقد أتينا على ذِكْرها عدّة مرّات في الأسبوع التالي. ثم بعد بضعة كيلومترات إلى الأمام لاحَظنا امرأة تسير على مَقربة من الطريق في الاتجاه المؤدي إلى الجبال، سالكة اتجاهنا نفسه. انظري! هتفتَ ثم أردفتَ، أتَرينها؟

كُنّا في فترة متأخِّرة من المساء، واستهْجَنّا رؤيةَ امرأةٍ تمشي وحدها في الخلاء في ذلك الوقت من اليوم. السبب الوحيد الذي منعنا من دعوتِها إلى الركوب معنا أنها لم تسلك الطريق السريع نفسه، بل مضَت على طول سبيل يحاذيه إلى اليمين، عِلاوة على أنها مشَت ميمّمة الجبال عبر الأرض السَّبخة بخطوات جِدّ عازِمة. كانت تلبس ثيابًا رمادية وعلى كتفيها شالٌ وردي. وجودها هناك جعلَ المشهدَ خلاّبًا، وصورة تلك المرأة بشالِها الوردي في ليلة الصيف الزَّرقاء وهي تمشي بخطوات سريعة حازمة نحو الجبال في مهمّة ما، رسخَت في ذهني كأنها لقطة فيديو - لا لم تكن تسعى إلى الجِبال يا ستاين، بل أرادت *عبورها* قاصدةً الغرب مثلنا. خَفَّفتَ إذ ذاكَ من سُرعة السيارة، وفي لحظة مرورنا بها، التفتنا معًا لننظر. في الأيام التي تَلَت توافقَت روايتانا في وصف ما بدَت عليه المرأة. امرأة كَهْلة، قُلنا. امرأة في مُنتصف العمر وعلى كتفيها شالٌ وردي. أو قُلنا، امرأة في الخمسين من عمرها...

ستاين، هل أنت صاحٍ؟ هل نهضتَ باكرًا مثلي؟ خلال هذه الساعات وأنا في غرفتي الصّفراء أكتبُ لك اليوم، ينبغي أن تبقى قريبًا مني. قبل جيلٍ بحاله تعاهدنا عليٍ ألا نعودَ أبدًا إلى الإشارة إلى ما حدث في الجبال. والآن نحن معًا في حِلٍ من ذلك العَهد.

أنا هنا يا سولرن. ما زلنا في أوَّل الفجر، إلا أنني جالسٌ في المطبخ وأمامي كوب "إسبريسو" مضاعَف الكمية، وأنا أقرأ خواطرك بمجرّد إرسالكِ لها.

وسأفعل هذا على مدى اليوم؛ سأبقى مُتصلاً بالإنترنت طَوال الوقت. في غضون لحظات سأتأبَّط حاسوبي المحمول وأغادرُ إلى المكتب. لا أعتقد أنني عَمَدتُ في يوم إلى مغادرة البيت في مثل هذه الساعة من الصباح إلا اليوم – الآن فقط بدأ الضِّياءُ ينْبَلِجُ. ما زالت بيريت نائمة، وقد كتبتُ لها ملاحظة أعلمتُها فيها أنني استيقظتُ باكرًا ولم أستطِع العودة إلى النوم، وذكَرتُ فيها أيضًا أن لدي أشغالاً كثيرة.

ما عليكِ إلا أن تتابعي سردكِ. إنني أنتظر على أحرٍّ من الجَمر. أنتِ تتذكَّرين الوقائِع أفضل مني.

كان مزاجُكَ قد تعكَّر قبل بلوغنا قمَّة "هيمْسيدال" لأن فرصةَ حصولنا على سرير نبيتُ فيه ليلتنا بَدت ضئيلة، وفجأة، بعد أن تعدَّينا المرأة ذات الشال، بدا لكَ أنكَ *تشتهيني*. أخذَ الأمر في البداية مَنْحَى الدُّعابة، أو يمكن أن أقولَ مجرَّد كلام عابر، لولا أنكَ أمسيتَ شيئًا فشيئًا أكثر صَفاقة وإلحاحًا وأقلّ عَفوية، وهذا جعلني أعود إلى الاستغراق في الضحك، لولا أنكَ في تلك الأثناء وجدتَ مَخرجًا فرعيًا في الطريق وانحدرتَ بالسيارة بضعة أمتار نحو دربٍ حَرجيَّة مُحاذية للنهر. كان الجوُّ جافًا، وخُيِّلَ إليَّ أنكَ ستستدرِجني إلى الخلنج بين الأشجار. لكن منعكَ البردُ، وكانت هناك أيضًا تلك التصوّرات المُلحّة حول 'اقتطاف أجوَدِ ما هو موجود' التي بدأت تستحوذُ عليكَ. ولسببٍ غير معروف، علَقتَ لسوء حَظّكَ في براثِن نزوة خيالية لممارسة حركات بَهلوانية في داخل الخنفساء الحمراء، زاعمًا كما قلتَ إنك لستَ قادرًا على تحرير نفسك من هذه الصُّور الحادّة الوامِضة في ذهنكَ. أنا لستُ إلا بشرًا، قلتَ. وإذ نظرتُ إليك مُقَطِّبة، دوَّرتَ عينيكَ وأكّدتَ، نعم أنا لستُ إلا بشرًا.

عُدنا بعد نصف ساعة إلى الطريق العام، حيث زدتَ من سرعة السيارة. وجعلنا الارتواءُ وقد أشبَعنا ظَمأ رغباتنا نشعر كما لو أننا قذيفةٌ تخترق الهواء. إلى التلال، إلى التلال! التقطَت أعيننا لافتة أعلَمَتنا أننا نسلكُ الطريق السريع ٥٢، واعتبرنا هذا غريبًا جدًا، لأننا معًا وُلِدنا في تلك السنة. إنها طريقُ النُّشوء، قلتَ، أو ربما أنا من قلتُ ذلك.

بما أنني لم أمتلِك رُخصة سِوَاقَة في تلك الأيام، فلا جِدال في أنكَ أنتَ مَنْ جلس وراء المِقْوَد طَوال الوقت. وربما كان الليلُ في منتصفهِ آنذاك، لكن، حتى لو صحَّ هذا، فإنه عادةً لا يُخيِّم دامِسًا في تلك الفترةِ من السنة. أما الجوّ الذي تميّز بالحرارة في النهار، فغدا بارِدًا وضبابيًا. أضِف إلى كلّ ذلك أننا كُنّا في أعالي الجبال. ولو أنها كانت ليلة خريفية لبَانت المعالِم من حولنا على نحوٍ أفضل، ولتسنّى لنا على ضوء مصابيح السيارة الأمامية أن نرى طريقنا بمزيد من الوضوح. أما في وَضْعِنا ذاك فتراءَت لنا الأشياء كلّها زُرقة نَشْوى وسُهادًا مُتبلّدًا. والاستثناءُ الوحيد هو ذلك الوميضُ اللامِع الذي لمحناه في الأفق البعيد. أظنّني علّقتُ عليه – وهو شيء أبدَينا بالتأكيد ملاحظات عنه في الأيام التي تَلَت.

قُربَ بحيرة "إِلْدَرفاتْنت" عند مَسْقط الماء وحدود المُقاطعة بَغَتَنا في الغَلَس شيء أحمر وخافِق. أحسسنا بالسيارة تصدم جسمًا وبأحزمةِ الأمان تُحكِم حولنا. أبطأتَ، أو لِنقُل خفَّت سُرعتنا، ثم بعد لحظات قلائل زِدتَ من سرعة السيارة ثانية. مرَّت علينا فترة فاصلة بحدود أربع أو خمس دقائق قبل أن ينطِق أي منّا كلمة. وهذه الفترة هي حتمًا اللّغز الأكبر، إذ في أي شيء فكّرتَ حينها يا ستاين، وفي أي شيء فكّرتُ أنا؟ مع أننا ربما ساعتها لم نعمِل فِكرنا في أي شيء، بل كنّا واقعين تحت تأثير الصَّدمة فقط.

ما كدنا نقطعُ مسافة البحيرة الطويلة حتى طالعَتنا عربةٌ بيضاء قادِمة من الاتجاه المعاكس، تعبُر الجبال ميمّمةً الشرق، وعندئذٍ قلتَ بصوتٍ مُتَحشرِج، 'أعتقدُ أننا دَهَسنا شخصًا!'

بدا ذلك كما لو أننا فكّرنا بدماغ واحد، لأن الخاطِرة نفسها راودتني في تلك اللحظة عينها. التفتَّ نحوي فجأة مُستطلعًا، فبادرتُ إلى هزّ رأسي بقوّة.

'أعرف،' أجبتكَ. 'دهَسنا المرأةَ ذات الشال الوردي.'

كنّا قد تَخطينا نزُل جبل "برايستولن" وبلغنا أوّل منعطفات المُنْحدرِ الحادّة، وهناك عند المُنعطف كبحتَ الفرامل بقوّة واستدرتَ بالسيارة. ومع أنكَ لم تَقُل شيئًا، قرأتُ أفكاركَ من تَيَبُّس كتفيكَ وتشنُّج وجهكَ: ربما هي في حاجةٍ إلى المساعدة. ربما أُصيبت بجراحٍ خطيرة. ربما تسبّبنا في مقْتل إنسان...

رجَعنا بعد دقائق قليلة إلى حيث اصطدَمَت السيارة بشيء في غبَشِ الليل الباهِت. أوقفْتَها، وقفزنا معًا خارجها. كان الجوّ باردًا وثمّة ريح طريّة، إلا أننا لم نبصرِ أحدًا. اكتشفتَ أن مِصباح الجانب الأيسر الأمامي قد تحطَّم، والتقطتَ بعض شظايا الزّجاج من الدرب والقناة. تلفّتنا ننظر حولنا، وفجأة أشرتَ إلى شال وردي مَطروح بخِفَّة على الخلنج عند الأرض المُنحدرة نحو البحيرة، ولا يبعد إلا مترين تقريبًا عن السيارة والدرب. بدا الشال نظيفًا وأملسَ، كما لو أنه رُفِع للتوّ من على كتفي امرأة، وكان يرفرِف هَفهافًا مع الريح كأن الحياة تسري فيه. لم يجرؤ أي منّا على لمسه، فقط وقفنا نُمعن النَّظر في شتّى الاتجاهات. وعلى الرغم من أنها كانت ليلة صيفية لم نلمح أثرًا لمخلوقٍ واحد في أي ناحية. ولم نملك دليلاً نتتبعُه إلا الشال الوردي. عثرتَ على شَظيتين أخريين من بقايا المِصباح الأمامي، ثم انطلقنا مبتعدين، بسرعة.

مرّةً أخرى وجدنا أنفسنا مَذهولين من الصَّدمة. كنتَ ترتعد وأنتَ تضغط دواسة البنزين وتمسكُ المِقْوَد، ولا أتصوّر أن أحدنا قال أي شيء، إلا أن ما بلغَتْه روحانا من تمازج جعل كلّ منّا قادرًا على قراءة أفكار الآخر ومشاعره.

في الساعات والأيام التي تعاقبَت حلّلنا كلّ ذلك بدقّة، بل حتى ونحن ما زلنا بعدُ في الخنفساء الحمراء، لم يساورنا الشكُّ في أننا دهسنا المرأة الغامضة التي لمحناها في الأرض السَّبْخَة قبل انغماسنا في لحظة لهْونا

القصيرة عند النهر. أدّى بنا توقّفنا هناك إلى منْحها قَصَبَ السَّبْق المُميت.

كان الشالُ الوردي هو الأثر الوحيد المتخلِّف عنها. ولذا جَنَحَ بنا التفكير إلى أن العربة البيضاء هي التي قامت حتمًا بانتشال المرأة المُصابة أو الميتة من على قارعة الطريق ومضَت بها. رأينا أن هذا هو التفسير الوحيد المرجَّح الذي يبرّر سبب اختفائها. أخذَت هذه الحادِثة مجراها قبل سنوات من ظهور الهاتِف الجوال، وفي تلك الآونة ضجَّ رأسانا بصورٍ عن سائقِ العربة البيضاء وهو يتوقَّف ليطلبَ النجدة عند أوّل مزرعة في "هيمْسيدال"، وليتصلَ بكلٍّ من الشرطة والإسعاف طبعًا، أو وهو يختار حَسْم القضية بِنَقلِ ضحية ثِقتنا المُفرِطة بأنفسنا إلى المستشفى في "غول". وفي الوقت نفسه عبرَت في رأسينا فكرة أنه ربما لا جدوى من مسابَقتِنا الرِّيح. فثمّة احتمال في أن يكون سائقُ العربة البيضاء قد مضى عاقِدَ العزم والنيَّة إلى مركز الشرطة في "هيمْسيدال" ليسلِّم جُثْمان امرأة وجدَه على الطريق السريع ٥٢. وهناك قد لا يتوانى أيضًا عن الإشارة إلى الفولكسفاغن التي رآها مُقبِلةً في الاتجاه المعاكس.

انحدَر بنا الطريق غربًا، وعندما تجاوزنا "برايستولن" للمرّة الثانية ووصلنا إلى المُنعطف الحادّ حيث استدرنا، توقّفتَ على نحو مفاجئ عند شَفَا الوادي وأمَرتني بالخروج من السيارة. اخرجي! كان كلّ ما صحتَ به. اخرجي!

كنتُ شديد الهِياج. قلتُ لنفسي لعلّ الشرَّ استحكمَ بكَ، وتريد الآن إلحاق الضَّرر بي. ومهما يكن من أمر خشيتُ معارضتكَ، ففككتُ حزام الأمان وترجلتُ من السيارة. وقفتُ في الطريق أبكي، ستاين يا ستاين. ماذا تنوي أن تفعل؟ أتَنْوي تركي هنا؟ وذهب بي هلَعي إلى التفكير، هل يقتلني؟ ليتخلّصَ من الشاهد الوحيد؟ وما يُدريني ربما قتلَ من قبل... ثم، إذا بكَ تزيد من سرعة دوَران المُحرِّك وتندفع بالسيارة صوب الهاوية. هل أردتَ وضع حدٍّ للمسألة كلّها بالانحراف خارج الطريق؟ عدتُ إلى النُّواح: ستاين! يا ستاين! في تلك اللحظة صدمتَ مُقدمة السيارة برُكامٍ حجري عند حافة

المنحدر، ثم خرجتَ منها بحزمٍ وتفقّدتَ المصباح الأمامي اليميني لتتأكّدَ من أنه تهشّم هو الآخر. هذه الصدمة بعَجَت الرّفراف، لا بل طَوَتْه إلى الداخل.

'لماذا فعلتَ هذا؟' سألتكَ.

لم تكلِّف نفسكَ عناء النظر إلي.

بيد أنكَ ما لبثتَ أن قلتَ، 'هنا تعرَّضْنا لحادثةٍ طَفيفةٍ بالسيارة.'

جلَبْتَ قِطع الزُّجاج المتكسِّرة التي أحضرناها معَنا من الجبل ووضعتَها أمام الرُّكام الحَجري إلى جانب الشَّظايا الجديدة. بدا ذلك كما لو أنكَ تضع اللمسَات الأخيرة على أحْجِية صُوَر مُقطّعة.

كان الليلُ في منتصفه والجوُّ باردًا. خطر لي أن السيارة قد لا تستجيب، إلا أنها لِحُسن حظِّنا لَبّتْنا على الرغم من رَجرجتها. كنّا مُتعبين ومُشوّشين، إلى جانب أننا تعرّضنا إلى الاصطدام بالرُّكام الحجري الضخم الذي لا بدّ أنه وُضِعَ عند المُنعطف ليؤدي دور حاجزٍ يحول دون التّدهور في الجُرُف.

انحدَرنا صوب "بورغَند"، وفَرِقْنا لمّا انبثَقَت أمامنا كنيسة القضبان فجأة من خلال بَصيص الفجر الضبابي كأنها ديكور مِنَصّة جَنائزية. كانت الكنيسة مُطوّقة بشواهِد أضرحةٍ قديمة، وأمام إحداها تحترق شمعة – شمعة وردية اللون في ليلة الصيف البَكماء.

تابعنا التقدّم بإزاء النهر فيما بدأت معالِم الصُّبح تلوح، وعلى النقيض ممّا درَجنا عليه لم ننفكّ في ذلك اليوم نزدادُ هَلَعًا كلما أمعَن الفجر في الانبِلاج. عندما وصلنا إلى "ليردال" كان النهار قد بدأ تقريبًا، إلا أننا أجمَعنا على أن الوقت مُبكِّر جدًا ومُتأخِّر جدًا للحصول على سرير؛ وهذا قد يثيرُ الشكَّ أيضًا، عِلاوة على أننا لم نملك أي رغبة في استعراض السيارة المُتَضرِّرة، وهكذا قطعنا الكيلومترات العشرة الأخيرة إلى ميناء العبّارات في "ريفسنيس". هناك، أوقفْنا السيارة عند الرصيف – السيارة الوحيدة في المِنطقة – لأنه كان أمامنا عدّة ساعات من الانتظار إلى حين وصول العبّارة الأولى، وقرّرنا أن نُرجع مِسْنَدي مقعدينا إلى الخلف أملاً بإغفاءة قصيرة. لكننا في الواقع كُنّا مُستسلمين لمصيرنا. قُلنا إن الشرطة ستقبِض علينا حتمًا

قبل أن نقطعَ الخليج. فنحن ليس لدينا أي مكان آخر نقصده إلى أن تأتي العبّارة، وحتى لو ماتت المرأة، حتّى لو لم يَعُد في مقدورها الإفضاء بأي شيء، فإن سائق العربة البيضاء رأى في طريقه فولكسفاغن حمراء على سطحها زَلاَّجات قبل دقائق فقط من عثوره على المرأة المُصابة أو الميتة في مَهْبِط الدرب. كُنّا متأكِّدين من أن الشرطة قد تصل في أي لحظة.

ما دَعاها يا ترى إلى المشي في أعالي الجبال وفي مُنتصف الليل؟ لا أبنيةَ هناك ولا حتّى كوخ صيد واحد أو مَقصورة قَنْص. لم تكن متأنّقةً في ملْبَسِها على نحو استثنائي، وثيابها لا تشبه في شيء ما يلبسه هواةُ السفر على الأقدام.

مَنْ *كانت* تلك المرأة؟ وهل لدينا ما يؤكِّد أنها كانت وحدها هناك في الأعلى؟ أو أنها في صُحبة آخرين؟ أيُحتَمل أنها مُنخَرِطة في أمرٍ ما؟ فنحن في جميع الأحوال لاحَظنا وجود القاطِرة الضخمة عند قمّة "هيمْسيدال". مَنْ يدري، لعل شيئًا ما كان يجري في الخَفاء...

كنّا أشدّ استنفارًا من أن يُداعِبَ النوم أجفاننا. وضوءُ النهار أفزَعَنا. اتكأنا هناك بعيونٍ مُغمضة نتهامس كأطفالٍ يَستضيفهم بيت آخر. أشرتُ إلى أننا لم نتحرك إلا درجتين أو ثلاثًا في كَوكب صغير يدور حول شمسٍ من الشُموس. فأضفْتَ بسرعة قائلاً إن الشمس ليست إلا واحدة من مئة ألف مليون نَجم آخر في درب التَبّانة. ومن هذه النقطة أقلَعْنا. قُلْنا إن ما تعرَّضنا له ليس إلا مُوَيجة في محيط عظيم. اضطررنا إلى تكبير المَنظور وتضخيمه. اضطررنا إلى إبعاد بُؤرة التركيز عنّا. وآنذاك لم أجد الدموع تترَقرقُ في عيني، ولم أقُل بلا تبصُّر إننا في يوم ما لن نبقى هنا. هذا ما عاد ملائِمًا: ما عاد المَناخ المناسب للحزن؛ حلَّ الشعور بالذّنْب محلَّ الحزن، ربما لأننا الآن تسبَّبنا في موت إنسان آخر. استقبحتُ الفكرة إلى درجة أنني لم أتجاسر على الإفصاح عنها. أما هاجِسها فلازَمني طَوال

الوقت. هاجِس إنهاء حياة مخلوق! أنا التي عجزتُ دومًا عن تقبُّل فكرة غيابي غير الواعي في يوم ما عن سطح كوكبنا، وبالتالي عن سائرِ الكون الجسيم، بل عن كلِّ شيء. عنكَ أنتَ أيضًا يا ستاين، نعم، عنكَ أنتَ أيضًا.

بعد ذلك الصباح الهَشّ عند ميناء العبّارات، أعتقد أننا قلّما أتينا في أي مناسبة خلال الأيام القليلة اللاحِقة على ذِكرِ 'المرأة التي دهسنا'، أو أشرنا صراحةً بأي طريقة إلى ما حدَث. اكتفينا بأن نقول *ذاك*، إذا اضطررنا إلى التلميحِ إلى الموضوع، أو *ما جرى*. إلا أنكَ في الحقيقة كنتَ تقودُ السيارة بالسرعة القُصوى هناك على ذلك الصَّعيد الجبلي؛ كُنّا قد أشرفنا للتوِّ على منخَفَضٍ مُعتدل، فوضعتَ قدمكَ على أرض السيارة وتركتَ الخنفساء الحمراء تفعل كلَّ ما هي مؤهّلة له، وربما صدَمْنا في تلك الأثناء امرأةً وقضينا عليها عند هضبة "هيمْسيدالفييلي". بَيْد أننا لم نستطع التحدُّث عما جرى فعلاً بعد ذلك. فمنذ لحظة عودتِنا إلى البيت في "أوسلو" دُفِنَ هذا الفَصل من القصة وكُبِتَ. كيف كان لنا إذًا أن نستمرّ في الحياة معًا؟ إن الحياة مع الآخر تعني في ما تعنيه تبادُل الحديث معه، تعني أن يفكّر الشريكان معًا بصوت عالٍ. تعني أن يتشاطرا اللهو والضحك، وأيضًا أن يناما معًا ويلتصقَ أحدهما بالآخر.

من ناحيةٍ أخرى، يجدُر بي أن أبادِر إلى القول إننا تحدّثنا عن مَرأة العِنَبية بانفتاحٍ كبير. واليوم، بعد عديدٍ وعديدٍ من السنوات، هي وحدها التي تجعلني قادرةً على أن أقول ثانية بلا أي شعور بالخِزي إننا أقدَمنا على صَرعِ مخلوق وقتلِه في الجبال. سأعود إلى الحديث عن مَرأة العِنَبية المُدهشة فلا تقلَق. أنا فقط أريد التثبُّتَ في هذه المرّة من أنني أروي كلَّ شيء وفْق تسلسله الزَّمني.

وأنتَ؟ هل وصلتَ أخيرًا إلى مكتبكَ؟

نعم وصلتُ بالفعل. وبعدَ أن سجّلتُ دخولي إلى "آوت لوك" جاءني خلال دقائِق إشعارُ أوّل بريدٍ إلكتروني لليوم، وهو منكِ طبعًا. وقد انتهيتُ الآن من قراءتِه وحذفتُه.

التفاصيل التي تتذكّرينها أكثر ممّا أتذكّره. أتساءلُ فقط ما إذا كنتِ تُبالغين في تشديدكِ على أننا حتى في ذلك الأوان خالَجَنا تصوّر حَتمي بأن المرأة التي ارتطمنا بها لم تتعرَّض للإصابة فقط، بل ماتت من جرّاء الاصطدام. في الواقعِ هناك احتمال في أن تكون قد تعرّضَت إلى ضربةٍ قوية أدّت إلى كَسْر ذراعها ليس إلا، وربما، في هذه الحالة، حصَلت على نقلةِ طريق إلى "هيمْسيدال" في العربة البيضاء. على أي حال، لا أُنكِر، وقد جلستُ الساعةَ في مكتبي واستعدتُ الحدثَ كلّه، أنه كان دراميًا بما يكفي.

أما 'مَرأة العِنَبية' فأوافقكِ على ضرورة التريّث قبل التطرُّق في روايتكِ إليها. وستكون لَديَ بالتأكيد بعض الآراء المخالِفة، وأنتِ عمومًا تعرفين هذا.

آراء مُخالِفة! إنني أكاد أشمُّ رائحة المعهَد العِلْمي الذي يحيط بكَ. وبالمناسبة، كيف يبدو؟ أعني مكتبكَ...

أنا في جُحر جداري من تلك الجُحور الجامعية النَّموذجية، مكتب مستطيل في مبنى قسم الرياضيات، ويُعرف أيضًا باسم مبنَى "نيلز هينريك إيبل"، الرُّفوف والمنضَدة والأرض مُزدحمة بأكوام التقارير العِلْمية والملخّصات الوافية والمجلات الدورية المَتخصّصة. واليوم، آخر ما أفكّر فيه هو إعارة هذه البيئة الدُّنيوية المحيطة بي أي انتباه. ففي أثناء قراءتي على الشاشة لِما كتبتِ، شعرتُ كما لو أنني معكِ في الغرفة نفسها أستمعُ إليكِ تروين الحكاية، أو حتى معكِ في السيارة نفسها. لذا تابعي حديثكِ. أوقفْنا

السيارة أمام ميناء العبّارات ذاك عند شاطئ "سونيفيورد" الجنوبي.

في حدودِ الساعة الرابعة صباحًا كان الضّياء قد شاعَ، ولم تمْض فترة إلا وارتفعَت الشمس، ومع ذلك أبقينا عيوننا مُطْبَقة بقوّة وتابعنا التّهامُس. ذكّرنا بعضنا بعضًا بما في حياة العصر الحَجري من أمان، سواء قبل آلاف السنين أو قبل سنةٍ على هضبة "هاردانييرفيدا". وحتى هذه الأخيرة بدَت لنا عند ذاك موغِلةً جدًا في البُعد عن ليلتنا وما عانيناه فيها. فمَهّدنا بالحلم طريقًا عاد بنا إلى أُمسياتها الطويلة حينما كان في وسْعنا الاستلقاء خارج الكهف وإمْعان النّظر في آفاق الليل الكَوْني. خِلنا آنذاك أننا قادِران على أن نخترقَ بأبصارِنا المسافات الشاسعة، وأننا حدّقنا مباشرة في صميم مُعجزة السماء. بل كِدنا نألَمُ من تَماسِّنا الفُجائِي المُباشَرِ ذاك مع وَخْزِ لألاءِ أنوارِ تفصلنا عنها سنوات ضوئية بعيدة. تلكَ الأنوار؛ تلك الأضواء العجيبة، جاراتنا المَرْئيات اللاتي على الرغم من كلّ شيء تدافَعن في الفضاء لآلاف السنين قبل أن يَحطُطن رِحالَهن في عقولِنا حيث استُقْبِلن وأُخْمِدن. تلك الأشعَّة الطالعة من الأجسام السَّماوية النّائية التي ما فَتِئت تسافرُ وتسافرُ بلا توقُّف قبل أن تلامِس شَبكيات أعيننا - مواصِلة رحلتها إلى بُعْدٍ جديد وحكايةٍ خُرافية أخرى عَبْر نِقابِ الجِهاز الحِسّي ومنه إلى أعماق الرُّوح مباشرة. ثمّ، في إحدى الليالي بزغَ القمر هِلالاً، مِثْل مِنْجل حادّ في البداية، مِنْجل ما لبث أن راح ينمو شيئًا فشيئًا مع كلّ ليلةٍ جديدة إلى أن غمَر ببريقهِ الفضي هضبة "هاردانييرفيدا" وقُبَّة السماء. جاءنا فَرَجًا، ليس فقط لأنه أتيح لنا التطلّع في عيون كلّ منّا ليلاً، بل أيضًا لأنه أمَدّ مُقَلَنا وروحينا بمُهلةٍ أراحتنا من التّفرُّس في تلك الأغوار الكَوْنية كما دَأبْنا أن نفعلَ حتى ذلك الحين.

بينما قَبَعنا في الخنفساء الحمراء نغمغِمُ عن العصر الحَجري والكَون وماضينا البعيد، أبقينا عيوننا مُغمَضة وبقي الليل بالنسبة إلينا مُخيّمًا - اتفقنا على أن نواصل تخيّلها ليلةَ مَبيتِ أطفالٍ في الخارج لأطول مُدّة ممكنة،

بِغَضِّ النظر عمّن يوقظنا في خِتامها؛ سواء طاقِم العبّارة أو الشرطة – ثم، لمّا تناهَى إلينا تَردادُ أزيز العبّارة البعيد في الخليج عرفنا أن ليلتنا على وَشْكِ أن تنتهي، وأن على أحدنا أن يستعيدَ بسرعة ذِكرى رشّاش الشُّهب الغزير مساءَ نَحَرْنا ذاك الحَمَل. كان مشهدًا مُذهلاً لَجَم ألسنتنا. عَدَدنا ثلاثة وثلاثين شِهابًا سقطت في بحر دقيقتين أو ثلاث، بيد أن ما اعتَرانا من انبهار عطّل فينا الحُضور الذِّهني لنفكِّر في الأمنيات التسع والتسعين التي من حقّنا أن نتمنّاها. كنّا في جميع الأحوال قد نَعِمْنا بوجبة جيدة. فقد أكَلْنا لحم حَمَل مشويٍ، ووضعنا المزيدَ منه جانبًا للأيام القادمة. والأمنيات؟ حسنًا، لدينا بعضنا بعضًا.

قَطَعنا الخليج. تفحّصَ أفرادُ طاقِم العبّارة مُقدِّمة السيارة ومَحَّصوها، ثم نظروا إلينا بتعاطُف. فالوضعُ مع أضرارِ الحوادث لا يختلف عنه مع الإصابات الجسدية: يمكن المرء تَخمين حَداثة عهدها. شُهود، فكّرنا، وأظنُّ أننا تهامسنا عن شيء مُشابه. كنّا نعرف طبعًا أن مؤسسة الإذاعة النَّرويجية درجَت حتّى في تلك الأيام على تقديم بَثٍّ ليلي تُورِد فيه مُوجزًا للأخبار على رأس كلّ ساعة. أما ما لم نعرفه فما كانوا يستمعون إليه حينذاك في غُرفة القيادة.

لكنهم لَوّحوا لنا مُودّعين لما وصلنا إلى اليابِسة في "كاوْبانغَر"، وتابعنا رحلتنا غربًا نحو "هيلا". ومن هناك كان يتعيَّنُ علينا أن نستقلّ مركبًا إلى "فيارلاند"؛ نقطة بداية رحلتنا إلى جبل الجليد. جرى هذا قبل الإنترنت بزمان بعيد، إلا أننا كنّا قد أحضرنا معنا *دليل الجدول الزَّمني النرويجي*، ومنه عرفنا أن ما لدينا من وقت يتسع فقط لإدراكِ أوّل عبّارة إلى "فيارْلاند"، وإذا لم نصِل في الوقت المناسب سنضطر إلى قضاء نصف النهار في "هيلا" بانتظار العبّارة الثانية. بَيْد أن لعبة الكَرِّ والفَرِّ تصاعدت: أوقفتنا دَوْرية شرطة في الطريق بين "هيرمانسفْيرك" و "لايْكانْغَر". لقد أدركونا أخيرًا.

كانت هناك سيارتان للشرطة تعترِضان الطريق؛ والمصابيح الزرقاء

تومِض من إحداهما. قلتُ لنفسي غباء منّا إذ تَخيّلنا أننا نستطيع الإفلات بسهولة من فعلتنا: مُقدّمة سيارتنا وحدها حملَت دليلاً كافيًا على ما تورّطنا فيه. ولا بُدّ، وقد أصبحنا في وَضَح النهار، من أن الشرطة أُبلِغَت منذ ساعات عن الحادِثة، حتى بلا وجود هواتف جوّالة. ومع أنكَ أنتَ مَنْ حَرَص على تلفيق حُجَّة غِياب مُضلِّلة عند المنحدَر، أنتَ بنفسكَ قلتَ وهم يلوّحون لنا لنقفَ جانبًا، سنستسلمُ، لن ننكِرَ أي شيء.

هززتُ رأسي وهززتُه موافقةً. ومع ذلك تابعتَ: ذُعِرنا، أتَرين، هذا كلّ شيء. فهززتُ رأسي من جديد. كنتُ في غاية الإعياء والبؤس. كلّ شيء يخصنُّني لحقه الدمار. كلّ ما أحببتُه وآمنتُ به داستَه الأرجُل. وبعد ما حدثَ في الجبل ما عادت لي إرادة إلا إرادتكَ.

ثم تبّين لنا أنه تفقّدٌ روتيني ليس إلا. لم نُضطر حتى إلى الترجّل من السيارة، وذاك من حُسْن حظنّا لأنني كنتُ أوهن من أن أستطيعَ التحامُل والوقوف ثابتة. كنّا في مطلع صباح يوم الاثنين، ومع ذلك لم نتعرَّض ولا حتى لاختبار قِياس الكحول في أنفاسنا. إلا أننا نِلْنا مُخالفة. طُلِب منّا أن نستبدلَ المصابيح الأمامية في غُضون عشرة أيام، وفي ذلك الوقت سنكون، كما قالت الشرطة، قد عُدنا إلى "أوسلو". تصرَّفوا بدماثة وتفهُّم، وعلى الرغم من حلول ليالي الصيف الوَضّاءة، تضمّنت المُخالفة بندًا يشترطُ الامتناع عن القيادة ليلاً قبل تغيير المصابيح.

تنبيهٌ بالامتناع عن قيادة السيارة ليلاً يا ستاين. ذاك كلّ ما نِلناه. وهو قرار لا يمكن قَطعًا مُجادلته...

بَلَغْنا "هيلا" في الوقت المناسب قبل قدوم العبّارة ورحيلها. ومثل "ريفسنيس" كانت "هيلا" مثالاً نموذجيًا على لا مكان: مجرّد منطقة توقُّف للعبّارات، وليس فيها ولا حتى كُشْك بيع واحد. عاوَدني في تلك الأثناء اشتهائي القَسْري للشوكولاتة، وبدأتُ أُعاني. لذلك لم نجد ما نتلهّى بالحديث عنه خلال نصف الساعة قبل قدوم المركب من "فاناسنْيس" إلا زَلاَّجتينا. قرّرنا

أن نترك الفولكسفاغن هناك – لم نختلف على هذا. إذ لا فائدة من نقلها إلى قريةٍ تقع على ضفّة زُقاق بحري وتكاد تخلو من الدروب، ثم إن التباهي بعرضِها على الملأ ليس فيه أي طَرافة. إنما، ماذا عن الزّلاّجتين؟

لا ريب في أنكَ تتذكّر هذه التفاصيل كلّها بقَدْر ما أتذكّرها. ومع ذلك أرى أنه ينبغي ولو لمرّةٍ واحدة أن تُرْوَى القصة بأسلوب متساوِق.

ثم انبرينا نناقشُ الأمور بطريقةٍ عقَلانية ومَدروسة. هل علينا أن نستديرَ ونعود أدراجنا؟ وهناك، ونحن عند رأس البحر الصّخري، أجمَعنا بلا تردّد على أن واحدنا يدين للآخر بالوصول إلى جبل الجليد. إلى هناك كانت وجهتنا. هذا ما وَعَدْنا أنفسنا به، ومهما جرى بعد ذلك ما زال لِزامًا علينا أن نجد مكانًا يُؤوينا – احتجنا إلى لِحاف نتقوقَعُ تحته معًا. أما هل هي مسألة يوم أو يومين أو ثلاثة قبل أن يأتوا للقبض علينا، فهذا ما لم يكن لنا به عِلم. الشيء الوحيد الذي بَدَونا متأكّدين منه أنها مسألة وقت فقط؛ مسألة أيام في أفضل الأحوال. فقد رأينا كيف تفحّصَ طاقِم العبّارة علامات الاصطدام الحديثة على السيارة، وكذلك أوقفَتنا شرطة الدّوريات وتفقّدتنا وسجّلت ملاحظاتها عنّا. والبقية، قلْنا، ما هي إلا مسألة تنسيق وتحقيق، بمعنى آخر هي رَهْن الوقت. ما تجلّى واضحًا لنا خلال نصف الساعة التي قضيناها في "هيلا" أنه ليس أمامنا أي مُغامرة تزلّج. لم نكن على تلك الدَّرجة من برود الأعصاب لنلهوَ في ربوع جبل جليدي بعد ما حدث. وعلينا قبل كلّ شيء أن نطالِع الصُّحف ونستمع إلى المِذياع، كنّا متيقّظين. تحتّم علينا هذا. عرفنا أنّ ثمّة فندقًا أسطوريًا نستطيع الإقامة فيه. ورأينا أنه في هذه الحالة لا بأس من ترك زَلاّجتينا في "هيلا". لا، قُلْنا مُتراجعين، فالأوصاف تتضمّنُ فولكسفاغن حمراء على سطحها زَلاّجتان. ومتى؟ في أواخِر شهر أيار! أدركنا أن في ذلك مجازفة كبيرة. إنما كيف نُبَرِّر ارتيادنا تلك البُقعة؟ كانت الفكرة المَنطقية الوحيدة أن نزعُم أننا من هُواة التَّجوال على الجليد.

ردّدَ شيء في أعماقِنا أن علاقتَنا، بغضّ النظر عما قد تؤول إليه الأمور – أعني بالنسبة إلى الشرطة والتَّحقيق – تعرَّضَت إلى ضربة قاصِمة.

فنحن، بمعزلٍ عن نوبات الذُّعر التي تصيبني، ونزوعكَ إلى مُعاقَرة كأسٍ أو كأسين أكثر من اللازم، كنّا حتى تلك اللحظة التي صَدمنا فيها المرأة ذات الشال الوردي عند بحيرة "إلْدَرفاتْنت" نعيش معًا على أتمّ وِئام تقريبًا، ثمّ، وللمرّة الأولى على امتدادِ علاقتنا وجدنا أنفسنا نتخبَّطُ في لُجَّة كارثة. إلا أن أيًا منّا لم يكن مستعدًا بَعْد للتَّخلّي عن الآخر، قد يحدثُ ذلك لاحِقًا، في الغدِ ربما، أو بعد يوم يليه، إنما ليس بَعْد.

كان علينا أن نتزوَّدَ ببضع ساعاتٍ وبضعة أيام أخرى وأخيرة معًا، قبل أن تصِلَ علاقتنا إلى النهاية الحاسِمة.

وهكذا، بمزاجٍ يغلبُ عليه المرح قُمنا برحلتنا عبر لسان الخليج الضيق. أبحرَ المركب نحو خطِّ الشّمال ميمّمًا جبل الجليد الهائِل. وأثار المشهدُ من حولنا انطباعًا قويًا بأن شيئًا ما حدث بيننا: كان أشبَه بالانفلات من الأسر، أو مثل انفجار سَدٍّ مفاجئ. لَهونا وعاوَدَنا الضحكُ من جديد. هل تتذكَّر؟ أدّينا بإتقان دور شخصين طليقين ومُطمئني البال. بَرَعنا في تمثيل أدوارنا. ما ساعدَنا بالتأكيد أننا لم نكن قد نُقْنا النوم، إلا أن الأهمّ من كلّ شيء هو حقيقة أن علاقتنا بقيت حَميمة كالسابق – مثلما يمكن أن تكون لاثنتي عشرة ساعة أخرى أو أربع وعشرين ساعة أو ربما ثمان وأربعين ساعة. أصبحنا فجأةً نُسخةً عن العاشقيْن المُجْرمين "بوني" و "كلايد". لطالما نَحَوْنا في السابق إلى التفرُّد، وهو ما دَعوناه في أغلب الأحيان موقِعًا أماميًا. وها قد غَدونا أخيرًا خارجين عن القانون أيضًا. واجَهنا التحدّي – إنه شيء نستطيع الإقرار به بعد ما يزيد عن ثلاثين سنة – بدأنا نتقمَّصُ أدوار التَّهكّميين.

قُلْنا في الفندق إن في نيَّتنا المُكوث بضعة أيام فقط، ولا نعرف المُدّة بالتحديد. وبما أنهم رأوا زَلاَّجتينا أضَفنا أننا نريد الصعود إلى جبل الجليد، وكذَبْنا بشأن خضُوعنا إلى دورات متخصّصة في المشي على الجليد وقيامنا ببعض التدريبات. وذكرتَ في مَعْرِض الحديث شيئًا عن جبل جليد "سفارتيسن"...

كلّ ما أردناه بضعة أيام معًا، أنا وأنتَ. خطَر لنا أنها قد تكون مُجازفتنا الأخيرة. ألَمْ نزعُم لهم أننا عروسان؟ كان ذلك بعد أربع سنوات فقط من نَقْضِ القانون المُسمَّى 'قانون التَّسَرّي'؛ بل حتى في سَنَتنا الأولى معًا لم نأمَن ألا يُرْفَع تقرير للشرطة عن علاقتنا الخارِجة عن إطار الزَّواج، على أساس أنها 'مَشبوهة ومُهينة'.

لم نتوانَ على أي حال عن طلبِ أفضل غرفة. زعَمنا أننا نحتفل بمناسبة خاصّة بنا - أعتقد أننا حبكنا نسيج حكايةٍ عن النجاح في الامتحانات. وهذا لا يُجانِب الحقيقة كثيرًا، لأنني كنتُ قد أنهيتُ للتوّ دورةً فرعية في تاريخ الدين، وأحرزتَ أنتَ بعض الامتيازات في الفيزياء.

لم نواجه مشكلةً في حَجْز أفضل غُرف الفندق، لأن موسم السياحة لم يكن قد حلَّ بَعْد. أعطونا غرفة البُرج، وإنني أشعرُ بالتردّد في إدْراجِ هذا في سردي يا ستاين، لكن، هذه الغرفة هي نفسها التي مكثتُ فيها أنا ونيلز بيتر عندما جِئْنا مؤخّرًا في تلك الليلة الصيفية. استغربتُ عودتي إلى هناك - بصحبته. ولا أدري إلى أي حدّ لعبَت الصُّدفة دورها حتى انتهيٍ بي المَطاف معه إليها، ومع أنني لا أتكلّم هنا على أيِ شيء ما ورائي، أؤكِّد لكَ أنه هو من تولّى مهمَّة الحجز، وأنا متزوجةٌ من رجل مِعْطاءٍ جدًا ومُراعٍ لمشاعر الآخرين. لم ينزعج إلا لأنكَ استخلصتَ لنفسكَ مُعظم الوقت الذي خصَّصناه لزيارة بلدة الكتب. كنّا متلهّفين على التَّجوال في المكتبات لنقتنصَ كلّ الكتب التي لم تُتَح لنا قراءتها ونحن في رَيْعان الشباب، أظنّني أخبرتكَ أنه استعاد حُبُوره في طريق عودتنا إلى البيت.

فيما نحن واقِفان أمام مكتب الاستقبال نسجّلُ دخولنا في ذلك الصباح، سألناهم أيضًا ربما بشيء من الوَقاحة عن شيء آخر. فنحن في الواقع لم نملك خِيارًا غيره. استعلَمنا عمّا إذا كان هناك مِذْياع في الغرفة، ولما أجابونا بالنفي استفسرنا ما إذا يمكننا أن نستعيرَ جِهاز ترانزستور. ربما كان في تصرفُنا هذا مخاطَرة، إلا أننا شعرنا بحاجة ماسَّة إلى التزوُّد بالمعلومات.

قُلْنا إنكَ تدرسُ القانون وإنكَ حريصٌ على متابعة بعض برامج الشؤون الحالية. وأوضحتُ لهم أنه شيء بخصوص ألمانيا الغربية ومُنَظَّمة الجيش الأحمر "بادر - ماينهوف".

كان قد عُثِرَ على "أولريكه ماينهوف" ميتةً في السجن قبل أيام قلائل فقط. ولا أدري ما حداني إلى قول ما قلتُ، ولعلّ ذلك عائد إلى أنني شعرتُ فجأة بأن فيّ أنا وأنتَ شيئًا من "أندرياس بادر" و "أولريكه ماينهوف". عاجلَتَني عندئذٍ بنظرةٍ حانِقة.

ما يهمُّ على أي حال هو أننا حَصلَنا على الغرفة وعلى المِذياع. وحصلنا أيضًا على شُرفتنا الخاصّة شبه دائرية التي تُشرِفُ على منظر رائع لجبل الجليد والخليج والحانوتين في الأسفل عند ميناء البواخِرِ القديم. ولمّا أوينا إلى السرير في ذلك الصباح، لم نفعل شيئًا سوى الاستلقاء والاستماع إلى المِذياع. ولم نكترِث حتى بتحَرّي الوقت لأننا كنّا شبه متيقّنين من أن كلّ شيء يبثُّه ذلك الجِهاز الصغير يتعلّق بنا. وقبل أن يُخضِعَنا النوم لسلطانه نجحنا في العثور على نشرةٍ مُنتظمة، تتضمّن أخبارًا مَحلّية وخارجية. دَعَم البرلمان مشروع قانون تخفيض سنّ الخدمة العسكرية من عشرين إلى تسعة عشر، وتُوفي الفيلسوف الألماني "مارتن هيدغر"، أما الجبال فلم تَرِد أي أخبار عنها.

كان تَوتُّرنا بسبب غياب المعلومات قد استفحلَ. وكانت شخصيةُ "راسكولنيكوف" بَطَل رواية "الجريمة والعقاب" لـــ "دوستويفسكي" ما زالت حيّةً في ذِهننا من جلَسات الشمبانيا في سريرنا المُزدوج في البيت، ومِثْلهُ بدأ يعتَمِل فينا هاجِس الرغبة المُلحَّة في أن يُعثَر علينا أو على الأقلّ أن نُوبَّخ بحكمة أو نُخْضَع للاستجواب. بيد أننا سرعان ما غَفونا. ربما حتى من غير أن نطفئ المذياع، ولم ننهض إلا في وقتٍ متأخِّر عَصرًا.

استيقظتُ على نشيجِ بكائكَ. أنتَ من كان يبكي الآن. عكفتُ عليكَ أخفّفُ عنكَ. أحطتُ صدركَ بذراعي، قبّلتُ عنقكَ، وحاولتُ هَدهَدتَكَ.

بعد فترةٍ قصيرة قعدنا في السرير ثانيةً وعدنا نستمعُ إلى الأخبار. تَربَّصنا بكلّ كلمة وردَت في النشرة التي بُثَّت كلّ نصف ساعة. ولم نسمع شيئًا عنّا. كانت الساعة تشيرُ إلى السابعة، وقد مضى أكثر من نصف يوم على حادِثة الجبل التي لا تكادُ تختلف في شيء عن جريمةِ صَدم وحشي بالسيارة وفِرار؛ جريمة غادرَ المُعتدي القاسي القلب مَسرحها - وخلَّفَ وراءه الضَّحية المُصابة أو الميتة - غير مُبالٍ باستدعاء سيارة إسعاف أو إعلام الشرطة. ومع ذلك لم نسمع شيئًا مثل 'نُشِرَت اليوم تعزيزات أمنية كبيرة...' لا، لا شيء من هذا. على الرغم من أننا عرفنا حقَّ المعرفة، نحن المُتواريان في غِرفة فندق في أبعد طرفٍ من لسان "سونيفيورد"، أننا لُذْنا بالفِرار بعيدًا عن المرأة ذات الشال الوردي وتركناها لمصيرها. أننا أرديناها أرضًا فيما نحن مُنتشيان حتى الثُمالة بسعادتنا ثم تابعنا طريقنا لا نَلوي على شيء. عثورنا على شالها يؤكّد ذلك. وهذا يعني أن سائق العربة البيضاء هو من لملمَ البقايا من بعدنا. أَفَلَم يَقُم بالاتصال بالشرطة؟

عَلامَ انطوَى كلّ ذلك؟ لماذا لم يذيعوا شيئًا عمّا حدث؟ ما السبَّب وراء السكوت عنه؟ هناك سببٌ ما بلا ريب، فماذا *يمكن* أن يكون تفسيره؟ لماذا لم تُصرِّح السُّلطات بما تعلَم؟ ماذا كانت تفعل تلك المرأة الغامِضة ذات الثياب الرمادية والشال الوردي في الجبال في منتصف الليل؟ ما سبب وجودها هناك؟ أيحتمل أن للأمر علاقَة بالجيش أو بالجهاز الأمني؟ أترانا تورَّطنا عن غير قصدٍ في شيء كبير، شيء يمسُّ الأمْنَ القَومي؟

أنا كنتُ صاحبة الخيال الأوسع. هل من شيء يؤكّد لنا أن المرأة التي صدمنا هي مخلوق عادي مثلنا؟ تساءلتُ. فلا شيء في المِذياع عن شخصٍ مَفقود. ولم تُناشِد الشرطةُ الشهودَ للمُثول أمامها. لعلّها من المخلوقات الغريبة، زائرة من الفضاء الخارجي ربما؟ لأنه *كان* هناك نور غريب يشعُّ من الجبال في تلك الليلة. تحايلتُ، طمعًا في استدراجكَ لِتُعلِّقَ بشيء. قلتُ، لَمَحْنا نورًا برّاقًا في السماء.

وجَدْنا الأمرَ كلّه مُحَيِّرًا جدًا. من كانت تلك الضحية حقًا؟ إذا لم تكن من

الدُّخَلاء أو من الأشباح، فلا ريب في أن أحدًا في مكانٍ ما يستعلِمُ الآن عن الجاني. حاولنا أن نرسمَ خطوطًا عامّة: سيبحثون عن رَجل، لا شكّ في هذا – فأي امرأة لن تلوذَ بالفِرار من فِعلةٍ كتلك. ولعلّ الشرطة أو رجال الأمْن يريدون لسبب ما أن يسعَوا إلى القبض على المُعتدي أوّلاً قبل الظهور عَلانية ونَشْر الخبر.

وفكّرنا، بما أن السيارة متوقِّفة في "هيلا"، فهَلَ ما علينا إلا أن نُبلّغ عن أنفسنا؟ في وسْعنا الاتصال بالشرطة تحت اسم مجهول لنزوّدها بمعلومات عن السيارة المُتضرِّرة المركونة عند ميناء العبّارات، وبهذا نضع حدًّا نهائيًا لسلوكِنا الذي لا يُطاق. ثم إنِ أوصاف السيارة سبَقَ أن سُجّلت في مِلَفّات الشرطة باعتبارها وسيلة نقل مُشتبَهًا بها.

ثم، ما لبثَ أن وُلِدَ مطمحٌ جديد مُغرِق في الأنانية من رَحِم فوضى الأسئلة والأجوبة المُتَعثِّرة. وأنا مَنْ بادرَ إلى قَولبتهِ. قلتُ، يا ستاين العَزيز عِشنا معًا خمس سنوات، وفجأة اعترضَنا طالِع سيئ، جعلنا للمرّة الأولى والوحيدة نُقْدِم على تصرُّف أخرَق حقًا، لأن فِرارنا بعد ذلك الاصطدام لا يمتُّ إلى العقلانية بصِلة. ومهما حدثَ للمرأة المسكينة التي دهسناها، ما عُدْنا نستطيع بأي حالٍ مساعدتها الآن. أفلا يجدُر بنا أن نحاولَ قَدْر المستطاع جَعْل هذه الأيام الأخيرة رائعة؟

كَوكب الشِّعْرَى يا ستاين، رُحْتُ أتضرّعُ، ومَجَرَّة المَرأة المُسلسَلة (أندروميدا)! وعلى الفور استوعبتَ تداعي المعاني، أعني الصِّلة بين ما أقوله وبين ما كنّا نتحدَّثُ عنه في "ريفسْنيس".

تضرّعتُ من أجلِنا، ولم تكُن صَعْبَ المِراس. وهكذا بدأت أيامُنا البديعة الأخيرة تلك التي قضيناها معًا. أخذنا حَمَّامًا، وبعد نصف ساعة كنّا نجلس في الرَّدْهة الشبيهة بالمَتْحَف نتناول المُقبِّلات. لم نجد عندهم مشروب "غولدن باور"، لكن توافر لديهم "سميرنوف" و "لايم".

بعد العَشاء عُدنا إلى الرَّدهة وجلسنا أمام المدفأة وقهوتنا معنا، إلا أننا

منذ ذلك الحين ولبقية الأسبوع حَرصنا على إبقاء جدول مواعيد المِذياع في أذهاننا، وكان لا بدَّ لنا من الصعود إلى غرفتنا لنسمعَ نشرة الأخبار في الساعة العاشرة، ومع ذلك لم يَرِد أي شيء عنّا.

لا أحتاجُ إلى الدخول في تفاصيلِ الأسبوع الذي أمضيناه هناك معًا لأنكَ تتذكّرُها كلّها، وقد تطرّقنا إلى هذا قليلاً في آخر لقاءٍ لنا. ما يمكن أن أذكُرَه هنا نزهاتنا الطويلة اليومية على الأقدام. في اليوم الأول خُضنْا طريقنا صعودًا نحو "سوبلهيلدال" وأوغلنا إلى لسان الجبل الجليدي. أتتذكَّر كلّ شيء عن ذلك اليوم يا ستاين؟ أيحضرُكَ ما وجدناه بين الطحالب عند النهر، بعد أن أكلنا الشوكولاتة واشترينا قُفّازات مَحبوكة يدويًا من حانوت تَذْكارات "هيوردس"؟ ذلك الحانوت القائمِ إزاء جبل "سوبْهيليبرين" الجليدي؟ ربما علينا إبقاء هذا سرًا دَفينًا. في اليوم التالي استعَرنا الدرّاجتين ومنذ ذلك الحين فصاعدًا مَضينا نستكشفُ "هوربيدال" و "بويادال". وفي هذه الأخيرة أمضينا ساعات عند الرُكام المُتَخلِّف من العصر الجليدي الأصغر نتأمّل التشعُّب الجليدي.

لازَمَنا جِهاز الترانزستور في جميع نزهاتنا. ومرّة ونحن نمرُّ بمكتب الاستقبال أشارت امرأةٌ اسمها ليلى إليه وسألتنا بنبرةٍ فيها تلميحٌ ساخِر، ‘"بادر" و "ماينهوف"؟’

تظاهَرنا بأننا لم نسمعها، وفي الوقت نفسه بقي غِياب المعلومات مُستمرًا. لا أحد، على ما بدا، اكترثَ بما أقدَم "بوني" و"كلايد" على فعله في جولتهما الجامِحة عبر البلاد. وراقَنا ذلك لأنه مَنَحَنا يومًا آخر. لم نَحْظ قطّ بزمنٍ أروع. احتفينا بكلّ ساعة وُهِبَت لنا.

تناقشنا وتَكَهَّنا. هل كانت هناك نيّة مُبيّتة في أن تُدْهَس تلك المرأة وتُقتل؟ فَرَضية كهذه ستخفّفُ قليلاً من وَطأة شعورنا بالذنب إذا صحّت، إلا أن الفكرة جعلتنا نشعر أننا قد استُغْلِلنا. ربما دَفَعها شخصٌ ما نحو الطريق في لحظة مرورنا، لأننا قبل أن نُفاجأ بذاك الشيء الأحمر أمام غطاء مُحرِّك

السيارة لم نلمح شيئًا مع أن الليلةَ لم تكن مُعتمة. ولاحقًا، لمّا رجعنا إلى مسرح الجريمة لم نحاول تَحرّي وجود أحدٍ بين الشجيرات. أو، هل تراها كانت ميتة حتى قبل أن تصدمَها السيارة؟ لِمَ لا؟ نعم، لِمَ لا؟ ما رأيناه اقتصرَ فقط على 'شيء أحمر أمام غطاء مُحَرّك السيارة'، عبارة أدرجناها في كلامنا عدّة مرات، أما المرأة بحدّ ذاتها فلم نتبيَّن لها أثرًا، وقد يعني هذا أننا لم نَر إلا شالها، يرفرفُ مع الهواء، مع الريح الطريّة. نعم، قتلَها شخصٌ ما هناك، واحتاج فقط إلى تَلفيق حادثةٍ مصيرية ليطْمِس معالِم جريمة أخرى. ربما كانت مُرْتَمية على قارِعة الطريق حينذاك، ولم يتسنّ لنا أن نلمحَها لأن الشال الوردي ليس على كتفيها. هذا مع أن الاصطدام بها كان كافيًا لتحطيم مصباح السيارة الأمامي...

هي أجنبية! أقنَعْنا أنفسنا بهذا بعد فترة. وهذا هو السبَب في أن أحدًا لم يُبلِّغ عن اختفائها. ثم إننا رأينا في الطريق قاطِرة ضخمة أجنبية – وافَقْنا بلا تردّدٍ على أنها كانت ألمانية – تحت قمَّة "هيمْسيدال" بقليل، ومباشرةً قبلَ... حسنًا، مباشرةً قبلَ رغبتكَ في التوجُّه إلى الدرب الحرجيَّة يا ستاين.

ربما أقلّها سائق القاطِرة معه. قُلْنا، أو ربما هناك صِلةٌ ما بين القاطِرة والعربة البيضاء. حدث كلّ ذلك في منتصف الليل. وثمّة لقاءات مُعيَّنة لا تجري إلا في منتصف الليل.

شرَعنا نَهْذي بكلامٍ عن قاطِرة ألمانية عبرَت البلاد، وامرأة في الخمسين من العمر – ربما اضطلَعَت بدور المِرسال – كانت تقطعُ الجبال لتقابِل عربةً بيضاء في الطرف الآخر. ولكن حتى مع إعْمال أقوى قُدُراتنا التَّخمينية لم نحْرِز أي تقدُّم...

ما زِلتَ معي يا ستاين؟

نعم أنا معكِ يا سولرن، وأعتقد أنكِ استغرَقْتِ وقتًا في الكتابة. لم أفعل

شيئًا يُذْكَر اليوم ما عدا انتظار رسائلكِ الإلكترونية. كنتُ أذرعُ المكان هنا جيئة وذهابًا مثل حيوان بَرّي في قفصٍ بانتظار تسلُّمي لشيءٍ منكِ. وهذا المكتبُ ضيّق. ثم ما لبثتُ أن هدأتُ شيئًا فشيئًا، واندمجتُ في نشاطٍ عملي. رتّبتُ كومةً بحالِها من الأوراق والبحوث؛ هذا الصّنف من المهَام الرَّتيبة التي يقوم بها المرء كلّ خمس سنوات. بدأتُ أيضًا أشعر بتَقَلْقلٍ غريب يتنازعني. تابعي روايتكِ على كلّ حال، ولا تفسحي المجال لنفاد صبري ليضغطَ عليكِ بحيث يجعلكِ تسردين الأحداث باختصارٍ شديد أو سرعةٍ كبيرة.

بَدَت تلك 'الأيام الأخيرة' قبل أن تتعقَّبَ الشرطة أثَرنا لا نِهائية، وكان ذلك الأسبوع استثنائيًا في رومانسيته لأننا عِشنا على تلك الحالة من النَّبذبة، حالة جَهلنا إلى متى قد تستمرُّ سعادتنا. غير أنه بطريقةٍ ما كان من المستحيل أيضًا أن نتأقلَم مع حالة عدم اليقين. وهكذا، من مُنطلق امتنانِنا لــ 'أسبوع النعيم'، كما سمّاه أحدنا في يومنا الأخير، انبرينا نستبِق الأمور في التطرُّق إلى ردود فِعل "النَّرويج" الغربية تجاه قضية "بوني" و "كلايد". تخيّلنا الرّوايات في الصُّحف؛ تكلّمنا على العناوين البارزة. أما فكرة أننا قد ننجو من العِقاب، وأن جريمتنا قد لا تطاردنا فلم يخطُر لنا قطّ أنها ممكنة. لا أدري حقًا يا ستاين، إذ ربما لو أدركنا آنذاك أن ما حدثَ قد يبقى لُغزًا خفيًا علينا مدى حياتنا، لما فاجأني أن نُذعَرَ من هذه الفكرة. لأن جَهلنا الحقيقة طَوال الوقت هو ما عجزنا عن تحمّله. ومع أن أسبوعًا قد مرَّ تقريبًا، لم نسمع كلمةً واحدة في الأخبار عن امرأة دُهِسَت في الطريق وتُرِكَت بقسوةٍ وجُبْن في تلك الليلة عند مسرح الجريمة في "هيمْسيدالفييلي".

مَنْ كانت تلك المرأة يا ستاين!!!

واجهَتنا مشكلةٌ صغيرة في تبرير بعض الأمور لمُضيفينا في ذلك الفندق

المُمتع. لماذا لم نصعَد إلى جبل الجليد كما قُلْنا إننا سنفعل؟ قلتَ لهم نيابةً عني إنني لستُ على ما يُرام، واكتفيتُ بهزّ رأسي موافقةً فيما لفَّقتَ قصَّةَ صُداعي المُزمِن. غدَا الكذبُ سهلاً علينا بعد فِرارنا من حادِثةِ السيارة، وربما من امرأةٍ إما ماتت أو أُصيبت بجراحٍ بالغة. نحن ننتظر قليلاً، أوضحنا، وشِبه زعمنا أنني في فترة الحَيْض. وذاك غير صحيح. لعلّكَ تظنُّ الساعةَ أن استرجاعي لهذه الأشياء ليس في محلّه من السِّياق. لولا أنني في الحقيقة اعتبرتُ إلقاءكَ المَلامة على عاتقي في ذلك اليوم بغيضًا، فنحن لم نمرّ بيوم واحدٍ دون المستوى، ولم أُعانِ قطّ في حياتي من أي صُداع مُزمن، وكلّ ما فعلناه، فعلناه معًا على قَدم المساواة.

في أحد الأيام سألَتْنا مُضيفتنا اللطيفة في الفندق مُداعِبةً أو نِصفَ مُداعِبةٍ ما إذا كنّا هاربين أو مختبئين من شيء ما. هل تتذكّر جوابنا؟ لجأنا معًا إلى السخرية، قُلْنا نحن هاربان من أي شيء فيه مَسْحَة مسؤولية، نحن مُختبئان من جميع ضُروب الضَّجيج والصخب. عاينتنا بنظرةٍ مُرتابةٍ سابِرةٍ أغوارنا. هذا بَلْبَلنا قليلاً، واستفزّكَ نوعًا ما. إذ سارعتَ تقول، حسنًا، أليست هذه الوِجهة مخصّصة للاستْجمام؟

جرَى هذا الحِوارُ ونحن في طريقنا إلى تناول الفطور. وفي أثناء وجبَتِنا رأينا أن الوقت قد حانَ لنغادر. وليس بسبب تلك الأسئلة فَحَسب. فالدافعُ الأكبر وراء مغادرتِنا رغبتُنا في العودة إلى المكان الذي وقعَت فيه الحادثة. يقولون إن المجرمَ يعود إلى مسرح جريمته، وكان لدينا سبب وَجيه. أردنا البحث عن أدلّة غفَلنا عنها، والتأكُّد على وجهِ الخصوص من أن الشال الوردي ما زال حيث تركناه.

وكان هناك سبب آخر أيضًا. ففي ذلك الصباح كنتُ قد استيقظتُ قبلكَ، ثم عندما نهضتَ من السرير وجدتَني مُسترخيةً على تلك الأريكة الطويلة العتيقة مستغرقة كلّ الاستغراق في الكتاب الذي عثرتُ عليه ونحن في صالة البليارد، والذي قرأنا منه بعض المقاطِع في المساء الفائِت. وأنا أشيرُ هنا

إلى *كتاب الأرواح* الذي وصفْتَه بأنه 'كتاب تَجلّيات روحانية'. احتَدَمت فورًا، واستبدّ بكَ تقريبًا غضبٌ شديدٌ، من غير أن أدري لماذا، وإن اشتَبَهتُ بأنكَ ما قرّرتَ الرحيلَ في ذلك الصباح إلا لتُباعِد بيني وبين قراءة تلك المادّة الجديدة علَيَ. ومع أنه كان من المُفتَرض أن يُعادَ الكتابُ إلى مكانه قبل رحيلنا، دَسَسْتُه في حقيبتي خِلْسةً، ولم أخرجْه منها ثانيةً إلا بعد رجوعنا إلى "أوسلو".

ثم، وبينما نحن نمرُّ بالرَّدهة في طريقنا إلى الشُّرفة، لنتأمّلَ الخليج والزَّان النحاسي في ذلك الصباح الأخير، سألَتنا ابنة مالكي الفندق، أي المرأة التي تديره اليوم، ما إذا لا نُمانِع الاعتناءَ بصغيراتها الثلاث حتى يُتاح لها الذهاب إلى المَصرْف، ما إذا يمكننا الاستغْناء عن نصفِ ساعة في ذلك الصباح. تَخيّل أنه من بين جميع الاحتمالات صَدَف وجود فرعٍ مَصرْفِي لدى ذلك المجتمع الخليجي الصغير. وافَقْنا في الحال، فقد كانت البنات الصغيرات لطيفات – سبق لنا أن ألِفْنَاهن – ولا تتجاوز أصغرهن السَّنتين، إلى جانب أنني خلال الشهرين السابقَين كثيرًا ما طرحتُ بجديّة فكرة التوقُّف عن تعاطي حبوب مَنْع الحَمْل. شعرنا بالامتنان لأننا اعتُبِرنا موضع ثِقة، إذ من قد يسمح لـــ "بوني" و "كلايد" أن يتوليا حضانة الأطفال؟ وبعد ذلك انتهى بنا الأمر إلى الاعتناء بالصغيرات الثلاث طَوال فترة الصباح، وما عُدتُ أتذكَّر الآن السبب. أتذكَّر فقط قولنا إن هذا أقلّ ما يمكن أن نفعلَه لِقاء إعارتنا جِهاز الترانزيستور والدرّاجتين. هذا مع أننا لم نحتَج في الحقيقة إلى قول أي شيء من ذلك نظرًا إلى أننا أنفقنا ثروةً لا بأس بها في الفندق. كنّا من النُزَلاء الجَيدين ولم نُقَتِّر لا بالنبيذ مع وجباتنا، ولا بأي شيء آخر مع قهوتنا بعد الأكل. ولم تَخُنكَ ذاكرتكَ يا ستاين، فقد كان لديهم "كالفادوس". "الكالفادوس" الذي وقَعنا في غرامه بعد رحلتنا بالسيارة إلى "نورماندي". كان في تلك الأيام من المشروبات النادِرة، أو في أدنى الأحوال نادِرًا في الفنادق الصغيرة خارج المُدن الكبيرة. ولا يَحْضرني الآن ولا حتى ما إذا كان في منتصف السبعينيات يُخَزّن لدى محلات بَيْع الخمور التي تَحمل ترخيصًا من

الدولة، إلا أن ثمنَه في جميع الأحوال كان فوق طاقَتنا في ظِلٍّ ظروفنا المَعيشية العادية. أما هناك، بين الأخاديد العَميقة لعدّة عصور جليدية، فدرَجنا على أن نجلسَ ونحتسيَ "الكالفادوس" في كلّ مساء بعد الأكل.

وهكذا قضينا يومًا آخر في الفندق. وعند الظُّهر تقريبًا، لمّا انتهت مُهمّتنا مع البنات الثلاث، وجدنا أنفسنا أمام فترة عَصر أخيرةٍ خالِصة لنا. كنّا قد استكشفنا تقريبًا جميع زوايا مستوطَنة الخليج الصغيرة؛ بل حتى تسلّقنا زوجًا من القِمم المجاورة – شَهد على ذلك ما ألَمَّ برُكَبنا في الصباح التالي – أما كوخ الراعي في أعلى الوادي خَلف الفندق مباشرة فمِنَ الغريب جدًا أننا لم نعرّج عليه. كنّا، في حال ما زالت سيارتنا مركونة في "هيلا" ولم تسحبْها الشرطة لتتحرَّى أمرها، عازمين على الرحيل والعودة إلى البيت في الصباح التالي، أو على الأقلّ التوغُّل شرقًا بقَدْر ما تسمح لنا الظروف. لم نعتبر أي شيء من المسلّمات. إلا أننا أدركنا أنه تبقّت لنا في جميع الأحوال نزهة واحدة أخيرة، وقرَّرنا أن نُخَصِّصها في يومنا الأخير ذاك لكوخ الراعي. كان الجوّ بديعًا، وخلال إقامتنا هناك لم تمطِر الدُّنيا إلا لِمامًا.

سرعان ما شقَقنا طريقنا صاعدين إلى "مُنْدالسدال" حاملين رِزْمة غدائنا وتِرْمس شاي، الطريق الذي سلكتُه أنا وأنتَ مرّةً أخرى قبل أسابيع قليلة. وأنا واثقة من أنكَ تتذكَّر تفاصيل هاتين المناسبتين. مع ذلك سأدوّن الآن ما أتذكُّره بنفسي، وهذا سيضطرّكَ إلى مُعاودة التفكير مَليًا في وقائِع ما حدثَ.

تَخَطينا الحَظيرة الحمراء لآخر مزرعةٍ من جهة اليسار، وميدان الرِّماية الذي يقابلها من جهة اليمين، وبقَيت الدربُ بعدهما ممتدّةً لمسافة لا بأس بها على الضفَّة اليُمنى لنهر "مونْدالس إلفين" البهيج، وانتهت أخيرًا إلى مزرعة "هايمْستولن" الصيَّفية. اضطررنا في بعض المواضِع إلى القفز من بين رَوْث الخِراف والبقر على المسار الحَصَوي. ففي ذلك الوقت كانت الماشية قد أُطلِقَت للرعي الصيفي.

كنّا نمتِّع أنفسنا، فقد مضى أسبوع وما زلنا نجهلُ ما ينتظرنا. لم يغِب عنّا أنه حتى لو انتهى الأمر إلى انفِلاتِنا ممّا حدثَ هناك في "هيمسيدالفيبلي"،

فإن النُّدوب ستبقى فينا مَدى الحياة. أما ما لم نعرفه فهو كيف نتابع حياتنا معًا بعد ذلك ونِكرى ما مررنا به تلازِمنا. إلا أننا لم نتوقّف عن اللهو والضحك، بقينا كما كنّا، مُدركيْن وشيء من الكآبة يعتَصِرنا أنه يومنا الأخير في الجنة، في 'المَعْزَل الشَّهواني' كما دعوناه. على الرغم من أن ذلك المَعزَل الراكِد لم يكن هو الشَّهواني بقَدْرنا نحن اللذيْن قَصَفْنا ومَرحنا فيه طَوال الأسبوع الماضي.

وبينما مشينا في طريقنا، سعيتَ إلى مُداعبتي طَوال الوقت. وفي لحظةٍ ما طالبتَ بالمزيد، وعنيتَ ذلك فعلاً، لا مجرَّد كلام. الوادي بأكملِه لنا، قلتَ مُتحايلاً، الجوّ دافئ وليس هناك ما هو أسهل من التَّواري بين الشُّجيرات. عبستُ في وجهِكَ وقلتُ علينا الوصول إلى كوخ الراعي أولاً. وحالما نصِل إلى هناك، أردفتُ باستخفاف، سنرى أي رجلٍ أنتَ. أتذكَّر هذه العبارة جيدًا لأنها أزعجتكَ كثيرًا. ثم ما لبث أن حدثَ شيء هناك جرَّدكَ من رجولتكَ تجريدًا كاملاً في الأيام التالية، لا بل في الأسابيع التالية. في الحقيقة نحن لم نتقارَب من بعضنا مُجدَّدًا بعد ذلك. لم نُمارس الجنس قطّ مُذ ذاك اليوم.

على بُعد بضع مئات من الأمتار من "هايمْستولن"، عند طَرف الدرب الأيسر، طالَعتنا مجموعات كثيفة من أزهار كفِّ الثعلب نامية في المَجرى الصخري؛ نعم، مجموعات فارِعة ووردية اللون من الأزهار التي تعود إلى النَّوع المعروف باسم "الديجيتال الأرجواني". لم يخفَ عليَ أن أكلَها قد يسبِّب الموت، ولا أن أوراقها يمكن أن تنقذَ الناس من الموت. كان في تلك الأزهار الشَّبيهة بالأجراس شيء خلاّب. انفلَتُ منكَ وركضتُ نحوها لألمسَها. تعال! ناديتكَ.

لبثنا نمعنُ النَّظر في أزهار كفّ الثعلب لمدّة قصيرة، ثم حَوّل شيء ما انتباهنا إلى اليمين تجاه صفٍ مُتراصٍ من أشجار البتولا المُنحدرة برفقٍ نحو الدرب. كانت هناك فُسحة صغيرة بين الجذوع البيضاء والسوداء؛ رقعة أشنة نَضرة الخُضرة، وعند تلك الرقعة ظَهَرَت بغتةً امرأةٌ تلبس ثيابًا رمادية

وحول كتفيها شال وردي؛ ولون الشال يُماثِل بالضبط لون أزهار كفّ الثعلب تلك. وهذا شيء ما بَرِحتُ أفكِّر فيه كثيرًا خلال السنوات التي تعاقبَت.

وقفَت تنظرُ إلينا بثباتٍ وهي تبتسم. كانت المرأة نفسها التي صدمناها في "هيمْسيدالفييلي" يا ستاين. بدا الأمرِ كما لو أن كائنًا أسمَى وضعها هناك فجأة كُرْمَى لنا. واليوم، أعتقدُ أنني بتُّ أعرف المزيد عن حقيقة تلك المرأة ومن أين جاءت، إلا أنني لن أستبقَ الأمور!

في ما بَعد، كنّا على اتفاقٍ كاملٍ حول ما شهدناه. أقرَرنا بأنها المرأة التي لمحناها تمشي على بعد بضعة أمتار من الطريق السريع عند قمَّة "هيمْسيدال" قبل ما لا يزيد عن أسبوع. وأنها كانت تضعُ الشال نفسه؛ الشال الذي ما زال هناك قرب البحيرة الجبلية، وأنها الشخص نفسه. أي توحَّدت أقوالُنا بشأن ما رأيناه. أما ما يدعو إلى العَجب فهو اختلافنا حول ما *قالته*. كان هذا غريبًا حقًا، وبدا آنذاك شيئًا غير معقول. على الرغم من أن لدي في الوقت الحاضِر تفسيرًا منطقيًا حتى لهذا.

حسنًا، ماذا قالت؟ أتذكَّر بمنتهى الوضوح أنها التفتَت إليَّ وقالت، ‘أنتِ مَنْ كُنْتُها، وأنا مَنْ ستَكُونينها.’ أما أنتَ فأصررتَ على أنها قالت شيئًا مختلفًا كلّ الاختلاف. ألا تعتقِد أن هذا غريب جدًا بعد أن أجمعنا وأجمعنا على تطابُق ما *رأيناه*؟ عانَدتَ متشبِّثًا بقولكَ إنها نظرَت إليكَ وقالت، ‘كان ينبغي أن تُغرَّمَ مُخالفةً لتجاوُزِ السُّرعة يا فَتاي.’

لا تطابُق في هاتين الإفادتين في أي حالٍ من الأحوال، ولا ثمّة تشابه في المَعنيين. ‘أنتِ مَنْ كُنْتُها، وأنا مَنْ ستَكُونينها،’ ثم، ‘كان ينبغي أن تُغرَّمَ مُخالفةً لتجاوُزِ السُّرعة يا فتاي.’ التقطَت أذناكَ كلمات مُعيَّنة، والتقطَت أذناي كلمات أخرى مختلفة تمامًا. إنما، ما الداعي الذي دفَعها إلى تبليغنا رسالة مزدوجة؟ وكيف تدبَّرَت أمر هذه الخُدْعَة؟ هذا كان اللُّغز الأعظم آنذاك. ولكن.. مَهلاً..

اليوم، أنا على يقينٍ من أن ‘المرأة الكَهْلة ذات الشال الورديّ’ هي المرأة نفسها التي صدمناها وأوْدينا بحياتها، والتي عادت إلينا لاحقًا من الطرف الآخر. عادت لتخفِّفَ عنّا! ابتسمَت، ومع أنني لن أتمادَى إلى حدّ القول إنها كانت ابتسامة دافئة، لأن كلمات مثل ‘دافئ’ و‘بارد’ تتضمّن على نحوٍ ما دلالات بشرية، إلا أنها لم تكن بالتأكيد ابتسامة مُنَفِّرة، بل مُتحايلة ولعوبًا وماكِرة. لا بل مُغوية يا ستاين. تعالا، تعالا، تعالا! قالت تلك الابتسامةُ. لا موت هناك. هيّا تعالا، تعالا، تعالا! ثم، تلاشت واختفَت عن الأنظار.

جَثَوتَ أرضًا يا ستاين، حجبتَ وجهكَ بيديكَ واستسلمتَ للبكاء. امتنعتَ عن النَّظر إليَّ وفي عَيني. ومع ذلك انحنيتُ عليكَ ورحتُ أهدهدكَ مرَّة أخرى.

‘لقد رحلَت الآن يا ستاين،’ قلتُ لكَ.

بيد أنكَ واصلتَ النَّحيب. كنتُ مذعورةً مثلكَ لأنني أنا أيضًا في تلك الأيام لم أؤمِن بأي شيء، ما ساعَدني على التماسُكِ قليلاً اضطراري إلى الاعتناء برَجُلي.

فجأة وثبتَ واقفًا واندفعتَ تَعدو نحو الغَوْر. عدوتَ كما لو أنها مسألة حياة أو موت. حاولتُ مُجاراتكَ. لم أستطع ترككَ تنأى عني. وما لبثنا أن عُدنا نمشي جنبًا إلى جنب، وبعد مرور بعض الوقت بدأنا نتحدَّث عمّا جرى معنا. كنّا معًا مضطربين بالقَدْر نفسه.

لم نكن قد شَرعنا بَعْد في اتِّخاذ مواقِف مُتعارِضة. وانبرى كلّ منّا يستجوِب الآخر، تناقشنا، قَلَّبنا الرأي في الإيجابيات والسَّلبيات. وفي جميع تلك الحالات أجمَعنا على أن مَرأة أشجار البتولا هي نفسها التي لمحناها في مُرتفعات "هيمْسيدالفييلي"، والتي صدمناها بالسيارة لاحقًا، ووَفق ما بدا لي، قتلناها – كان هذا قاطِعًا بالنسبة لي آنذاك، ولم يُداخله منفذ شكٍّ واحِد – حتى على الرغم من أنكَ لاحقًا جادَلْتَني بمزيدٍ من الاحتداد قائلاً إنها لم تَنْجُ من الاصطدام فَحَسْب، بل أيضًا تبيَّن بوضوح أنها أجادت التكَيُّفَ مع الوضع.

كيف استطاعَت اللحاق بنا؟ تساءلتَ مُرتاعًا. وخشيتَ أن تكون ما زالت تسعَى وراءنا. خطرَ لكَ أنها ربما حَجَزت غرفةً في الفندق، وأقلقكَ احتمال الاجتماع بها ثانيةً على العشاء. نَحَت مخاوفكَ أكثر فأكثر نحو أرضٍ مادّية صلبة. أما أنا فبدأتُ أُمَحِّص بِرَوِيَّةٍ وجهة نظر جِدّ مختلفة. شككتُ في أنها حَجَزت غرفة في الفندق أو في أننا قد نراها على العشاء. ماتت يا ستاين، قلتُ لكَ. وإذ وقفتَ تعاينني بنظرة متسائلة أردفتُ، ربما لم تأت *تلاحقنا*. ربما أتَت *من أجلنا*. أتَت من الجانب الآخر يا ستاين. حدّقتَ بي، غير أن نظرتكَ خَلَت من أي سلطان. لم يكن فيها إلا العَجْز.

صحيح يا سولرن، كان عَجْزًا. أدركتُ أن كلّ منّا سينجرف بعيدًا عن الآخر. لم أستطِع أن أصدِّقَ حينها - ولا حتى الآن - أن الموتَى قادرون على زيارتنا، أو أنه يمكن تحت أي ظرفٍ التقاؤهم في أي مكان. أما أنتِ فاستطعتِ. واليوم، أجدُ لديَ القُدْرةَ على احترام وجهات نظركِ. لذا، على الرغم من كلّ شيء، ثمّة تغيير قد طرأ عَليَ على مرّ السنين. وأنتِ على حقّ: ففي ذلك الزمان عجزتُ عن فِعل هذا.

تابعي رجاءً. أعتقدُ أنكِ تروين حكايتنا بإخلاص.

لقد أصبحتُ أكثر فأكثر عَصَبيةً وتَقَلْقُلاً بعد أن ذَرَعتُ مكتبي الضيِّق جيئةً وذَهابًا معظم فترة الصباح. أشعر أن عليَ القيام بخطوةٍ ما، ما زال النهار في منتصفه، وقد اتَّخذتُ قرارًا.

اكتبي الفصولَ الختامية الآن، أكادُ أجزِم بأنني أعرفُ كيف ستتكشَّف، لأننا تكلّمنا على الأمر بإسهاب قبل أن تقطعي فجأةً جميعَ الروابط وترحلي إلى بيت والديكِ في "بيرغن". وأعدكِ بأن أجيبكِ قبل انتهاءِ يومنا هذا.

عندما كُنّا عند كوخ الراعي اتفقنا على ألا نفكِّر في أي تأويلٍ لأطول فترةٍ مُمكنة. ففي اليوم التالي لدينا رحلة عَودة طويلة إلى الدِّيار، وبطبيعة الحال سنعبُر الجبال عند حدود تلك المُقاطعة مرّة أخرى. أفلا ينبغي في الوقت الراهِن أن نتوصَّلَ إلى إجماعٍ على وقائِع ما اختبرنا بالفِعل هناك بينما كان ما زال ماثِلاً في ذِهننا؟

أجمَعْنا آنذاك على أنني جلستُ القُرْفُصاء ولمستُ الأزهار الوردية اللون. ثم جِئتَ من ورائي، ورُحْتَ في البداية تُداعِب شعري فقط، إلا أنكَ ما لبثتَ أن جثوتَ إلى جانبي ولمستَ مثلي أزهار كَفّ الثَّعلب. لم أستطع أن أتذكَّر على وجه الدِّقّة ما إذا كان ما دَعَانا إلى الالتفات في تلك المرحلة شيء *سمعناه* من الجانب الآخر للطريق، إنما لا ريب في أن شيئًا ما جعلنا نلتفِت فجأة. وفي اللحظة عينها تجسَّدَت لنا هَيئة امرأةٍ بين جذوع أشجار البتولا تقِف عند فُسْحة الأشنة وشالها الوردي حول كتفيها. 'مِثْل مَرأة العَنَبِية في الحكاية الخرافية'. هكذا عبّرتُ عنها، وهذه كانت كلماتي. أنا من مهَّدتُ لهذا اللقَب الذي ساعَدَنا كثيرًا في الإفصاح عمّا اختلَج فينا – أصبح دَعامةً لَفْظيةً استطاعت رُوحان مُعْدِمتان التشبُّثَ بها. ولعديدٍ من الأيام لم نجِد حَرجًا في التكلُّم على مَرأة العنبية، ويبدو أننا ما زِلنا قادرين على ذلك بعد أكثر من ثلاثين سنة. لم نُفلِح آنذاك في التحدُّث بطَلاقةٍ عن مواجهتنا لشبحٍ أو طَيْفٍ، أو عن روحٍ ظهَرت لنا. ولا ينبغي أن يغيب عنّا أن هذا جَرى في منتصف السبعينيات؛ بعد أيامٍ قلائِل من العثور على "أولريكه ماينهوف" ميتةً في سجن "ستامْهايم"، وفي سنة نشرِ روايات مُعيّنة في النرويج، تحمل عناوين مثل "جيني تُفْصَل من الخِدمة" و "استمِروا"، و "في زمانك" و "الصَّليب الحديدي" و "الحَمْلة" و"الزّخرفات". بالطبع كانت هناك بعض الأصوات المُنْفَرِدة التي أعلَنَت أننا داخلون إلى حِقْبة جديدة كلّ الجِدّة، وأننا نمرّ بمرحلة تَحوّلٍ، وأننا نقفُ على عَتَبة "عَصر الدَّلو".

أدَّت بكَ نُقطةُ استشرافكَ المادية – في مقابل شمس توجُّهي الروحي البازِغة – إلى الخروج بنظرية مُسلّية في أثناء سَعيكَ المَحْموم للاستيعاب.

أجمَعنا على أن أوصاف مَرأة العِنَبية تُطابِق أوصاف المرأة التي رأيناها عند "هيمْسيدالفييلي". وإذا بكَ تقول فجأة، حاولي رؤية ما حدثَ كأنه فيلم، أو قراءته كما لو أنه جريمة مُثيرة! قولُكَ هذا جعل اهتمامي ينصبُّ على ما سيتبَعه. فما كان منكَ إلا أن قلتَ، لعلّ المرأة التي رأيناها بين أشجار البتولا تَوأم المرأة الأخرى...

نعم، ولعلّ المسيحَ استطاع أن يمشيَ على الماء لأن بُحيرة طَبَريا كانت مُغلّقةً بالجليد!

عِندما مررنا بتلك البُقعة ثانيةً ونحن في طريقنا إلى الفندق، مَشينا يدًا بِيَد، ومَشينا بسرعة، وفي الوقت نفسه اتفقنا على ألا نهلَع. كلانا شعرَ بالقَدْر نفسه من الخوف. كانت شجاعة منكَ ألا تشرعَ في الجري، لولا أنني دفعتُ الثَّمن، لأنك اهتَصَرتَ سُلاميات أصابعي بشدّةٍ بالغة بحيث بقيَت يدي تؤلمني لأيام. أتذكّرُ النبيذَ الذي احتسيناه مع العشاء. كُنّا في أمسِّ الحاجة إليه وأتَينا على قنينة كاملة، لا بل ألحقناها بنِصف قنينة. وأتذكّرُ أيضًا معاناتي في رَفْع كأسي بعدما هَرَستَ يدي وأوهنْتَ قُوَّتها.

وأتذكّرُ تلك الليلة الأخيرة يا ستاين. الليلة التي سعيتُ فيها أنا إلى إغوائكَ. كنتُ عديمة الكِياسَة. دارَ في خَلَدي أن ليس أمامي إلا هذه الفرصة الوحيدة. وإذا فشلتُ فيها، فلن يتمكّن أحدنا من العثور على الآخر بعد ذلك أبدًا. حاولتُ استدراجَكَ بكلّ حيلة أعرفها. وباءَت جميع مُحاولاتي بالفشل. ولو أني أقدمتُ على ذلك قبل بضع ساعات فقط، لربما جعلتُكَ تذهَل، وجعلتُ الرغبة تَغلي في عروقكَ. ولأنَّ هذا كدَّركَ بِقَدْر ما كَدَّرني، إذ لا ريب في أنكَ مثلي استبقتَ التفكيرَ في ما ينتظرنا، ثملتَ حتى طرحكَ السُّكْر. ثملتَ من زجاجة النَّبيذ الأبيض التي أخذناها إلى غرفتنا بعد العَشاء و "الكالفادوس". أما أنا فامتنعتُ عن الشُّرب. هل تتذكَّر كيف انتهَت ليلتُنا؟ انتهَت بنومكَ ورأسكَ عند نهاية السرير بالقُرب من قدمي. ولما حاولتُ في لحظةٍ ما مُداعبة ذقنكَ بأصابع قدمي، اكتفيتَ بدفعِها جانبًا، لا بقسوةٍ أو جفاءٍ

ولكن بحزمٍ. لم ننَم في البداية، اضطجعنا فقط، وكلّ مِنّا يعرفُ أن الآخر ما زال صاحيًا مثله، كل مِنّا يتظاهر بالنوم، إلى أن غفونا فعلاً في النهاية. أو أنتَ على الأقلّ غفوتَ، لأنك لم تستطع المقاومة أكثر مع تلك الكمية من الكحول التي شربتَها.

ندمتُ بمرارة حارقة لأني لم أستسلم لكَ هناك في الأعلى عند الحرج قبل أن تظهرَ لنا مَرأة العِنَبِية. عرفتُ أننا قد نمعنُ في التنائي، وبدأتُ من تلك اللحظة أفتقدكَ.

حنينُ المرء إلى الشَّخص الذي يُشاطره السرير يمكن أحيانًا أن يكونَ أشدّ وأقوى من الحنين بين شخصين تفصِلهما قارّات.

وصلَت المغامرةُ إلى نهايتها أخيرًا. في المركب ونحن نقطعُ الخليج تجاذبنا أطراف الحديث بمودّة، شربنا القهوة وأكلنا فطائر غرب النرويج. نزلنا من العبّارة "نيسوي" في "هيلا" حاملين حقائبنا وزَلاّجتينا، ووجدنا السيارةَ حيث تركناها. بدَت تلك الخنفساء الحمراء كما لو أنها تُعاني من الهِجران وتتلهّفُ على لُقْيانا. يا للمصابيح الأمامية البائسة والرَّفراف المسكين، قلتُ لنفسي، ولعلّي قلتُ ذلك بصوتٍ مسموع، لأن تعليقكَ فاحَ برائحةِ الدُّعابة السوداء: إنها تبدو مثلنا، غمغمْتَ. وما لبثنا أن مَضينا.

ماذا سنجدُ هناك في الجبل؟ أي شيء غفَلنا عن تبيُّنه عندما طَرَقنا تلك البقعة في آخر مرّة؟ هل تحَرَّينا بدقّة أي آثار للدّماء أو الجلد أو الشعر؟

لم يقتصِر حِوارنا على هذا فقط. فرحلة عَودتنا بالسيارة إلى البيت كانت، بالنَّظر إلى الظروف، لطيفة. ربما لأننا تيقّنّا من أنها رحلتنا الأخيرة معًا. شرَعنا نتعاملُ بذلك النوع من الاحترام الذي تفرضُه المُعاشرة. وَعَينا جيدًا أن أي انجرافٍ عَفْوي مُلْهِب للعروق نحو عُشّ حُبٍّ آخر باتَ بالنسبة إلينا مستحيلاً. مع ذلك بقينا نتعاملُ بمحبة. تصرَّفنا بتهذيب وتفهُّم.

تعيَّنَ علينا أولاً أن نعبرَ الخليج، ثم كان أمامنا تجاوُز "ليرْدال" والنَّهر وكنيسة القضبان. اعتَرَتني لحظة ضعفٍ ونحن نمرُّ بمُنعطف المنحدَر، حيث

تهيأ لي قبل أسبوع أنكَ تنوي قتلي أو قتل نفسكَ. رفعتَ يدكَ اليُمنى عن المِقْوَد ووضعتَ ذراعكَ حولي، وما فعلتَه واسَاني. ولم يمض وقتٌ إلا وأصبحنا لمرَّةٍ أخرى عِند قِمم الجبال.

وأنا الآن أسافرُ في الاتجاه المعاكس يا سولرن. إنني في "غول" حاليًا، وقد تسلّلتُ إلى منطقةٍ تُؤمِّنُ الاتصال اللاسلكي بالإنترنت في فندق "بير". أنهيتُ للتوِّ قراءةِ رسالتكِ الإلكترونية الأخيرة، وها أنا أرسلُ لكِ ردّي من هناك.

يتهيأ لي أن الناسَ من حولي يراقبونني بحَذرٍ لأنني لستُ من نُزَلاء الفندق، بل مجرّد عابر سبيل. وفي بعض اللحظاتً يُخَيَّل إليَ أنهم يَهِمُّون باستجوابي. في الأيام الغابرة كان المرء يتسلّلُ إلى الفنادق لاستخدام المِرحاض. وفي أيامنا هذه أصبحَت تُستَخْدم أيضًا للدخول إلى الإنترنت.

كان عليَ أن أعبرَ الجبل ثانية مهما كلّفَ الأمر. إلا أنني الآن مُضطرٌ إلى إنهاء رسالتي. أمامكِ أربع أو خمس ساعات قبل أن يُتاح لي دخول الإنترنت مرَّةً أخرى. سيكون تواصلي معكِ من الفندق هناك؛ فهو المكان الذي أنوي التوجُّه إليه. أعلمتُهم بحضوري، وبما أننا في نهاية الموسم تقريبًا، قالوا لي إنني قد أكون الليلة ضيفَهم الوحيد.

أنتَ ذاهِبٌ إلى "فيارلاند" يا ستاين؟ في هذه الحالة سيتسنّى لنا أن نتبادلَ التلويح بأيدينا من "هيمْسيدال". سيَرى أحدنا الآخر بينما نحن نمرُّ في مكانٍ ما هناك، وعندئذٍ، لن يفصلَ بيننا شيء سوى متر واحِد وجيل...

طالعتنا بحيرة "إلْدَرفاتْنت" بسطحها البارد والمتلألئ، ولاحظتُ عندئذٍ أن يديكَ عادتا إلى الارتعاش وهما تُمسكان المِقْوَد، وأن قدمكَ ما عادت ثابتةً

على الدَّواسة. وأخيرًا وصلنا. أوقفتَ الخنفساء الحمراء عند جانب الدرب وخرجنا منها؛ ومع أن كلّ منّا بقي حريصًا على رعاية الآخر، بترَ ما خلّفه ذلك الحدث فينا من حزنٍ وندمٍ ومرارةِ التعاطُفَ الحِسِّي بيننا. ولذلك اكتفيتُ بالاستسلامِ للبكاء عندما تصرَّفتَ بخشونةٍ بالِغة، مُتلفظًا بكلمات نابِية لم أعهدكَ تستخدمها.

اكتشفَنا أن الشال الوردي قد اختفى. وَسَّعنا مساحة البحث عنه، وحتى على الرغم من أن تبيُّنه لم يكن ليتطلبَ مجهودًا، لم نستطع لَمحه في أي موضع. هل عثرَ عليه أحدٌ وأخذَه؟ أم هل طيَّرَته الريح؟

لا تُسعفني ذاكرتي لأقولَ ما إذا شعرنا بالارتياح أو بخَيبة الأمل عندما وجدنا مزيدًا من شَظايا زُجاج المصباح الأمامي. هذا عنَى أننا لم نتخيَّل الحادِثة، عنَى أننا صدمنا أحدًا هناك بالفعل، صدمناه بسرعةٍ عالية. لم نجد آثارًا أخرى تدلُّ على الحادثة. لم نَر آثار دِماء، ولا رأينا صخرة كبيرة أو كُتلة ترابية يُحتَمل أن تكون السيارة قد دحرجتها.

عُدنا إلى الفولكسفاغن وانطلقنا مبتعدين. أبديتَ ملاحظةً عن رَبْوةٍ غريبة تشبه قالَب السُّكّر عند نهاية البحيرة، كما لو أن لهذا أي علاقة بقضيتنا الغامِضة.

لم نتكلَّم على أي شيء بينما مَضينا نقطع طريق "هيمْسيدال" إلا على ما حدثَ عندما كنّا مندفعين في هذا الطريق من قبل. وفي رأيي أنتَ الذي ابتدأتَ ذلك، لحظةَ سعيتَ إلى التَّحايُل عليَ، مِثل مُغرَّرٍ مُنْحلّ، تمامًا في أثناء مرورنا بالدرب الحرجية التي وطدتَ العزم على المُضي فيها. كان من المُحال قطعًا أن يحاول أي مِنّا التلميحَ إلى ذلك العمل الطائش ثانيةً.

ثم عَقَدنا اتفاقًا. اتفقنا على أن في وسْعنا مُناقشة الحادِثة المصيرية على امتداد طريقنا إلى البيت، أما بعد الوصول إلى "كرينغشو" فلن نشيرَ أبدًا إلى ما واجهناه في ذلك الطريق الجبلي، لا سِرًا بيننا وبين أنفسنا ولا عَلانية مع أي شخص آخر. وهذا ما التزمناه منذ أن أصبحنا في "أوسلو". منذ ذلك

الحين قلّما أتينا على ذِكر ما وقعَ عند بحيرة "إِلْدَرفاتْنت" باستثناء قولنا *ذاك*. وعلى الرغم من أن رسائلي الإلكترونية هذه تخرِقُ اتفاقنا القديم، لا أعتقدُ أنها ستجلبُ علينا المزيد من الوَبال، بل العكس تمامًا كما آمل، وهذا في الواقع ما يَدفعني إلى تدوين تلك الأحداث.

اختفَى الشالُ الوردي من الجبل – لم يكن من المُرجّح طبعًا أن يبقى هناك بعد مرور تلك الفترة الزمنية، كلّ ما في الأمر أننا تثبّتنا من ذلك بأمِّ أعيننا. شعرتُ في أعماقي بشيء من خَيبة الأمل، لأننا لو وجدناه ثانية، حتى وإن كان ممزّقًا، لأمكن على الأقلّ أن نرى فيه مؤشّرًا على أن المرأة التي ظهَرَت لنا بين أشجار البتولا ليست مخلوقًا من لحم ودم. بل هي روح كشفَت نفسها لنا. وعندئذٍ، سنجد أننا نتعامل مع *شالَيْن*؛ شال يعود إلى ضحية حادِثة الاصطدام وآخر ما زال على كتفي مَرأة العِنَبية.

وبما أن الأخبار لم تُورِد شيئًا قَطّ عن حادِثة سيارة، وصلنا إلى ما يشبه الإجماع على أن سائقَ العربة البيضاء تولّى حتمًا أمر الاهتمام بالمرأة ذات الشال، ما لم نتفِق عليه هو الحالة التي كانت عليها آنذاك. بالنسبة إليكَ، لقاؤنا بها عند أشجار البتولا دلّلَ على أن إصابتها من جرّاء الاصطدام طفيفة. أما أنا فرأيتُ في ذلك اللقاء الدليلَ القاطِع المُناقِض، الدليل على أنها ماتت من فَداحَة إصابتها – وأنه يوجد شيء ما في الطرف الآخر يا ستاين! تصوّراتكَ انتهَت إلى أنها على الأرجح نهضَت بعد الحادِثة مباشرة، وأنها بكلّ سهولة طلبَت من سائق العربة البيضاء أن ينقلَها بسيارته. أقنعتَ نفسكَ بأنها كانت عائدة إلى "هيمْسيدال"، وأنها بطريقة ما على صلِة بالقاطِرة الأجنبية. وارتأيتَ أن مِثل هذا الحلّ للُغز الذي حيَّرنا فيه تفسيرٌ كافٍ لِعَدم سماعنا في الأخبار شيئًا عن حادِثة سيارة في الليل. وهذا خالَفَ ما ارتأيتُهُ أنا، فالمرأة ذات الشال كانت، في نظري، مُصابَة حتمًا إصابةً بَليغة أو ميتةً عندما حُمِلَت إلى العربة البيضاء. المُفارقة الغريبة هنا، هي اتحادُ أقوالنا بخصوص شيء واحد: بَدَت المرأة ذات الشال بخيرٍ بعد ما لا يزيد عن

أسبوع من دَهسنا إياها. لولا أنكَ عنيتَ في هذا العالَم، بينما عنيتُ أنا في أي مكان انتهَت إليه.

تناولنا بالبحثِ تفاصيل الوقت والساعة من ذلك اليوم. ثم قلتَ مستنتجًا، في حال أننا خبطناها فقط، أليس من التسرُّع عَقْد صِلةٍ بينها وبين العربة البيضاء التي مرَّت بعد دقائق؟ ربما نهضَت وتابعَت المشي، فلماذا يخبر سائقُ العربةِ الشرطةَ أنه شاهد امرأةً في منتصف العمر تتجول عبر الجبال على الطريق السريع ٥٢؟

'لا تنسَ أننا لم نلمح لها أثرًا،' أجبتُكَ. 'كما لو أنها تبخَّرَت. ثم حتى لو أننا وَكزناها فقط، لا ريب في أن ما فعلناه أغضبَها كثيرًا، وسيجعلها هذا، حالما تنتهي إلى منطقةٍ مأهولة، تلجأ فورًا إلى الاتصال بالشرطة لتُعلِمهم أن فولكسفاغن حمراء على سطحها زلّاجات كادت تطرحها أرضًا وتهلكها.'

استمعتَ لي، قبضتَ على المِقْوَد بحزم أكثر ممّا فعلتَ في رحلة الذهاب، ثم هززتَ رأسكَ معارِضًا وأدليتَ بحجَّة منطقية، 'منعَها سببٌ ما من اللجوء إلى الشرطة. أتراكِ تساءلتِ في النهاية عمّا كانت تفعله هناك في منتصف الليل؟ إن المرءَ لا ينطلقُ في نزهة عادية إلى الجبال لمجرَّد التنزه في ذلك الوقت من اليوم. وأستبعدُ أن تكون قد خرجَت ومشَت كلّ تلك المسافة من أقرب بيتٍ أو قريةٍ لتستنشقَ الهواء النَّقي. طبعًا في وسْعكِ عبور الجبال في الليل، فالظلام ليس دامِسًا في هذا الوقت من السنة، والجوّ ليس شديد البرودة أيضًا. غير أنكِ في هذه الحالة أنتِ فقط تقومين بذلك لأنكِ مضطرة إليه، لأن لديكِ مُهمَّة استثنائية، أو لأنكِ هاربة أو فارَّة من شيء ما.'

أصغيتُ إلى ما تقوله. كُنّا باسم النقاش نتجادلُ في تلك اللحظة من خِلال فرَضياتكَ.

'ومن أي شيء يمكن أن تهربَ، مثلاً؟' سألتكَ.

قُدتَ السيارة لأربع أو خمس دقائق من غير أن تقولَ شيئًا. كان المَطاف قد انتهى بنا إلى تبادُل الحِوار بأسلوب جديد وغريب جدًا. ما عُدنا عاشقين.

توقَّفنا عن الدَّردشة، توقَّفنا عن الضَّحك. في الوقت نفسه بَقينا ودودين ومتسامحين. أراد كلّ مِنّا مساعدة الآخر فعلاً، لولا أننا عَدِمنا المَقْدرة على القيام بما هو أفضل لنا معًا.

'مِمَّن أو مِمّا كانت تهرب؟' سألتكَ مرَّةً أخرى.

'من سائِق القاطِرة التي رأيناها في موقف الطريق الجانبي،' أجبتَ. 'حدث شيءٌ ما، فغادرَت وانطلَقت نحو الجبال. ولعلّها تعرف المنطقة من قبل، عِلاوة على أنه ليس من الصعب تلمُّس الطريق فيها: الواديان، الشرقي والغربي، متجاوران، وتقريبًا شِبه مُتداعمان من الخَلف، ولا شيء يفصل بين أعالي الواديين إلا بحيرة "إِلْدَرفاتْنت".'

نظرتَ إليَ كما لو أنكَ تلتَمس مني مؤازرتكَ لِتُوغِل أكثر في نظريتكَ.

'وما يدرينا أن تلك المرأة بعينها ليست فارَّة من جريمة، ربما من جريمةٍ وحشيةٍ، من نَحْرِها رجلاً أساءَ معاملَتَها لسنوات على سبيل المثال، وهذا الرجل قابِع ميتًا الآن في مَقصورة قاطِرة أجنبية. إن صحَّ هذا، فلن تهرعَ بطبيعة الحال إلى الشرطة.'

أثَّرَ فِيّ خيالكَ الواسع كثيرًا إلى درجة أنني وضعتُ يدي على فمي حتى لا تَراني أضحك.

إلا أنكَ تنبّهتَ إلى ذلك فاستدركتَ قائلاً، 'انسي هذا! **هي** بنفسها سائِقة القاطِرة. لم نلمح أحدًا في مقصورة تلك القاطِرة عندما مررنا بها، وبعد دقائق قليلة رأينا السائقة المُتَرجِّلة تعبر الجبال. أرغمَها الجوُّ البارد على لفٍّ الشال حول كتفيها، ولما اقتربنا منها أشاحت بوجهها بعيدًا عنّا كأنها لا تريد أن يميِّزها أحد. وهذا لأنها على موعدٍ لقاءٍ مع سائق عربةٍ بيضاء بمَنأى عن الطريق الرئيسي. من المُفْتَرض أن يتقابلا عند مَسقط الماء، وهناك سيجري تسليم شيء ثمين؛ بضعة كيلوات من المسحوق الأبيض ربما، أو ربما حَفنة من المال، أو لماذا لا يكون مالاً لِقاء المسحوق الأبيض؟ أو حتى لماذا لا يكون شيئًا - كميّات هائلة من شيء ما - سيسقِطه أحدهم من طائرة؟ في مثل هذه الحالات لن تَهرعي إلى قَرع أبواب الفلاحين المَحلّيين

أو الاستنجاد بالشرطة. ثم بعد أن صدمَتْها فولكسفاغن حمراء استبدَّ بها هاجِس الانتقام. وإذا كانت تروحُ وتَجيء على الطُرُقات، فليس من المُفاجئ أن تعثرَ بعد أسبوع على خُنفسائنا في "هيلا". وهذا جعلها تُخمِّن أننا ذهبنا إلى جبل الجليد وأننا اختبأنا في مكان ليس فيه مواصلات بريّة، من أجل الشاحنات والقاطِرات مثلاً، فقرَّرت مُلاحقتنا؛ لتقتصَّ مِنّا، ولتمارسَ في المَقام الأوّل خُدعة علينا. هناك خُدَعٌ وهناك خُدَعٌ أخرى،' تابعتَ مُشدِّدًا على كلماتكَ، 'ثمّة وسائل متعدِّدة لتدمير حياة الناس. وإذا كنتِ نزَّاعة إلى المَكيدة فهناك سُبُل مختلفة لتُودي بشخصٍ إلى حَتْفِه.'

أتيتَ مؤخَّرًا في إحدى رسائلكَ لي على ذِكر شيء مُماثِل، في مَعرض حديثِكَ عن مُشَعْوذٍ من الشرق الأوسط استخدمَ السِّحر لِبَثِّ الفُرقة بين زوجين...

بعد كلِّ ما قلتَه تخلَّيتُ عن محاولاتي في إخفاء شعوري بأن أفكاركَ الإبداعية تكادُ تقترب كثيرًا من الكوميديا. وضعتُ يدي على ركبتكَ - أظنُّ أنكَ أحببتَ تلك البادِرة، وأظنُّ أيضًا أنها إحدى التَّصرُّفات الأخيرة القليلة التي أظهرنا فيها أي حَنان جسدي بيننا - ثم قلتُ لكَ، 'ماذا عن *الشال* يا ستاين؟ إذا لم تتعرَّض لإصابة خطيرة فما الداعي لأن تنزعَ شالها الوردي أو تفقدَه طالما أن الليلة كانت باردة؟'

لا أستطيعُ الجَزْمَ إلى أي مدى كنتَ أنتَ بنفسكَ مقتنعًا بنظرياتكَ في تلك الآونة. وبِقَدْر ما أذكُر أردفتَ تلك النَّظريات بِقَولكَ إنكَ تحاول فقط التفكير بعقلانية. لا خَطأ في هذا يا ستاين، إلا أن الشيء الغريب في مَرأة العِنَبِية لا يقتصر فقط على تطابُقِها مع المرأة التي دهسناها، بل كذلك على طريقة ظهورها بين الأشجار فيما نحن نلمسُ أزهار كَفِّ الثعلب - تلك الأزهار المُكْتنزة والمُفعمة بالحياة – ثم طريقة اختفائها ثانية. كنتُ في تلك الأثناء قد بدأتُ أُطَوِّر تأويلي الرُّوحي للأمور. والآن، أعني ونحنُ في السيارة عائدين إلى البيت، حاولتَ على الأقلّ أن تعيرني انتباهكَ طَوال الطريق نحو "غول"

و"نيسبين"، وقُدمًا صوب بحيرة "كروديرين" ثم "سوكنا" و"هونيفوس" و "سوليهوغْدا" من غير أن يكون لذلك أي شأن بالمُجاملات التي تفرضها المُعاشرة. كان كلّ شيء ما زال حديث العهد بَعْد، وكنتَ يا ستاين مُشوَّش الذهن حقًا. لم أُشِر إلى الكتاب الذي اختلستُه من صالة البليارد، وأمضيتُ ساعةً أقرأ فيه في الصباح التالي وأنتَ نائم. تُرَى، أليس غريبًا أيضًا أن نقعَ على ذلك الكتاب قبل بضع ساعات من لِقائنا غير المتوقَّع مع مَرأة العِنَبية؟

بالتدريج، جاءَني الإلهام بأنه في وسْعنا النَّظر إلى لقائنا مع مَرأة العِنَبية على أنه حدثٌ مَيْمون. نحن اللذان لطالما تشاركنا في تقديرنا العميق نفسه للحياة، وأيضًا أَمَضَّنا معًا أسى مساوٍ له لأن هذه الحياة ستنتهي يومًا بلا رَجْعة، كنّا سنتشاركُ في هِبة عظيمة - لقد أُعْطِيَت لنا فجأة إشارة تبيِّن لنا أن حياتنا هذه مرحلة عابرة فقط، وأن أرواحنا يمكن أن تحظى كذلك بوجودٍ آخر بعد هذا الوجود. أُعْطِيَت لنا لمّا وقفَت تُطالعنا بابتسامة "الموناليزا" تلك، ابتسامة عابثة وفَطِنة تنادينا؛ تَعالا! وحتى اليوم وأنا أكتبُ لكَ، كم أودُّ أن أشاركَ في هذا الظَّفر. فليس ثمّة ما يُلْزِم أن يأتي هذا بعدَ فوات الأوان.

إلا أنه كان هناك شيء آخر يبعَث السَّلوى في النَّفْس؛ ما عادت المرأة ذات الشال في حالة سَيِّئة. ألَمْ يخفِّف ذلك من فَداحة شعورنا بالذَّنب؟ نعم، لقد وضَعْنا بالتأكيد حدًّا لوجودها الدُّنيوي، لأن جسدها مات، ربما فورًا أو ربما خلال الأسبوع الذي تَلا - وهذه تبقى إلى اليوم فكرة مُروِّعة - لكن مَرأة العِنَبية كشفَت لنا أنها عبرَت إلى البُعد الآخر. أليس هذا في الأساس سبب ظهورها لنا؟ لتسامحَنا، ولتَغْرِسَ فينا شجاعة جديدة! لي قالت: 'أنتِ مَن كُنْتُها، وأنا من ستَكُونينها'. كأني بها تقول، لا تبتئسي، ستصبحين مثلي، ولن تموتي أبدًا... أما أنتَ فحملَت لكَ رسالة مُطَمئنة: 'كان ينبغي أن تُغرَّم مُخالفةً لتجاوُزِ السُّرعة يا فتاي.' فمن وِجهة نظرها، أعني من وِجهة نظرها *الجديدة*، أنتَ لستَ مذنبًا بما هو أكثر من انتهاكِ قوانين السير؛ شيء قد يرتكبه أي شخصٍ مِنّا ونحن بَعْد عالِقون في سباق الجرذان هنا في العالَم

الأرضي. كأني بها تقول إن ما أخذَ مَجراه ليس أكثر هَوْلاً من الحصول على مُخالفة، لأن أجسادنا كَليلة وسريعة الزوال، وهناك وجودٌ آخر بانتظارنا أنقَى وأكثر استقرارًا.

ولذلك أرى حقًا أن ما قالَته لكلّ مِنّا يتضمَّن المعنى نفسه.

وهكذا عُدنا إلى البيت من جديد، ولم يكن مُباحًا لنا التطرُّق إلى ما جرى. لكن أذاه النفسي بقي فينا، وأثقلَ عاتِقنا حِملُ الخِزي والشعور بالذَّنب الذي ما فتئ يتجدَّد كلّما تلاقت عيوننا، كلّما قَلَينا بيضة معًا، أو كلّما صبَّ أحدنا للآخر فنجان قهوة أو فنجان شاي.

إلا أنني ما لبثتُ أن وصلتُ إلى استنتاجٍ مَفاده أن ما حال دون أن نستمرّ في حياتنا معًا ليس الخِزي في الحقيقة. فقد كان في وسْعنا أن نخلّف الشعور بالمَهانة وراءنا. وأعتقد أننا كُنّا على استعداد للذَّهاب طَواعية إلى الشرطة لنسلّم أنفسنا. نعم بهذه البساطة! وكُنّا على استعداد لتحمُّل أي عقاب أو فضيحة نستحِق، وكلّ مِنّا يَشُدّ عَضُدَ الآخر.

أنتَ بالتأكيد لم تنس ما أقدَمنا عليه قبل أن نُحْكِم وضْعَ الغطاء على ذلك كلّه. ففي النهاية اتصلنا هاتفيًا بالشرطة من غير أن نفصِح عن هُوِّيتنا. واستعلمنا عمّا إذا كان هناك بلاغٌ عن حادِثة سَيْر أو موت شخص عند حدود المقاطعة على الطريق السريع ٥٢ في تلك الليلة المَعْنية. وزعمنا أن سببَ اتصالنا يعودُ إلى أننا ربما شَهدنا شيئًا. أخذوا عِلْمًا بالزمان والمكان وطلبوا منا مُعاودة الاتصال لاحِقًا لأننا أصررنا على البقاء مجهولين. انتظرنا بضعة أيام قبل أن نتصلَ من جديد، وعندئذ، أكَّدَت لنا الشرطة أنه لا بلاغ هناك عن أي حادِثة، لا في تلك الليلة ولا في أي ليلة أخرى في ذلك القِطاع المُستوي والمُمَهَّد جيدًا من الطريق.

فجأة اكتشفنا أن ما حدثَ لا آثار له. هذا جعل جانبه الدُّنيوي أكثر غموضًا، وما زال إلى اليوم لُغزًا. كان هناك شخصان؛ أنا وأنتَ، وكنّا نعرف أننا قد دهسنا امرأة. ما عنَى أن شخصًا آخر غير الشرطة والسُّلطات

تولّى الاهتمام بجُثمان المرأة. وهكذا وبالتدريج أيضًا غدوتُ أكثر اقتناعًا بأننا تواصلنا مع روح تلك المرأة بعد بضعة أيام من عبورها إلى الطّرف الآخر.

هنا كَمَنَت الفجوةُ العميقة بيننا. الاستنتاجات التي استخلصتُها مما اختبرناه اختلفَت كثيرًا عن استنتاجاتكَ. وهذا ما جعلَ بقاءنا معًا مُستحيلاً. بدأتُ من فوري أقرأ عَن الفلسفة الرُّوحانية. وكان لديَ الكتاب الذي أخذتُه من صالة البليارد. وقد خشيتُ أن ترميَه في وجهي، عندما رأيتَه معي ثانيةً. وإلى جانبِ ذلك انكَبَبْتُ على قراءة الكتاب المقدَّس. وأنا الآن أعتبر نفسي مُؤمِنةً.

نعلمُ أن السيِّد المسيح قد أظهرَ نفسه لتلامذتِه، وأعتقد أن هذا الظُّهور هو من النوع نفسه الذي كشفَت به تلك المرأة نفسها لنا. تحدثنا عن هذا أنا وأنتَ. وبالنسبة لي، أرى أن الاعتقاد بأن يسوعَ مات أولاً، ثم عاد جسدُه الميت إلى الحياة هو اعتقاد فَجٌ جدًا. ما يعني أنني أرفض المعتقَد الكَنَسي عن 'قِيامَة الجسد'، أو المفاهيم البالية عن فتح القبور يوم البعث. أنا أؤمِن ببعث *الرُّوح*. أؤمِن، على غِرار "القِدِّيس بولس"، بأننا بعد موتِنا الجسدي هنا سنقوم ثانيةً بـــ 'هيئة روحية' في بُعْدٍ مُختلفٍ كلّ الاختلاف عن العالَم المادّي الذي نعيشُ فيه الآن.

اصطنعتُ لنفسي تَوْليفة جمعت بين الدِّين وبين ما يتضمّنُ، في رأيي، اعتقادًا رشيدًا بأن لدينا أرواحًا خالِدة. على الرغم من أنها في حالتي لم تكن مجرّد مسألة إيمان. بل رأيت *بأمِّ* عيني ظهورًا لامرأة دهسناها معًا وقتلناها، مِثلما رأى تلامذةُ المسيحِ السيِّدَ المسيح بعد أن 'قام من بين الموتى'، كما يقول المسيحيون الأوائل. أوَلاَ توافِقني هنا على أن السيِّدَ المسيح أيضًا ظهر لتلامذته ليُعلِّمهم الصَّفْحَ، أو بكلمات أخرى الأملَ والإيمانَ؟

أو وَفْق كلمات القِدِّيس بولس: 'ولكن إن كان المسيح يُكْرَز به أنه قام من الأموات كيف يقول قَوْم بينكم إن ليس قِيامة أموات. فإن لم تكن قِيامة أموات فلا يكون المسيحُ قد قام. وإن لم يكن المسيح قد قام فباطِلة كرازتُنا وباطِل أيضًا إيمانكم.'

أنا، أنا التي كثيرًا ما بِنتُ في الماضي بمرارةٍ بالغة عدم خلودي، وتسبّبتُ في ركوبنا الخُنفساء والانطلاق إلى جليد "يوستدالسْبرين" أملاً في الحصول على المُواساة، أنا التي لطالما أَسِفْتُ بجنون لأنني لن أحصلَ أبدًا على كفايتي من الحياة، اكتشفتُ فجأةً عقيدةً توفيقية تسترضيني بحياةٍ أبديةٍ بعد هذه.

بعد يومين أو ثلاثة فقط اكتظَّت شَقّتنا الصغيرة بالكُتب، كتب اشتريتُها أو استعرتُها تبحثُ في الظواهِرِ التي تسمّيها 'خارقة للطبيعة'. ولا أظنُّكَ لاحظتَ أنني كنتُ أقرأ في الكتاب المقدَّس أيضًا. ما لم تستطع تقبُّله في الواقع هو أنكَ عَدِمتَ إيمانًا يُضاهي توجُّهي الجديد. اعتبرتَ ذلك خيانة. كان لنا نحن الاثنين مَذهَبُنا الخاصّ، ورأيتَ أنه لم يبقَ في الأبرشيةِ التي تخلّيتُ عنها إلا تابعًا واحدًا.

لأن الآية لم تكُن معكوسة. لم أكُن أنا التي ما عادت تستطيع الاستمرارَ في الحياة معكَ بسبب إلحادكَ. حقيقةً لا. إلا أنني على المَدى الطويلِ بِتُّ عاجِزة عن تحمُّل استمراركَ في هزِّ رأسكَ مُستنكِرًا إيماني الجديد. لم تتساهَل. لم تُظهِر أي تَسامح، لم تُظهِر أي رأفة. وصَعُبَ عليّ تقبُّل ذلك منكَ، ما اضطرني في النهاية إلى المُغادرة وركوب قطار ما بعد الظَّهيرة إلى "بيرغن"...

ثم أُضيفَ فصلٌ جديد إلى قصتِنا بعد أكثر من ثلاثة عُقود. خرجتَ إلى الشرفة حاملاً فنجان قهوة وبلا أي مُقدمات وجدتَني هناك. عندئذٍ، وللحظةٍ، خِلْتُ أنني قادرة على رؤية نفسي من منظوركَ، وولّد فيّ هذا شعورًا بالارتباك.

والآن، أودّ أن تسمح لي بأن آخذكَ في تجربة فِكرية أخيرة. وهذا مهمّ لي في الواقع، لأن هذه التجربة الفكرية هي أيضًا تعبير عن شَكٍّ مزعجٍ ما انفكّ يساورني بإلحاحٍ مؤخَّرًا. نعم يا ستاين أنا مثلكَ قد تساوِرني الشكوك.

عُد بالزَّمن إلى الوقت الذي كنّا منطلقين فيه عبر الجبال، وحاول أن

تتخيَّلَ معي أن هناك آلة تصوير مُثبَّتة على غطاء السيارة الأمامي. وفي حال أنها كانت تصوِّر الطريق أمامنا قبل لحظةٍ فقط من الحادِثة، فهل يمكنكَ أن تجزِمَ اليوم جزمًا قاطِعًا بأن المرأة ذات الشال ستظهَر في الفيلم؟

لا ريبَ في أنك تحسَبُني الساعة أعبِّرُ عن نفسي بطريقة غريبة جدًّا، إلا أنني في الحقيقة أكتبُ عن شيء هو غريبٌ جدًّا.

مَن أطلقنا عليها اسمَ مَرأة العِنَبية كانت ظُهورًا من الجانب الآخر. لكنني، كما أسلفتُ، لستُ واثقةً جدًّا من أنه كان يمكننا التقاط صورةٍ لها، ولا تسجيلَ ما قالته. فهي لم تكن إلا روحًا تزور الأحياء. لذا فقولنا إنها 'تجسَّدت' يُجانِب الصواب. بل نحن حتى لم نسمع الكلام نفسه. جاءت إلينا حامِلةً فكرةً لكَ وفكرةً أخرى لي. وعلى الرغم من الاختلاف الكُليّ بين العبارتين اللتين نطقَت بهما، فإن معناهما واحد تقريبًا.

واليوم، أعتقد أن لدي فكرة جيدةً إلى حدٍّ ما عمّا حدثَ من خلال قراءتي عن أناسٍ واجهوا تجارب مماثِلة لتجربتنا. وأريدُ في البداية أن أشدّد على نقطة واحدة مهمّة. نحن نعرف أن الأرواحَ ليست بطبيعة الحال مُحتَجزة في نِطاقي الزمان والمكان المعروفين لنا هنا في وجودنا الرُباعي الأبعاد، ناهيكَ عن الوجود الميكانيكي. إذ، ماذا يمكن أن يحتجزَها؟ ومن هذا المُنطلق أقول إنه ليس من المؤكَّد ما إذا كانت مَرأة العِنَبية قد عبَرت إلى الطرف الآخر بالفِعل، أو أنها شيء يكمنُ في المستقبل، أعني ليس مؤكَّدًا من خلال وجهة نظرنا، من خلال زاويتنا الزَّمنية لهذا اللُّغز. ربما كانت تلك المرأة نَذيرًا بشيء، وهناك في أدنى الأحوال احتمال في أنها ما زالت بيننا.

لكنّنا دهسناها، سينحو بكَ تفكيركَ الآن، وأنا أيضًا لطالما أصررتُ على أنها ماتت هناك وفي تلك اللحظة أو في الأيام التي تلَت. هذا ما أحاول استجلاءه يا ستاين، هذا ما بذَرَ فجأةً بذرة الشكّ الصغيرة في أعماقي، احتمال أن يكون ما اختبرناه هناك عند بحيرة ذلك الجبل نذيرًا بشيءٍ لم يتحقّق بَعْد، بشيء سوف يتحقّق لاحقًا.

والمصباح الأمامي المهشّم؟ وكذلك اهتزاز أحزِمة الأمان المُباغِت. نعم، حدثَ ارتجاجٌ ما، بيد أنه ليس بذلك الارتجاج العنيف، ما يعني أننا صَدَمنا شيئًا، وأنا لا ألقي بظلال الشكّ على هذا، مع أنه من الجائز جدًا أن ما صدمناه لم يكُن إلا روحًا.

حتى في ذلك الوقت لم أرَ أننا تضرّرنا كثيرًا إذا أخذنا ظروف الحادِثة بعين الاعتبار. فأنتَ بعد كلّ ما جرى تابعتَ السير. فهل كان من الممكن أن تفعل ذلك لو أنكَ صدمتَ ظبيًا أو إلْكَةً؟

إنما، بعد وقت قصيرٍ عُدنا ووَجَدنا الشال على الأقلّ. نعم هذا صحيح، ولذا أراني أقول مثلكَ الآن إن ذلك مضى عليه زمن طويل، وما عدتُ اليوم متأكّدة. ثم إن الشرطة قد أعلنَت أنه لم يقع أي حادث في تلك البقعة المَعْنية.

للتثبّتِ فقط من تغطية جميع الاحتمالات، أودّ الإشارة أخيرًا إلى أن مَرأة العِنَبية ظهَرَت لنا في *ثلاث* مناسبات. أوّلاً في الدرب عند قمّة "هيمْسيدال"، ثم عند البحيرة، وأخيرًا وللمرّة الثالثة بين أشجار البتولا وراء الفندق القديم. فما قولكَ يا ستاين؟

منذ ذلك الحين لم تُعاوِد الظهور لنا قطّ، لا لكَ ولا لي. هذا أوّل ما استعلَمْنا عنه بمجرّد أن أصبحنا وحدنا هناك. لا جِدالَ في أنها جاءت إلينا نحن *الاثنين* بالتحديد. وربما لا أحد غيرنا، لا أحد غيري وغيركَ رآها في أي يوم.

آمل ألا يكون هذا الملخّص ثقيلَ الوطأة عليكَ. في بعض اللحظات يعتريني الخوف من أن تعود إلى قَطع حبال التواصُل بيننا بسبب تبايُن وجهات نظرنا. ربما ما زلتَ تعتقد أنني مختَلّةٌ عقليًا، بيد أنني أعرف أن فيكَ بقعة تسعى وراء تفسير أكثر وضوحًا للُغز الغامِض الذي واجهناه هناك، حتى وإن توصلّنا مع مرور الزمن إلى استنتاجات جدّ مُتخالفة حوله. أتذكّرُ كيف انبرينا نتكلّم في ذلك اليوم بالذات، وأتذكّرُ رحلة عودتنا إلى "أوسلو". أنتَ لم تبتعِد، ولم تنغلِق على نفسكَ إلا بعد أن بدأتُ أزحَم الشقّة بكلّ تلك الكتب.

والآن، بعد ثلاثين سنة، تكتبُ قائِلاً إنكَ كنتَ خائفًا مني.

لا تجعَل رسالتي هذه آخرَ ما بيننا من كلام. ينبغي ألا يُنسينا شيء أننا كُنّا من سُكّان الكهوف. وانطلاقًا من وجهة النظر هذه، كنّا أيضًا *الإنسان المُنتَصِب*، و *الإنسان الماهِر*، و *الإنسان الإفريقي الجنوبي*. ونحن على كَوكب ينبِض بالحياة في كَوْن غارِقٍ في الغموض. أنا لا أُنكِرُ أي شيء من هذا.

إن اللُّغز الكبير الذي نؤلّف جزءًا منه ليس له بالضرورة جوابٌ ماديّ أو مَحسوس فقط. ربما نحن أرواح خالِدة أيضًا، ولعل *هذا* ما يمثّل النواة الأعمق لتفرُّدنا. أما ما عدا ذلك – النُّجوم والديناصورات – فليست إلا مُخَلَّفات خارجية. بل حتى الشمس لا تفقَه أكثر مما يفقهه الضُّفْدَع، ولا المَجرَّة تستوعِب أكثر مما تستوعبه قَمْلة. ما يمكنُ هذه الأشياء فعله لا يتعدّى الاشتعال ضمن نِطاق أجَلِها المَوقوف لها.

لطالما كنتَ سريعَ الخاطِر في تذكيري بأن أجسادنا على صِلة بأجسام الزَّواحف والضفادِع. مع ذلك، وعلى الرغم من العلاقة الوِراثية بين الفَقاريّات البِدائية و *الجنس البشري*، يختلف الإنسانِ اختلافًا جوهريًا عن الضفدَع. فنحن قادِرون على الوقوف أمام المِرآة والنَّظر في أعيننا مباشرة، والعينُ كما تعلم مِرآةُ الرُّوح. وبالتالي نحن بأنفسنا الشهود على ما خَفي مِنّا. وهذا ما عبّر عنه أحد الكهّان الهنود بقوله: الإلحاد هو ألا تؤمن بمَجْدِ روحكَ.

هُنا على الأرض نحن جسمٌ وروح معًا في وقتٍ واحد. لكننا سنصمدُ ونبقى أحياءً بعد فناء الضفْدَع الذي فينا. كانت مَرأة العِنَبِية مُعجزةً من وراء هذا العالم، وما عادت جسدًا من لَحم ودَم. وإني لأتمنّى أن تنفتحَ عيناكَ في يوم ما على السِّرِّ السَّماوي الذي حملَت لنا بُشارتَه.

وبعد كلّ ذلك، وبابتسامة مُتأمِّلة، تسترجعُ ذاكرتي طريقة تسليم كلّ منّا نفسه للآخر، مرّةً تِلو مرّة، بظمأٍ يَصعُبُ إِرواؤه تقريبًا. وأحتفظُ بصِفَة خاصَّة

بلقطات فيلم ذِهني من أسبوعنا الأخير في "فيار'لاند". إنها ذكريات جميلة، ولا يُشعرني أيٍ منها بالخجلِ من طبيعتي الجسدية، بل ما كنتُ يومًا ولا حتى من غير أن أعيَ خَجلةً منها، وهذا لا علاقة له بذاك. إلا أنني اليوم أتطلَّعُ إلى كَوني ما هو أكبر من ذلك إلى حدٍّ بعيد. ما هو أكثر *نَيمومة*.

أما الآن فأنا بانتظار ردٍّ منكَ.

أزهارُ كَفّ الثّعلب! أنتِ عبقرية يا سولرن! لربما حللتِ لُغزًا قديمًا من غير أن تعلَمي. إنما عليَ أن أبدأ رسالتي بشيء آخر قبل هذا.

أنا هناك مُجدَّدًا. وأنا الساعةَ جالسٍ في غرفة البرج نفسها التي شَغلناها في الماضي. وهنا، قبل فترة وجيزة تلقّيتُ بريدكِ الإلكتروني الأخير، وقرأتُ الجزء الثاني من ملخّصِ حكايتنا على حاسوب نقّال جدّ نحيف وأنا على الأريكة الطويلة المعهودة. كان هذا غريبًا. مؤلمًا. وكَان لا بدَّ لي من الخروج إلى الشُّرفة لأتطلّعَ إلى الجبال والجليد. لأتطلّعَ إلى شيء مُستقرّ. إلى شيء خالدٍ. بعد أن انتهيتُ من القراءة تمشّيتُ إلى مرسى البواخرِ القديم. وشعرتُ كما لو أنني قد أصطدمُ بنا في أي لحظة. إذ ما الزمن يا سولرن؟ إن كلّ شيء أشبه بفيلم مُزدوج العَرض. الآن، في هذه اللحظة حذفتُ رسالتكِ بعد أن قرأتُها مرّتين. وها قد اتَّخذتُ لنفسي مجلِسًا أمام المنضدة الصغيرة لأجيبكِ.

تركتُ المعهدَ باكرًا في هذا الصباح وانفلتُّ لا ألوي على شيء مثلما فعلتُ تمامًا قبل ثلاثين سنة. أخبرتكِ أنني كنتُ مضطربًا، وأنني اتَّخذتُ قرارًا، وكاتبتُكِ من "غول".

اتصلتُ هاتفيًا بزوجتي بيريت وأعلمتُها أنني أخذتُ السيارة وفي طريقي إلى الجبال لأقضي عطلة نهاية الأسبوع فيها حتى أركّزَ على مقالتين أو ثلاث ينبغي عليَ كتابتها. قلتُ إن المقالات تتعلّق بالجليد ومتحف الجليد. وليست المقالات إلا مجرّد عذر؛ فما جرَّني إلى العودة شيء آخر، وهو، طبعًا، رسائلكِ الإلكترونية. كانَ لا بدّ لي من أن أعودَ إلى هنا ثانيةً.

نجحتُ في الوصول مع موعدِ العشاء. وما كدتُ أنتهي من الأكل حتى اندفعتُ مسارعًا إلى غرفتي، وهرعتُ إلى فتح رسالتكِ الأخيرة، بعد نصف ساعة فقط من إرسالكِ لها. حملتُ معي إلى الغرفة دَوْرَقَ النَّبيذ، وهو الآن يقفُ فارغًا على الطاولة أمامي.

جئتُ وحدي. لا أظنّ أنكِ أتيتِ أيضًا في هذه المرّة. على الرغم من أنه خطرَ لي، وأنا أمرُّ بالمحطة المخصَّصة لدفع رسوم الطريق، أنكِ ربما قد تُطلّين فجأة خلال المساء. تخيّلتُنا جالسين في البَهو المستدير القديم في قاعة الموسيقى ومعَنا قهوة ومشروبات رُوحية. إنها المرّة الأولى التي آتي فيها إلى هنا وحدي. ولعلّه شيء يجدر بي ممارستُه باستمرار، لأنني مأخوذٌ بهذا المكان، مأخوذٌ بكلٍّ من البَلدة والفندق الخشبي القديم.

هي أيضًا المرَّة الأولى التي أقودُ فيها سيارةً عبر الجبال منذ أيامنا مع الفولكسفاغن الحمراء. تملَّكني شعور غريب؛ لأنني على نحوٍ ما، ما بَرحتِ أقودُ السيارة عبر الجبال طَوال عمري. ما برحتُ أجلسُ في النهار وفي الليل قابضًا على المِقْوَد عند البحيرة. قبل أن نتوقّفَ عند ميناء العبَّارات القديم ونَطفرَ مُحلّقين في رِحاب الفضاء. قبل أن تستَوقِفنا الشرطة في "لايْكانْغَر". عندما كنتُ متيقّنًا من أن سائق العربة البيضاء رأى الفولكسفاغن ونبَّه الشرطة عليها.

أتفقُ معكِ على مُعظم ما وردَ في خلاصتكِ، وإن كان في إمكاننا مناقشة بعض النقاط الصغيرة الواردة فيها. إلا أنها في مُجملها صحيحة بما يكفي، وتُبرزين فيها الفوارِق الدَّقيقة في تفسيراتنا المُستَقلّة لِما عانيناه وشَهدناه آنذاك.

على امتدادِ الطريق من "أوسلو" إلى "غول" وفي الأعلى خلال "هيمْسيدال" قُدتُ سيارتي الهَجين الجديدة وأنا أمعِنُ التفكير فيكِ وفي نظرتكِ الرُّوحانية إلى العالَم. أذهلَتْني الكيفية الواضِحة والمتماسِكة التي تلتَحِم بها فلسفتكِ

هذه. إنها في الواقع تخلو من أي أثرٍ له علاقة بالطَّرح العلمي، وآمل ألا تُسيئي فهمي يا سولرن، غير أنه بدا لِي أن الإيمان بخلودِ روح الإنسان قد لا يمكن أبدًا أن ينقضَه العِلْم نقضًا كاملاً. أيَقتصرُ وَعينا على كَونه نتاج كيمياء الدِّماغ والمُحفِّزات والبيئة المحيطة بذلك العضو، بما في ذلك كلّ ما نسميه الذاكرة؟ أم هل نحن إلى حدٍّ ما، مثلما تجادلين على نحوٍ مفحم جدًا، أرواح أو نفوس ذات سيادة لا تستخدم الدِّماغ في اللحظة الراهنة إلا باعتباره حَلَقة وصلٍ بين البُعد الروحي وبين زخارف هذا العالَم المادِّية؟ إن هذه الإشكالية قديمة العهد، ولا أعتقد أننا سنحلّها في يوم. ولعلّ السلوكَ الرُّوحاني بالنسبة إلى الوضْع الإنساني وعِلْم الوجود هو رؤيا نراها أكثر إعجازًا من أن نتركَها بأي حالٍ مهملة، والمناقشات حول هذا الموضوع ستبقى دائمًا.

نحن أرواحٌ يا ستاين!...
ليس هناك موتٌ يا ستاين، وليس هناك أموات...

أنا لا أمتلكُ القُدْرة على التصديق بشيء على هذه الدَّرجة من الإعجاز. إنما، لو أن الأمورَ *ليست* على هذا النحو، حسنًا، أرى أنها ربما ينبغي أن تكون كذلك. فنحن ما يشكّلُ وَعي العالَم. وجُلُّ ما نعرفه هو أننا ربما الخَليقة الأنقى والأكثر انبهارًا بكينونتها في الكَون بأسره. ولِذا، قد لا نكون في حاجةٍ إلى خَلق الأعذار لأنفسنا، لأننا نمضي في حياتنا مُستضيفين في أعماقِنا بعض الأحلام التَّفاؤلية عن مصيرٍ آخر وراء ذاك الذي من لَحم ودَم.

ثم ألاحظُ بصَدْرٍ مُثْلَج أنكِ على الرغم من ثُنائية نظرتكِ لا تُنكرين حياتنا هنا على الأرض. تخيّلي لو أنكِ قلتِ إن ما كان بيننا من علاقةٍ حميمةٍ في الماضي نَجَمَ عن فهمٍ خاطئ. التاريخ طافِحٌ بأمثلةٍ عن التعصُّب الديني الذي يؤدي إلى نُكران كلّ شيء حِسِّي ودُنيوي، بدون الحاجة إلى

ذكرِ الأشياء التي يعتبِرها مُعظمنا الواقعَ الحقيقي الوحيد.

جرَت هذه الأفكار وتقلَّبَت في رأسي على طول الطريق من "أوسلو". وعند قمَّة "هيمْسيدال" أوقفتُ السيارة في تلك الدرب الحرجيَّة على يسار الطريق السريع، وبعد بضع دقائق من التأمُّل مضيت في طريقي.

وصلتُ إلى الهضَبة الجبلية التي ما برحتُ أقود فيها السيارة مرارًا وتكرارًا في ظلّ الغلس الواهي لأكثر من ثلاثين سنة. مثل أسطورة الهولندي الطائِر، محكوم بلعنةِ التَّجوال الأبدي على تلك الهضبة، إن لم يكن كلّ يوم، فكلّ ليلة إذًا.

تتذكّرين حتمًا تلك الرابية الغريبة التي مررنا بها قبل أن نصدمَ المرأة ذات الشال - أشرتِ بنفسك إلى 'الربوة الشبيهة بقالِب السُّكَّر'. وهذا وصفٌ جيّد في الحقيقة، لأنها نتوءٌ جدّ لافِت للنظَر. وقد اكتشفتُ من خريطة "الجي بي إس" أو نظام التَّموقَع العالمي في السيارة أن لها اسمًا، واسمها، بطبيعة الحال، "إلدره هاوغن" - رابية القَوْم الأقدمين.

بعد ذلك الرُّكام الترابي الغريب مباشرةً وجدتُ سبيلاً فرعية صغيرة عند الطَّرف الأيمن من الطريق، حيث يضعون الآن بعض اللوحات الإرشادية للسياح فيها معلومات مَحلِّيَّة وتاريخية. وإحداها تنصُّ على ما يلي:

> *"إلدره هاوغن" هي الرابية المستديرة البارزة والظاهرة شرقَ لَوحة المعلومات هذه. كانت "إلدره هاوغن" موطِن عُصْبة من مَخلوقات التلال غير المرئية يُدعون "أوسغاردسراي" أو "يوليسكراي". وكان هؤلاء "الأوسغاردسراي" أو "اليوليسكراي" يندفعون خارج "إلدره هاوغن" كلّ سنة في منتصف الليل من عَشيَّة عيد الميلاد وينطلقون مُنحدرين نحو "هالينغْدال". هناك، درَجوا على زيارة المزارع في المنطقة واقتناصِ ما يحلو لهم من طعام عيد الميلاد وشرابه. كان من المُتعارف عليه أن الناس الذين يزوِّدونهم بكميات*

وفيرة من الطعام والشراب سيُقيِّض لهم أن يعيشوا حياة سعيدة ورَضيَّة. وفي حال وُسِمَ الطعام بعلامة الصليب، سيشعرُ "الأوسغاردسراي" بالإهانة، وقد يؤدي ذلك إلى إلحاق المِحَن بالناس والمُلكيات والماشية. كان أهالي "هيمْسيدال" يعرفون أسماء كثير من أفراد عُصبة "الأوسغاردسراي": مثل "تيدنه راناكام" و "هيلغه هوغفوت"، وتروند هوسينيغن" و "ماسني تروست" و "سبينيغ هيله". وصل "الأوسغاردسراي" في غزواتهم إلى القُرى المحيطة بـــ "درامِن". وهناك لطالما أشاعوا الفَوضى في فترة عيد الميلاد بأكملها. وما كانوا يعودون إلى "إلدره هاوغن" إلا في الليلة الثانية عشرة.

"ماسني تروست"! و"تيدنه راناكام"!

هززتُ رأسي، وعندما استرجعتُ في ذهني ما كَتَبْتِه عن المخلوقة التي صدمناها بأنها قد لا تكون بالضَّرورة شخصًا عاديًا ولكن ربما مجرّد طَيْف، وقفتُ هناك مدَّةً طويلة أُمَحِّص الفِكْر في هذا.

لكن، كَفّ الثّعلب و 'مَرأة العنبية'! حسنًا، يتهيأ لي أنكِ ربما، من حيثُ لا تدرين، أَصَبْتِ كَبدَ الحقيقة.

قلتِ إننا رأينا الشيء نفسه، إلا أننا سمعنا أو تلقّينا رسالتين مختلفتين.

كنّا مُنجذبين إلى أزهار كَفّ الثّعلب الرَّيانة تلك، وافتِتانُكِ البالِغ بها أرغمَكِ على لمسِها. ولذا، من المؤكّد أننا كنّا نفكّر في الشيء نفسه آنذاك، حتى على الرغم من أننا لم نأتِ على ذِكْره علانيةً طَوال الوقت، كنّا نفكّر باستمرار تقريبًا في المرأة التي صدمناها هناك في أعلى الجبل. وكان لون أزهار كَفّ الثّعلب يماثِل بدّقةٍ مُتناهية لون الشال الذي رأيناه حول كتفيها، والذي وجدناه بعد ذلك مُلْقى على الخلنج. لا اللون نفسه فحسب، بل أيضًا درجته الوردية عينها. ولعل سبب انجذابنا القويّ جدًا إلى تلك الأزهار يعود إلى هذا.

ثم، وعلى حين غرّة جعلنا شيءٌ ما نلتفتُ فورًا، مثلما قلْتِ بالضبط. ربما كان ابن عِرْس أو غرابًا أبقَع. المهم أننا التفتنا، ثم خُيِّلَ إلينا معًا أننا *رأينا* المرأة التي دهسناها - كانت تقف وسط الأيكة والشال نفسه حول كتفيها.

مع ذلك، ربما ليس من العَجب العُجَاب أن نقعَ فريسةَ الهَلوسة نفسها وحالتنا الفكرية على ما هي عليه في ذلك الوقت. وذلك بعد أن، كما يتراءى لي، تركنا أنفسنا تستسلم لتضليلِ أزهار كَفّ الثّعلب النَّضرة ولونها المُغوي. هل لكِ أن تخبريني ما سبب انجذابكِ إلى تلك الأزهار وحدها؟ مع العِلْم أنه كان في الجوار تشكيلة أخرى من أزهار الجُريس الزّرقاء الساحِرة.

أن نعرفَ ما إذا كان يوجد مِئة أو ألفُ أو مِئةُ ألف لون مختلف، هو مسألة عِلْمية بَحت. أما تلك فقد كانت بالفعل درجة اللون نفسها. تحرّكَ شيءٌ ما بين الأشجار خلفَنا، التفَتنا وتطلّعنا، ومعًا تَهيأ لنا أننا رأينا المرأة ذات الشال الوردي تقف هناك. خِلْتُ أنها قالت شيئًا، وأنتِ خِلْتِ أنها قالت شيئًا آخر. لكن من الواضح جدًا أنني كنتُ أفكّر بلا انقطاع في قيادتي المتهوِّرة للسيارة عند الهضَبة، وأنكِ كنتِ أسيرةَ تلك الأفكار التي عانيتِ منها منذ سنّ الحادية عشرة، عن اضطرارِنا الجَذري الذي لا مفرَّ منه إلى مغادرة هذا العالم يومًا ما.

وكنتِ أيضًا قد وجدتِ ذلك الكتاب. وقرأتِ منه بعض المقاطِع، وكذلك فعلتُ أنا، والحَلَقة الوحيدة المفقودة هي أزهار كَفّ الثّعلب.

كانت أسُسنا قد تزعزعَت كثيرًا إلى درجة أننا أصبحنا عُرْضةً للهلوسة. كنّا هَشّين وبلا حَوْل ولا قُوَّة، وفي النهاية انقلبنا رأسًا على عَقِب ووقعنا ضحيةَ الارتباك الكامل لبضع ثوانٍ.

سأرحلُ غدًا. ولا أريدُ أن أسلكَ طريق الجبل ذاك ثانيةً لأعودَ إلى "أوسلو". بل أفضِّل الذّهاب عن طريق "آورْ لاندسْدال" إلى "هول". وقد

فكّرتُ أيضًا في أن أُعرِّجَ على "بيرغن" وأراكِ.

فهل لي أن أفعلَ هذا؟

في وسْعي أن أركبَ عبّارة لأقطعَ المَضيق البحري من "لافيك" إلى "أوبيدال". وإذا تناسبَت أوقات العبّارات مع رحلتي، يمكن أن أقودَ السيارة على طول الخليج إلى "روثْلِدال"، وأعبرَ إلى "سولَند" أيضًا. أريد أن أرى هذه الجُزُر مرَّةً أخرى. لا أرجِّح طبعًا أن يتسنّى لكِ أن تَحذي حذوي. ما أفكِّرُ فيه هو ما إذا كنتِ تستطيعين مُوافاتي في "روثْلِدال"، أو حتى لعلّه من الأسهل لكِ أن تركبي حافلة إلى "أوبيدال" إذا أتيحَ لك هذا، لأنه لا مَغزى من وجود سيارتين معنا. ستكون آخر مَأثُرة لنا، هذه التي تستمرِّين في تسميتها 'مُجازفات'. لدينا الكثير لنتحدَّث عنه يا سولرن. وإني أودُّ كثيرًا أن أصطحبكِ في جولةٍ قصيرة إلى الجُزُر هناك في فَم المَضيق. أعني الطريق كلّه إلى "كُولغْروف". ويمكن أن نزورَ بقالة "إيدي" عند رصيف الميناء ونشتري المثلّجات – كما كُنّا نفعل في الماضي. سأتفهَّمُ بالتأكيد إذا رأيتِ أنه من الصعب عليكِ العثور على مَخرَج. على فِكرة، بلّغيه أخلص تحياتي!

حجزتُ من قَبيل الاحتياط غرفًا لنا في فندق "نورج" اعتبارًا من الغَدّ. أما هنا، فأنا الضُّيف الوحيد والأخير في هذا الموسم قبل أن يغلقوا أبوابهم للشتاء. وقد بدأوا منذ الآن في حَزم الأغراض، وهم يُغطّون الأثاثَ بالملاءات والبطانيات.

قد أصِلُ إلى "بيرغن" غدًا بعد الظهر أو مساءً. وفي هذه الحالة ربما نستطيع الانطلاق يوم الأحد، إذا أعطوكِ الضوءَ الأخضر في البيت.

سيكون من الرائع أن نرى تلك الخُلْجان والصخور المعهودة من جديد. ولا ريبَ في أن الجزيرة بأكملها مفروشة الآن ببراعِم الخلنج الأرجوانية. في مثل هذا الوقت بالضبط ذهبنا إلى هناك آنذاك. وما قلتِهِ صحيح: كان لا بدَّ لنا

من الخروج إلى رأسِ الخليج في كلّ مساء لنتفرَّجَ على الشمس تغرقُ في البحر من جهة الغرب.

يغمرني شعور قَوي بأننا الآن ننتمي إلى ذلك النوع من الطبيعة.

ربما يا ستاين. مع نلك، أنا أؤمِنُ حقًا بأن أرواحنا في ذات يوم ستُبْعَث من جديد مرتفعةً في أُفُق جِدّ مختلف وأكثر سُمُوًا.

ولكن، هَل لي أن آتي إلى "بيرغن"؟

تعالَ، تعال فقط!

هل تَعنين هذا حقًا؟

نعم يا ستاين. لا أتمنّى إلا لو أنكَ هنا الآن. تَعال!

لا أظنّني في حاجةٍ إلى التَّكتُم على حقيقة أنني بقيتُ طوال تلك السنين الماضية مُولعًا بكِ. فكّرتُ فيكِ يوميًا بلا انقطاع، وكذلك أجريتُ معكِ باستمرار ما يشبه الحوار. أي بمعنًى من المعاني قضيتُ معكِ في جميع الأحوال عُمري كلّه. إن هذا غريب. لقد كان حياةً مُشتَرَكة غريبةً. إلا أنني أشكركِ عليها أيضًا، أشكركِ على تلك السنوات الثلاثين الماضية.

قلتُ لكَ إنني أشعرُ كما لو أنني عِشت حياة امرأةٍ لها أكثر من زَوْج. فأنتَ أيضًا لازمتني طَوال الوقت. هذا إلى جانبِ تلك الحَساسية المُفْرِطة التي لدي، والتي أوعزَت إليَّ دائمًا بأنكَ كنتَ تفكرُ فِيَّ.

ولكن يا ستاين...

نعم، تابعي؟ إننا نحذفُ الرسائلَ أوَّلاً بأوَّل. وهذا بيني وبينكِ فقط.

ألم نَكُن يا ستاين، أكثر من أي شيءٍ آخر، رُوحيْن تنتمي إحداهما إلى الأخرى؟ روحيْن مُترابطتين، أعني على غِرار زوجين من تلك الفوتونات المتلازِمة التي لا تتجزأ، تنتمي كلّ منهما إلى الأخرى وتستجيبُ لها من على مسافةِ سنين وسنين ضوئية...

وإن هذا يدعوني إلى التساؤل ما إذا كان أسهَل علينا الآن في عُمرنا الحالي أن نُميّز الفرقَ بين الروح والجسد أكثر ممّا قد يفعل المرء وهو بَعْدُ يافع جدًا.

علينا أن نتطرَّقَ إلى هذا الموضوعِ بإسهاب يا سولرن. في أحد الأيام المقْبِلة سنأخذُ السيارة وننطلقُ إلى "سولند"، ألن نفعل؟

أما الآن، وبعد ذلك النبيذ، فسآوي إلى الفِراش. قُدتُ السيارة أربعمئة كيلومتر، ولذا ربما سأستغرقُ في النوم فورًا. آه، النوم، هذه الحالة التي لا تستقرُّ على مَقام! لا يمكنني أن أعطيكِ أي ضمانات بخصوص الأحلام التي قد أورِّطكِ فيها الليلة معي. أعتقد أنني استنزَفتُ ما في جَعْبَتي من أحلام كَوْنية، وقد تكون أحلامي الليلة رتيبة جدًا. ومن يدري، قد أعمَدُ إلى اصطحابكِ في جولةٍ هادئة حول بحيرة "سوغنسفان". عكس عقارِب الساعة!

تُصبحين على خير!

٩

صباح الخير يا ستاين!

لقد قلتُ لنيلز بيتر إنكَ في طريقكَ إلى "بيرغن". انتهينا من هذا على الأقلّ. وهو شيء يبعثُ على الارتياح. أما الآن فأنا بِصَدَد الخروج من البيت لبقيةِ اليوم. لديَ الكثير جدًا مما يتطلّب التفكير. وسنلتقي قريبًا – غدًا على أي حال، إن لم يكن قبلَه!

لا بأس، سأرسلُ لكِ رسالةً بالبريد الإلكتروني حالما يتسنّى لي تأمين اتصال بالإنترنت في الفندق، في وقتٍ ما مِن العصر أو المساء، وفي وسْعنا عندئذ أن نُعِدَّ ترتيبات أكثر تفصيلاً. حسنًا يا سولرن، أتمنّى لك يومًا رائعًا. وكذلك رحلة موفّقة! سأنزلُ قريبًا لأتناول الفطور قبل أن أغادرَ الفندق وأنطلِق. مساء الأمس كانت صالةُ الطعام كلّها لي وحدي. شعرتُ بشيء من الوَحشة طبعًا، وللتعويضِ طلبتُ دَوْرقًا كبيرًا من النبيذ، ربما يتركُ هذا في النَّفس انطباعًا بأنه شيء مبالَغ فيه قليلاً، لولا أنه كان عليَ أن أشربَ أقداحكِ إلى جانبِ أقداحي. في آخر المطاف تمكّنتُ من تخيّلكِ تجلسين إلى الطاولة أمامي، وعند ذاك صرتُ بطريقة ما أراكِ تارةً كما أنتِ اليوم وتارةً كما كنتِ من قبل في ما مضَى من السنوات، هذا على الرغم من أنه ليس هناك أي اختلاف يُذْكَر.

***

مرحبًا مرّةً أخرى يا سولرن. ها قد وصلتُ أخيرًا إلى "بيرغن" بعد رحلة مُضْنية بالسيارة، وأنا الآن في غرفتي في الفندق أسرِّح نظري عَبر بِركة "ليله لونغه غوردسفان" مستشرفًا من بعدها جبل "أولريكن". إننا في المساء، والأضواءُ في الخارج تُتيح رؤية أوضح. ولأوَّل مرَّة في هذا الصيف أشعرُ أن الموسم يتغيّر.

شهدتُ في طريقي حادثة سير مُهوِّلة إلى جنوب "سونيفيورد" بالضبط، وقد زَلزَلتني كثيرًا، لذا سأكتفي الآن بإفراغِ ثلاجة المشروبات التي في غرفتي، وألقي نظرةً سريعة على الصُّحف قبل أن آوي إلى الفراش. هل نتَّفق على أن تطلبيني أنتِ من مكتب الاستقبال في حوالي التاسعة صباحًا؟ وعندئذ، ربما يمكننا أن نبادرَ إلى الانطلاق بالسيارة إلى "روتْلِدال" ثم نأخذَ العبّارة من هناك إلى "سولَند"؟

أتطلّعُ بشوقٍ إلى رؤيتكِ ثانية يا سولرن. وأتطلّعُ بشوقٍ إلى معانقتكِ.

***

لقد أنهيتُ تناولَ وجبة الفطور، ومنذ ذلك الوقت وأنا أتسكّعُ حول مكتب الاستقبال. إنها التاسعة والرُّبع الآن. ومع أنكِ لم تجيبي على أي من رسائلي، أفترضُ أنكِ قرأتِها، وأنكِ في طريقك إلى هنا. وفي حال لم يَصدق ظَنّي، هلّا كَلَّمْتِني هاتفيًا؟ سأكونُ على أي حال في غرفتي، وسأبقى مُتصلاً بالإنترنت طَوال الوقت.

***

إنه منتصف النهار يا سولرن، وإلى الآن لم يصِلني أي خبر منكِ. حاولتُ الاتصال بكِ على هاتفكِ الجوَّال، إلا أنه كان خارجَ الخدمة طَوال

الصَّباح. سأنتظر بضع ساعات أخرى قبل أن أطلبكِ على هاتف البيت.
ستاين.

ستاين،

لقد أدخلتَ للتوّ بطاقة ذاكرةٍ إلكترونية في حاسوبكَ. كانت سولرن تعلقّها حول عنقها عندما حدثَ ما حدث. وأودُّ قبل كلّ شي أن أؤكّدَ لكَ أنني لم أقرأ أكثر مما هو ضروري لأعرفَ أنها تحتوي على مراسلاتٍ واسعة النطاق بينكما أنتما الاثنين. هذه البقايا الإلكترونية تخصّكَ وحدكَ الآن. ولا أظنُّ أن هناك نسخًا عنها في أي مكان آخر، لأنها حذَفَتها كلّها من حاسوبِها. وأنا الساعة أرسلُ لكَ كلمتي هذه في بطاقة الذاكرة نفسها. وكذلك نقلتُ إليها رسائلكَ الإلكترونية الأخيرة التي أرسلتَها لها في ذلك اليوم الرهيب. وبحلول وقت قراءتكَ لهذه الرسالة، ستكون قد وجدتَ كلّ شيء في البطاقة.

لا أدري ما إذا يتوجّبُ عليَ القول إنني سُررتُ بلقائكَ ثانيةً، ومن جانب الاحتياط يُستحسَن ألا أفعل. ولن أقدِم أيضًا على وصفِ مراسِم جنازة سولرن بأنها كانت تليقُ بمقامِها. أردتُكَ في البداية أن تبقى مجهولَ الهُوِّية، وعلى الرغم من أننا تبادلنا بضع كلمات بينما سار المشيِّعون إلى جانبِ البُحيرة، لم أرغب، انطلاقًا من وجهة النظر هذه، في أن يعرف يوناس وإنغريد أو أي أحدٍ آخر من الناس مَنْ كنتَ. وقد أملتُ في أن تتمتعَ بِقَدْر كافٍ من الحسّ المرهَف - أو لعلّه يجدر بي القول باحترام كافٍ للآخرين - لتبقى على الأقلّ بعيدًا عن مراسِم استقبال العزاء. إن مراسِم الجنازة هي في الأساس شَعيرة عامّة مفتوحة للجميع، أما مراسِم استقبال العزاء فخاصّة، وتقتصرُ على من يمكن أن أسمّيهم المعارف المقرّبين. لكنكَ قلتَ إنكَ تريد مُلازمة سولرن من البداية إلى النهاية، وإلى أن تُلقَى آخر كلمة تأبين في

فندق "تيرمينوس". كنتَ عاقِدَ العَزم على ذلك، وفي النهاية لم أجِد من خيارٍ أمامي إلا أن أستوعبكَ وأقدِّمكَ إلى الولدين باعتباركَ صديق دراسةٍ قديم لسولرن. سمِّها معايير بورجوازية مزدوجة، سمِّها ما تشاء، فهذه ليسَت بالمواقف التي يمكن أن يتمرَّس فيها المرءُ. وأنتَ لا تخضعُ للتدريب على التَّرَمُّل فجأةً.

وأودُّ أن أضيفَ، مع ما في هذا من مُجازفة في ظهوري بمظهر السَّخيف، أنه ما كادت مراسِمِ استقبال العزاء تشرِف على نهايتها حتى انبريتَ تمازِح إنغريد. بدأت أساريركَ تنفرِج، كما لو أن غرائزكَ الاجتماعية انطلقَت تعمَل. لم تقِف عند حدٍّ تطفّلكَ على حفل التأبين، بل أيضًا تلهَّفتَ على جَذْب الانتباه، أردتَ جمهورًا من حولكَ، وحصلتَ على ما أردتَ. آلمني أن تضحكَ إنغريد.

أعترفُ أنه كان هناك شيء بينكَ وبين سولرن لم نتشارك فيه أنا وهي. وقد سمعتُ عنكَ طبعًا، بل بالأحرى يجدرُ بي القول سمعتُ عنكما. الثُّنائي غير المنفصِل منذ أوائل السبعينيات. وعندما أقول 'سمعتُ عنكما' فهذا تصريح ينتقصُ الحقيقة انتقاصًا جَسيمًا.

أمّا إقدامي على إرسال بطاقة الذاكرة هذه إليكَ، وإضافة هذه الأسطر القليلة أيضًا، فينبغي أن يُنظَر إليه على أنه تصرُّف نابعٌ من الواجب – وأعني بذلك أنه شيء أدينُ به لذِكْراها. إنه يكاد يشبه مُناولة إرثٍ ما، بما أن الكلمات التي تبادلتُماها لا شأنَ لي بها. وأنا لا أملكُ أي فكرة عما تحدَّثتُما به، عرفتُ فقط أنكما تتراسلان. فسولرن لم يكن لديها قطّ أي شيء يجري في الخفاء.

وإنني لا أكفُّ عن التساؤل عمّا يُحتمَل أن تكون عليه الأوضاع اليوم لو أنكما لم تلتقيا ثانيةً هناك في بلدة الكتب؟ أكانت ستبقى على قَيْد الحياة؟ إنه واجبي الكَريه الذي يحتّم عليَ طرح هذا السؤال. فهي ما عادت قادرة على طرحه على نفسها. وأحيانًا يمكن أن يكون من المؤلم أن يواجِه المرءُ بمفرده مثل هذا السؤال الجلَل.

عندما مشينا جنبًا إلى جنبٍ مع الأعمام والعمّات وأبناء الأخوة وبناتهم من كنيسة الأمل في "مولنْدال" إلى تجمُّع استقبال العزاء في فندق "تيرمينوس"، أعطيتكَ وعدًا بأن أتواصلَ معكَ يومًا وأروي لكَ ما حدثَ بمزيدٍ من التفصيل. وكنتُ في الوقت نفسه أفكِّر في بطاقة الذاكرة. ألَمْ تُدرك عندئذٍ مدى ما اعتراني من حَرَج شديد من أجل الولدين، بل في الواقع من أجل العائلة كلّها؟ إذ مَن أنتَ ومن تكون بالنسبة إلينا؟

أنا الذي تُرِكَ وحيدًا بعد رحيلها، أنا الذي مَنْ يتوجَّب عليه أن يملأ ما خلّفتهُ من فراغ، وإنني لألتمسُ تفهُّمكَ عندما أقول إنني لا أريدُ أي تواصل مُستقبلي معكَ بعد هذا.

كان صباحُ يوم السبت آخر مرّة رأيتها فيها بكامل صحتها. يومها، قبل أن يمضي كلّ منّا في سبيله، بدا لي أنها تتوهَّج ببريق فريد. كانت قد أخبرتني بأنكَ في طريقكَ إلى "بيرغن". فهل هذا ما جعلها سعيدة جدًا؟ قرّرتُ ألا أبدو مُفرطًا في النزوع إلى التملُّك، واقترحتُ أن ندعوكَ إلى البيت. وقد رفَضَت هذا الاقتراحِ فورًا. وسارعت إلى القول، إيّاكَ ومجرّد التفكير في الأمر، كما لو أنها تُجنبني الحَرَج. حسنًا، هذا ما أعتقدهُ، أو على الأقلّ ما اعتقدتُه في ساعتها. لكن هناك شيئًا آخر أيضًا.

في أحدِ أيام كانون الأول قبل عشر سنوات أو ربما قبل خمس عشرة سنة، أهديتُ سولرن شالاً جميلاً. اشتريته احتفاءً بمناسبةِ قُرب حلول عيد الميلاد وفْق ما أذكُر، لأنني إلى جانبِ الشال اشتريتُ لها باقة "بيغونيا" وردية اللون. أتذكَّر الباقة جيدًا لأن لون كلٍّ من الشال وأزهار "البيغونيا" كان متماثلاً. كنت قد اشتريتُ باقة "البيغونيا" أولاً، ثم أُخِذتُ بشالٍ في واجهة مَتجر "سندت" لونه يطابِق لون تلك الأزهار.

غير أنها لم تضَع الشال قطّ. وأبدَت عدم ارتياحها منذ اللحظة التي فتحت فيها العلبة. لما سألتها ما خطبُها، أظنُّها قالت شيئًا عن الإحساس بالتقدّم في السنّ إذا وضعتْه. ثم ما لبثَت أن أردفَت قائلةً إنه ذكَّرها بحادِثة غامضة

واجهتْها وإيّاكَ مرَّةً. لا أتطرّقُ إلى هذا الموضوع إلا لأنه شيء نبشَتْه من جديد وأتَت على ذِكره بعد أن غادرنا بلدة الكتب في تمّوز الماضي. حدث هذا ونحن منطلقون بالسيارة على طول بحيرة "يُولستْرافاتْنيت". ندَّ عني تعليق مُقتَضب عن الجوّ – كان ضبابيًا طَوال اليوم، وبدأ في تلك الآونة يَصفو – وإذا بها فجأةً تهْذُر مُلمّحةً إلى أزهار "البيغونيا" تلك والشال، ثم عن شيء جرى قبل أكثر من ثلاثين سنة. تحاشت الإفصاح عما كان ذاك الشيء 'الغامِض'، فاكتفيتُ بالاستماع فَحَسْب من غير أن أعلِّق. فهي لطالما أتَت على ذِكر أشياء من قبل. ولطالما أتَت على ذكر 'ستاين' من قبل. نعم فعلَت، هذه حقيقة لا أنكِرها. اقترحتُ أن نعرِّج على بيت الصيفية في "سولَند" في زيارة خاطِفة، لِنحاول تبديدَ بعض الذكريات القديمة والتخلّصَ أيضًا من أشباح الماضي. وإزاء هذا الاقتراح أمسكَت يدي ووافقَتني على أنها فكرة سديدة ستعود علينا بالفائدة.

ها قد أفضيتُ إليكَ بهذا، أو لعلّه يجدرُ بي القول أعَدتُ توجيهَهُ إليكَ. إنني أبذلُ قُصارى جهدي لأربطَ الأطراف الفالتة لهذه الدراما من أجلها فقط.

افهمني رجاءً، لا أريدُ منكَ جوابًا. إنني لا أفعل أكثر ممّا يقتضيه واجبُ الزَّوج. إنني فقط أعيد الترتيب والتنظيم من بَعدِها.

في صباح يوم فَقَدْنا لها، كانت قد أخرجَت الشال القديم ذاك لسببٍ ما لا أعرفه. لم أره إلا بعد أن رجعنا إلى البيت من المستشفى، وآنذاك وجدتُه على مكتبها، وما زال ملفوفًا بعنايةٍ في علبة الهدية نفسها التي جُلِبَ بها منذ كلّ تلك السنوات الماضية. ولكن لماذا؟ ما دفعَها إلى إخراجه من جديد؟

وضعتُ بطاقة الذاكِرة التي تستخدمها الآن في عُلبة الهدية نفسها، لأنني أعتقد أن الشال وبطاقة الذاكرة ينتميان إليكَ أكثر مما ينتميان إلينا في هذا البيت. هدفي الصريح من هذا التصرُّف ألا يبقى بعد الآن أي شيء يتعلّقُ بكَ هنا في "سونْدره بليكيفيين". آخر ما أريده أن يدسَّ يوناس أنفه في ما كتبه كلّ منكما للآخر، ولا رغبة لدي في أن ترثَ إنغريد هذا الشال. ثم،

عليَ بعد ذلك، من أجل مصلحتي الشخصية، أن أحاول المُضي قُدُمًا في حياتي. ثمّة الكثير ممّا ينبغي الاهتمام به بعد موتِ فَرد في العائلة – إغلاقُ حسابات، وإلغاءُ اشتراكات، وتصفية أمور عامَّة عالِقة. وقد كنتَ من ضمن هذه القائمة.

كنتُ قد خططتُ للذهاب إلى مكتبي في ذلك الصباح، وكانت قد قالت لي إنها تنوي زيارة صديقة لها. أوضحَت لي بصراحة لمرَّةٍ واحدة أنها لن تحضرَ إلى البيت على العشاء. وأشارت إلى أنها قد تبقى في الخارج لوقتٍ متأخرٍ. ‘لوقتٍ متأخّرٍ جدًا،’ قالت.

لم تَذْكُر من هي تلك الصديقة أو أين تعيش، وهكذا يبقى سببُ سفرها إلى شمال "سونيي" في ذلك الصباح مكتنفًا بالغموض بالنسبة لي. فهي لم تلمِّح من قبل قطّ إلى صديقة هناك، ومع ذلك حدَّدت لي بوضوح أنها ستغيبُ النهار بطوله.

أتراها نوَت أن تقطعَ كلّ المسافة إلى "سولَند"، حيث قضينا عددًا لا بأسَ به من العطلات في السنوات القليلة الماضية؟ ولو أن هذا ما نوَته، فلماذا لم تفصِح؟ ولماذا لم تأخذ السيارة، وماذا دفَعها إلى المشي على طول ذلك الطريق السريع المزدحِم؟

لأنها تعرَّضَت للحادِثة وأُطيحَ بها أرضًا على الطريق "إي٣٩" الواقع جنوب "أوبيدال"، أو على وجه الدقّة حيث يتفرّعُ الطريق إلى "بريك" و "رونْلدال". أكّدَ سائق الحافلة أنها ركبَت معه من "بيرغن"، وتذكّرَ إضافة إلى هذا أنها ترجّلت من الحافلة في "إنستفيورد" التي تُعتبر بالنسبة إلى وسائل النقل نهاية مسدودة، وقال أيضًا إنها كانت واقفةً هناك تنتظر عندما انعطفَت الحافلة نفسها في رحلةِ عودتها من "أوبيدال".

لا يمكن أحيانًا التنبؤ بما يخطُر على بال سولرن. وهذا ما عاد يهمّ الآن على أي حال. ما أودُّ افتراضَه جدلاً أنك لستَ أنت مَن كان قادِمًا من الشمال في

طريقه من "أوسلو" إلى "بيرغن". ألم تأتِ إلى هنا بالقطار؟

دهستَها قاطِرة ضخمة على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب من "سونيفيورد". إن الحدَّ الأقصى للسرعة هناك ثمانون كيلومترًا في الساعة، إلا أن سرعة تلك القاطِرة بلغَت ضعف المعدَّل المسموح به وهي تقطع المنحَدر الحادَّ نحو "إنستيفيورد". كان مجال الرؤية في تلك الأثناء غير واضح، وذلك السائق؛ شابّ أراد اللحاق بعبّارة من "أوبيدال" قبل إبحارها، يواجه الآن دَعوى قضائية، ومن المُرتَجى أن يلقَى حُكمًا بالسجن طويل الأمَد.

حتى هو جاء ليحضرَ مراسِمِ الدَّفن. غير أنه كما اتّضح، امتلك وَعيًا كافيًا ليبقى بعيدًا عن مراسِمِ استقبال العزاء. ولو لم يفعل لعاجلتُ إلى الإلقاء به خارجًا. ولعاجلتُ إلى الاتصال بالشرطة.

كنتُ مُنكبًّا على بعض الأعمال الإضافية في مكتبي في ذلك السبت عندما اتصلوا بي من المستشفى. أعلَموني بما حدَث، قالوا إن طائرة إسعاف قامت بانتشالها، وقالوا إن حالتها حَرِجة. اندفعتُ خارج مكتبي واتصلتُ هاتفيًا بكلّ من إنغريد ويوناس من سيارة أجرة. أُتيحَ لي الحصول على بضع دقائق معها قبل وصول ولَدَيْنا. كانت في وَضع سيّئ، ومع ذلك فتحَت عينيها، وبنظرة شفّافة كالبلُّور قالت، 'ماذا لو كنتُ مخطئةً. ربما كان ستاين هو الذي على حقّ!'

نحن لا نسمعُ الحقيقة من الأطفال والسُّكارى فقط. الذين على شفَير الموت أيضًا قد تَنِدُّ عنهم كلمات تنضَح حِكمة.

ربما كنتَ على حقّ يا ستاين. أليسَ لهذا وقعٌ جيدٌ في أذنيكَ؟

إنني أمرّرُ لكَ تحيّة سولرن الختامية من مُنطلق شعوري بالواجب تجاهها. أو هل ينبغي لي أن أقولَ تعليقَها الأخير؟ ولعلّ لديكَ فكرةً عما كانت تشير

إليه، أما أنا فلا. ولا بدَّ لي، وإن على مضَض، من الاعتراف بشكٍّ في شيء ما.

أنا ما برحتُ طَوال الوقت غير قادرٍ على مَنع نفسي من التفكير في أن التئامَ شملكما هناك في ذلك الفندق كان مصيريًا جدًا. فمنذ ذلك الحين لم تعُد هي نفسها قطّ.

وأنا أعلَمُ، وأرجّحُ أنكَ أنتَ أيضًا تعلَم، أنها كانت إنسانة مُتديّنة جدًا. وإيمانها بحياة أخرى بعد هذه الحياة لم يتزعزَع لا في السّراء ولا في الضّراء. فهل يحقُّ لي أن ألقي الكلامَ جُزَافًا بقولي إنكَ شخصٌ أقرب إلى العَقلاني؟ إن لم يكن بسببِ أي شيء آخر، فبسبب أنك عالِمٌ متخصّصٌ في حقلِ عِلْم المناخ وتغيراته. وبالتالي أتجرأُ على القول إنكَ كنتَ وسولرن على طَرَفي نقيض عندما انتهيتما إلى مُناقشة فلسفات الحياة.

وعلى الرغم من كلّ ذلك، إنني لا أنفكُّ أتساءل ما إذا كنّا سنُحسِن صُنعًا لو أننا تجنّبنا المَساس بمعتَقدات سولرن. كانت منارةً، كانت شُعلة، وكانت لديها مَلَكَة هي أقرب إلى الاستبْصار.

ربما كان ستاين هو الذي على حقّ؟

حملقَت إلي والذُّعرُ يغشى عينيها. وهناك رأيتُ حُزنًا لا عزاءَ له، رأيتُ هيجانًا عنيفًا، ويأسًا يفوق الاحتمال. ثم عادَت وغابَت من جديد، إلى أن أتيحَ لها أن تستجمعَ قواها لمرّة أخيرة. عندئذٍ، اكتفَت بالنَّظر إلي، فارغة من أي مضمون وعاجِزة، إذ لم يبقَ هناك شيء آخر يُقال. وربما كانت ما زالت في تلك اللحظة تمتلكُ قُدرة كافية لتودِّعني، إلا أنها لم تفعل.

لقد فقدَت إيمانها يا ستاين. كانت خاوِية خَواءً تامًّا. كانت جِدّ مُقفرة وناضبة.

ماذا عنَت عندما قالت إنكَ أنتَ الذي كنتَ على حقّ؟ وهل هذا مهمٌّ حقًا؟ أن تكون على حقّ؟ أو حتى أن تكون لديكَ القدرة أو الإرادة لتبذِرَ بذور الشكِّ المقلِقة في صُلبِ إيمانِ شخص آخر؟ لا، كما سبقَ أن قلتُ، لا أريد جوابًا منكَ. انتهى كلُّ شيء.

تراءَى لي من غير أن أعرفَ السببَ بالتحديد، أنكَ دخلتَ حياة سولرن وحياتي مثل إحدى شخصيات "إبسن" النَّكدة المتزمّتة. رجل آتٍ من البحر على سبيل المثال، أو ربما أحد أولئك المدمِنين على الحقيقة مثل شخصية "غريغر ويرل"؟ في هذه الحالة لن أتوانى عن الاضطلاع بتأديةِ دور شخصية أخرى أقتَبِسُها من مسرحية "البطّة البريّة"- دور "رلينغ" على الأرجح. ذاك الطبيب الذي يُجِلُّ خِداع الذَّات. وعندئذٍ، سأقبعُ في غرفتها العلوية الذَّهبية وأتفرَّسُ في آفاق المدينة.

في أحد الأيام في الآونة الأخيرة ذكَرت سولرن شيئًا عن احتمال ذهابها إلى "سولَند" لتودِّع البحر قبل قدومِ الشتاء. لم يكن من عادتها أن تخطِّطَ لمثل هذه السَّفَريات بمفردها. فهل تراكما كُنتما تنويان توديعَ البحر معًا؟ الثُّنائي الذي انطلقَ بسرعة فائقة جدًا إلى الجبل في ذلك اليوم من تمّوز.

لا أدري حقًا لماذا أسأل، لأنني كما ذكرتُ لا أريدُ أي ردٍّ. وهذا ما عاد له على الإطلاق أي أهمية يمكن تصوّرها.

نعم، جئتَ إلى "بيرغن" فِعلاً كما قلتَ! لولا أنكَ جئتَ متأخِّرًا جدًا. وبعد ذلك اتصلتَ بنا هنا بعد الظُّهر من يوم الأحد عندما كان كلّ شيء منتهيًا. كنّا قد عُدنا للتوّ من المستشفى. إنغريد هي التي ردَّت على الهاتف أولاً، واكتفَت بالقول إنها لا تعرفكَ، وإنه لا يمكنها أن تتكلَّم معكَ. كنتُ آنذاك جالسًا منحنيًا على طاولة الطعام، وأخبرتُ إنغريد بأنني أعرف من أنتَ، إلا

أنني مثلها لم أجدني قادرًا على التحدّث معكَ. يوناس هو مَن أخذَ سماعة الهاتف في النهاية وأطلعكَ على ما جرى. ولم أمنعْه.

وماذا فعلتَ بعدَ ذلك؟ بقيتَ في "بيرغن" إلى أن أَزِفَ موعد الجنازة؟ أم خرجتَ ورُحْتَ تحدّق في البحر؟

هذه الأسئلة ليست إلا بَلاغية.

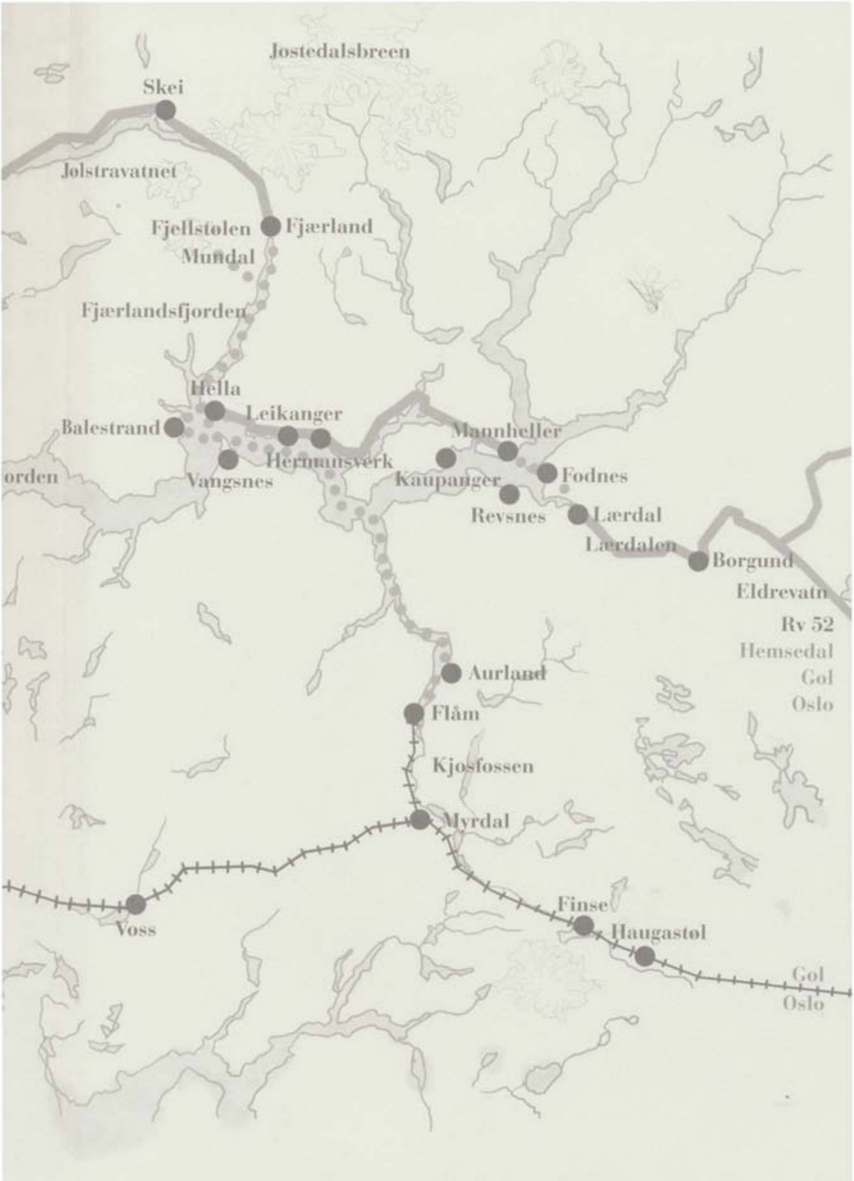
من الآن فصاعِدًا أودُّ أن تنقطعَ جميع الاتصالات بيننا، وآمل أن تحترمَ رغبتي هذه. سيكون عليَ أنا والولديْن لمدة طويلة قايِمة بذل ما يفوق طاقتنا من جُهد ليعتنيَ كلّ منّا بالآخر.

لقد خلَّفَت فراغًا وراءها هنا في "سكانسن". وفي ناحيتنا من هذا الجبل، لطالما كان هناك أناس آخرون يهمّهم أيضًا أمر سولرن.

وحتى لو أفضَى بي الأمر إلى أن أتخِذَ من شخصية "رلينغ" دورًا لي، لن يجعلني ذلك أبدًا أعتَبِر سولرن إنسانة عادية.

هذا كلّ شيء.

نيلز بيتر


Jostedalsbreen
Skei
Jølstravatnet
Fjellstølen
Fjærland
Mundal
Fjærlandsfjorden
Hella
Balestrand
Leikanger
Hermansverk
Vangsnes
orden
Mannheller
Kaupanger
Fodnes
Revsnes
Lærdal
Lærdalen
Borgund
Eldrevatn
Rv 52
Hemsedal
Gol
Oslo
Aurland
Flåm
Kjosfossen
Myrdal
Voss
Finse
Haugastøl
Gol
Oslo

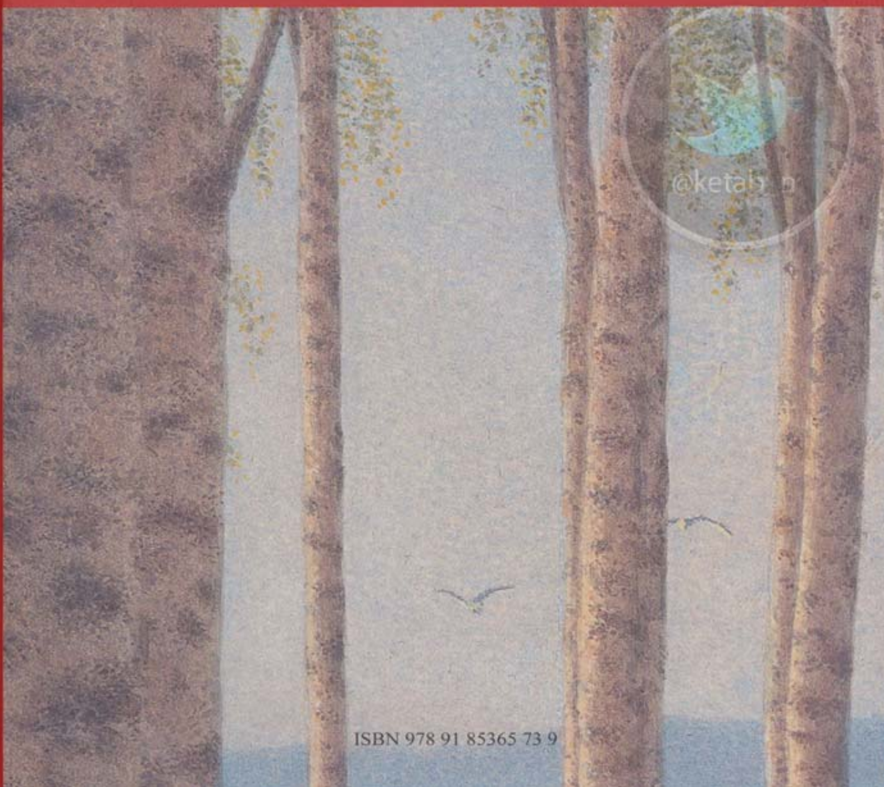

Førde
Jølstrav
Fjærl
Balestr
Sognefjorden
Solund
Sula
Rysjedalsvika
Krakhella
Lavik
Ytre Sula
Rutledal
Oppedal
Kolgrov
Nåra
Instefjord
Brekke
Bergen

جوستاين غاردر مؤلف "عالم صوفي"
في رواية جديدة

بعد فراق دام ثلاثين سنة يلتقي ستاين وسولرن في المكان الذي شهد أروع أيامهما معًا وأشدها إيلامًا. فهل جاء هذا اللقاء، في ذلك المكان وذلك الزمان بالتحديد محضَ صُدفة أم كانت هناك قوىً خفية تقف وراءه؟ وهل رسم لهما هذا اللقاء خطوط بداية جديدة أم نهاية غير متوقعة؟

يحملنا جوستاين غاردر، مرة أخرى بعد "عالم صوفي"، على أجنحة رواية إبداعية تجمع بين الحبّ والفلسفة والعلم في رحلة فكرية تأخذ مجراها عبر آفاق رسائل إلكترونية يتبادلها الأبطال.

ومثل قلعة البيرينيه في لوحة الفنان "ماغرت" التي تتوّج صخرة عائمة في الفراغ فوق البحر، يتركنا غاردر نسبح وحدنا في الهواء على صَهْوة جُملةٍ من علامات الاستفهام التي تتمحور حول طبيعة وجودنا ومكانة وعينا في هذا الكون، على أمل أن يعثر كل منّا على الأجوبة التي يمليها عليه حدسه.



ISBN 978 91 85365 73 9